محمد برادة

صوت مختلف

رواية

دار الآداب

محمد برادة

موت مختلف

رواية

دار الأداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة©

الإهداء

إلى العزيز الراحل
عثمان بنَّاني
رفيقي في حلتي إلى «دبدو» وذكرى صداقتنا الحميمة
محمَّد برادة

«ليس الزَّمن سوى حاضرٍ مؤلم، مُحمَّلٍ بالذكريات المُقتحمة، الطاغية، فلا أستطيع أبدًا أن أحذف صورة واحدة من حياتي...

«وحدَها مشاهد قصيرة، قضمتُها مثل اتٍ خاطفة، تُسعفني على الانفلات خارج الحاضر؛ ومن ثمَّ الانتباه الذي أوليهِ للعالم، واحتفائي باللّقاءات العابرة والانطباعات الهاربة ...»

م.ب

«كيف نكتب ونحن نستحضر الموت أفقًا لنا, ونتحدَّث عن خُبوطٍ وفشلٍ ومأساة؟ ألا تستوجب الكتابة افتراضَ مجالٍ للتصارع والربح قبل الخسارة؟»

م.ب

وحدي في الشّقّة. السّاعة جاوزت التّاسعة صباحًا. تلاشت الجَلبة الخفيفة التي ترافق مغادرةَ التّلاميذ والآباء والأمّهات لِمنازل المُجمّع السّكنيّ الذي أقطنه بِضاحيةٍ قريبة من باريس. أنا, ممدّدًا ما أزال على الفراش، أستمع بأذنٍ لاهيةٍ إلى لقطات الأخبار وتعليقات الهزليّين ذوي المزاج السوداويّ على الأوضاع الاقتصاديّة. سوداويّة تتفاقم مع صعود نسبة العاطلين منذ عودة الحزب الاشتراكيّ إلى الحكم في فرنسا العامَ ٢٠١٢. لا أستطيع التركيز على شيء. ذهني ينتقل من موضوع إلى آخر، من فضاء إلى فضاء. هو أوّل يوم لي في ضيافةِ التقاعد: كلّ هذه السّنوات مرّت؟ أين استقرّت؟ كيف ألملمُ حواشيها لأزِنَ ثِقلَها؟

أخشى أن يلازمني الشعور بأنّ الزّمن هو مجرّد حاضر. حاضرٌ يتلوّنُ, لكنّه لا يغيّر الماضي ولا يؤثّر في المستقبل. لأوّل مرّةٍ, أنتبه إلى أنّ الحياة تجري في حاضر مستمرّ، وهي أشبه بجحيم لا اسمَ له. تتحرّك في حيّزٍ من دون امتداد. تبحث عن علاقة أحادية مع الوقت. تتركّز الذاكرة على الآنيّ. لا تستطيع أن تتقهقر إلى فسحةٍ فاتت، أو إلى مضاءةٍ مُحتملة. عليك أن تستقرّ في هذا الحاضر، أن تسوسَهُ وفق ما يجعل الإيقاع محتملًا.

يبدأ التقاعد بعد مرور سبعٍ وأربعين سنة على وصولي إلى فرنسا. مجرّد هذا التذكُّر يبعث بأعماقي صدى التوثُّبِ والتطلُّع خلال تلك الفترة الباكرة من عمري. مطلع الشباب. الأحلام المُحفّزة. قبول النّزال مع الزمن... إلّا أنّني وأنا أستحلي التلكؤ في الفراش ومرافقة ثرثرة الإذاعة وأغانيها ، أحسّ وطأة التغيُّر الذي طالما أنكرتُه.. تغيُّرٌ تَجاهلتُ انعكاسه على سرعة حركاتي، عُبورَه إلى العظام والمفاصل, الرّخاوة التي تشي بأنّ الصدأ تسرَّبَ إلى ما انقضى من العمر والأيّام. ما أحسُّه الآن هو مثل

الفرق بين وجودي داخل مركبة صاعدة نحو عَنان السَّماء أيَّامَ الشباب، ووجودي داخل أرجوحةٍ تتدحرج نازلة نحو قعرٍ يحُفُّه السَّواد.

مع ذلك، أنتفض في قرارة نفسي متحدِّيًا: أنا لستُ آلة صماء، فاقدة الرَّنين، تعبُرني الأحداث والمواقف دون أن تخلِّف بصمات أو ردود فعل. بل أحرصُ دومًا على أن أسجِّل وأناقش وأكوِّن رأيًا عمَّا أعيشه أو أشهد وقوعه. دائمًا متحفِّز أمام ما يصيبني برشاشِ مُلطَخ، أو يوقظ تمرُّدي على ما ليس لي فيه إرادة. كيف أنسى أنَّ مجيئي إلى فرنسا من مدينة «دبدُو» مسقط رأسي في شمال المغرب الشَّرقيّ، هو اختيار وتحدٍّ مُناهض لما كنتُ أحسُّ أنَّه يكتم نزوعي إلى اكتشاف العالم .

في هذه اللَّحظة بالذَّات، وأنا مُمدَّد على الفراش أستقبل أوَّل يوم في روزنامة تقاعُدي، تغمرني رغبة كاسحة في أن أسرد رحلتي بطريقةٍ ما، لتبدو المراحل والقَسَمات ماثلة، بارزة، فتُسعفني ربَّما على أن أستوعب مسارًا خضَعَ للارتجالِ والنزوة والجزيِ وراء أحلامٍ عزيزة المنال؟

أعرف أنَّ استعادة حياتنا، بأيِّ شكل نختاره، لا تساعدنا على حذف مقطعٍ أو صورة من فيلم الذاكرة المُشتبك مع تفاصيل واستيهامات لا ندري من أين تنبثق. إلَّا أنَّ العتبة الغُفريَّة التي أجتازها الآن تجعل نظرتي، تقييمي لهواجسي، غيرَ ما كانا عليه من قبل. هل أستطيع الإمساكَ بالفروق؟ هل أتغلَّب على المتاهة التي تمتدّ أمامي كلَّما استرجعتُ سيرورة حياتي؟

لكن، قبل أن أنغمر في سردِ ما قطعتُه من الرِّحلة، وجدتُني أستجيب لرغبةٍ طاغية انبثقت من غُلبة سوداء قابعة بأعماقي، تحثُّني على أن أبدأ بزيارة مسقط الرأس: فضاء الانتماء الأوَّليّ إلى الهُويَّة. هُويَّةٌ تبدأ واضحة، رنَّانة، قبل أن تسلك مساربَ الالتباس والتحوُّل، وتنحشرَ في نطاق فُقدانِ اليقين.

زيارةُ مسقطِ الرَّأس

تقترب الطَّائرة من وجدة، وأنا في حالة اضطراب وتشتُّت.أكثر من أربعين سنة مرَّت منذ غادرتُ مسقط رأسي، عازفًا عن زيارة دبدو، مرتع الطفولة وأيَّام البكارة والسرحان وسط التلال وأشجار اللَّوز والزيتون، والتُّفاح البلديّ ذي الطَّعم السَّاكن بعدُ في مُزدرد الحلق. كأنَّني سعيتُ، منذ وصولي إلى باريس، أن أمحو دبدو وحمولاتها الذاكريَّة من سجلّ طفولتي ومراهقتي، لأفتح صفحة بيضاء أنطلق منها على أرض فرنسا التي فُتنتُ بها خلال سنوات دراستي الثانويَّة في مدينة وجدة.

أبي كان يشجِّعني على عدم زيارة دبدو قائلًا: «ما عندَك ما تدير هنا. ما كاينْ غير الخلاء والماء وقلَّة الشغْل. خليك تتعلَّم اللِّي ينفعك. أنا وأمّك تندعيوْ لك صباح وعشية باش ترجع لنا شي مهندس أو طبيب».

أنا كنتُ مشدودًا إلى عالم جديد بالنسبة إليّ، حريصًا على النفاذ إلى أعماقه وإرواء عطشي إلى المعرفة، والإسراع بالاندماج في فضاء يوقظ الحواسّ والعقل ويستحثُّ الفضولَ. اخترت دراسة الفلسفة، ثمَّ تدريسها بعد التخرُّج؛ والتحقتُ بجمعيَّات ثقافيَّة، وانخرطتُ في نقابة يساريَّة محمولًا على جناح أحزاب اليسار المُعارضة للجنرال ديغول، الرافضة لرمزيَّته الخرافيَّة. لا شيئًا، لا شخصًا، ولا زعماء، يمكن استمرارهم مُحصَّنين داخل هالةِ الاعتبار والتقديس. أسلاكُ الجدليَّة سارية دومًا، تُعيد النَّظر وتجهزُ بالانتقاد... هذا هو الجديد الذي شدَّني إلى فرنسا، أثناء دراستي وبعد التحاقي بسِلك التَّعليم. كنتُ كأنِّي قيدَ الولادة مرَّة ثانية، ولا أريد أن أعرقلها بزيارة دبدو، أو الالتفات إلى ما يجري في أنحاء الوطن. كنت أقول مع نفسي: لتتمّ الولادة أوَّلًا، وبعد ذلك، ألتفتُ إلى ما أستطيع أن أفعله، وقد اكتملت شخصيَّتي وَفْقَ معرفةٍ ومبادئ أعادت خلْقي واندماجي في عالم اليوم.

علاقتي بأبي تطفو في مُخيِّلتي الطفوليَّة محفوفةً بهالةٍ مُضيئة وابتسامات مشرقة، ومحبَّة يُغدقها عليّ بغير حساب، خاصَّة عندما يعود من رحلاته إلى الأسواق الأسبوعيَّة التي تُعقد في دواوير بني ريّص وإقليم تاوريرث ووجدة، لأنَّ مهنته ككسَّابٍ يربِّي الأغنام والمعز والعجولَ، تجعله دائمًا في حركة وتنقُّل. هو يُجيد الحكيَ ونقل الأخبار ووصف ما شاهده خارج دبدو المنغلقة على حدودها. ربَّما، لأنَّ قبيلته من أصل عربيّ،

لم يكن يسمح لأمّي الزناتيّة، الأمازيغيّة، أن تخاطبني بلغة الأمّ. كنتُ ولدهما الوحيد، وكان أبي يُعلّق عليّ آمالًا لم أكن أدرك حجمها. فزحَتُه لا توصف حين أنهيتُ مرحلة التّعليم الابتدائي في مدرسة ابن منظور في دبدو، ثمّ حين انتقلتُ إلى ثانويّة ابن خلدون في وجدة. أيّام العُطل، كان يصحبني معه إلى المسجد وعين إشبيليّة ومُنتجَع تافرنت، ويُقدّمني إلى معارفه بافتخار وهو يؤكّد على نجابتي ونجاحي في الامتحان بتفوُّق... يُصيخ السمع وأنا أحكي له عن وقائع من تاريخ أوروبا، ولا ينسى كلّ مرّة أن يخُصّني على قراءة تاريخ المغرب أيّام أمجاده الأمبراطوريّة، وأيّام مقاومته الاستعمار الفرنسي: «اسأل أستاذك عن معركة «حنون» التي خاضتها قبيلتا بني رِيْص وَعلوانة في عام ١٩١١». فخورًا كان بتلك المعارك التي شارك فيها جدُّه وبقيّة العشيرة...

أسأله، حين مرورنا قرب مقبرتين مُغلقتين، يقول الناس عنهما «مقابر اليهود»، فيُجيبني بأنّهما يضمّان أجداث يهودٍ وفَدوا منذ قرون على دبدو واستوطنوها؛ وداخلها، تعايشوا مع المغاربة، لكنّهم رحلوا منذ سنوات، واللّه وحدَه يعلم أين ذهبوا...

هكذا هي ذكرياتي عن مسقط الرأس: غائمة القَسمات، تنتظمها لحظات متناثرة، يطبعها حنان أمّي الدافق، وثقة أبي بقدرتي على تحقيق ما يتمنّاه. وكنتُ، أنا الطفل المدلَّل، والتّلميذ النجيب، والمراهق المحظوظ عند بنات الأسرة والمدرسة، يلذُّ لي أن أضطلع بمهمّة تحقيق ما يترجّاه أبي، ويؤمله زملائي، من وراء اجتهادي وطموحي. حين أستعيد الآن تلك الأيّام، تبدو لي مُختزلةً في حرصي على التفوُّق، ورغبتي في النزوح بعيدًا عن فضاء دبدو الذي كان يزداد ضآلة وانكماشًا، في عينيّ، كلّما انتقلت من سنة إلى أخرى.

خلال سنتي الجامعيّة الأخيرة بباريس، استيقظ لديّ فضولُ الجذور والهُويّة، فبدأتُ أهتمّ بتاريخ دبدو، الذي تبيّن لي أنّه ارتبط منذ قرونٍ، منذ الدولة المرينيّة، بامتدادات السلطة المغربيّة في شرق المملكة، كما ارتبط باستقبال عشائر يهوديّة هاجرت مضطرّةً في القرن الخامس عشر من غرناطة وإشبيلية إلى دبدو، فرارًا من اضطهاد المسيحيّين الكاثوليك.

النّظرة الضبابيّة التي رافقت علاقتي بدبدو منذ البدء، أخذت تتبدّد وأنا أمعن في قراءة أبحاث ومقالاتٍ عن دبدو القابعة على مقربة من

مدينة تاوريرت، التي هي منفذها الوحيد إلى بقية أنحاء المغرب. دبدو محاطة بالجبال والتلال من كلّ الجهات؛ وشكلها الطبوغرافي يجعلها تشبه المِحقَن، إذ تتجمَّع الأرض والأشجار والبنايات والطرقات في شكلٍ دائريّ، ليس لديه سوى منفذ واحد يُفضي إلى تاوريرت. أمعِنْ النَّظر في الخارطة، فأجد فعلًا أنَّ دبدو نقطةُ نهايةٍ لمَنْ يأتي زائرًا: لا يمكنه أن يستأنف الطريق إلى بلدة أخرى، بل يتحتَّم عليه أن يعود من حيث أتى، أي إلى تاوريرت والمُدن المجاورة.

الآن، وأنا أسير بين طرقاتها التي لا أجدُها تبدَّلت عمَّا كانت عليه حين غادرتُها في أكتوبر سنة ١٩٦٥، أحسُّ بغربةٍ مضاعفة تُعيدني إلى تلك الأيّام التي كنتُ أشعر خلالها بأنَّ فضاء دبدو لا يُلائم تَوقي إلى سماواتٍ عالية، زاخرة بالمنشآتِ وناطحات السَّحاب وضجيج المعرفة... وفي الآن نفسه، أحسُّ بحنين إلى جولاتي أيّام المراهقة، في أعالي الجبال المحيطة بعينِ تافرنت، وإلى مواعيدي الغراميَّة تحت عريشٍ أو مضاءةٍ تظلّلها أشجار وارفة. حنين مفاجئ، لكنَّه لا يقتلعني من مشاهد وفضاءات فرنسا التي استوطنت مخيِّلتي طوال ما يقرب من خمسين سنة.

لكنَّ ما أنساه أو أتناساه، هو أنَّني أعود إلى مسقط الرأس يتيمًا، لأنَّ أمّي فارقت الحياة في فترة وجيزة بعد مرض ظلَّ مستعصيًا على تشخيص طبيب مستوصف دبدو، ولم يكن أبي يتوفَّر على إمكانات تسمح بنقلها إلى مستشفى مدينة وجدة. وعلى إثرِ رحيلها السَّريع، ألمَّ بوالدي حزن كثيف دام خمس سنوات قبل أن يلتحق هو أيضًا بالآخرة. وطالما هاتفتُه لأقنعه بالمجيء إلى باريس ليعيش معي بضعة أشهر، فكان يرفض مؤكِّدًا لي أنَّه في أحسن حال، وأنَّ عليَّ أن أهتمَّ بعملي وزوجتي وطفلي... ندَمٌ عارم يحاصرني وأنا أستعيد هذا الغيابَ المُقترنَ باليُتم.

أعلِّلُ تقاعُسي وإهمالي لأمّي وأبي بانغماري الجنوني في «حوْمة النضال» من أجل انتصار الحزب الاشتراكي الذي أنتمي إليه، في انتخابات ١٩٨١ الرئاسيَّة بفرنسا. كانت لحظة في حياتي مصنوعة من اعتقادٍ وحماسٍ واندفاع، جعلتني أتفانى في الدِّفاع عن برنامج ومبادئ تراءت للآلاف آنذاك، بأنَّها التَّصحيح الضروريّ الذي تحتاجه فرنسا لكي لا تنجرف سريعًا نحو رأسماليَّة عمياء، وعنصريَّة كاسحة تغتال مبادئ التَّنوير التي قامت عليها ثورة ١٧٨٩. كنتُ ضمن الأغلبيَّة المؤمنة بهذا الإصلاح، لتفادي

العيش وسط بلبَلةِ اهتزاز القيم وانتشار الارتياب والتشكيك في جدوى السياسة.

انقطعت صلتي بدبدو أو تكاد، واكتفيتُ بالسُؤال، على فتراتٍ طويلة، عن عمّي وعائلته الصغيرة، ولم أشعر طوال ما يزيد عن أربعين سنة بضرورةِ لزيارة مسقط رأسي.

عندما حلّ موعد التقاعد، وبعد أن أنهى ابني بدر تعليمَه العالي، وبعد أن تعوَّدتُ أنا على الطلاق من زوجتي مكتفيًا بعلاقات عابرة؛ وجدتُني فاقدَ البوصلة، كأنّني ثورٌ في «كوريدا» أحملق في الفراغ بعد أن نخسَني المصارع وانسحب مختالًا، وبقيتُ أنا فاقِدَ الزنبرَك الذي يُحفِّز الحركة لديّ.

قلّما نقبل ما هو متوقَّع، أيْ ذلك الذي يُساير في العمق منطق الزمن ونفاد زادِ المحبَّة. بدلًا من ذلك، نتوهَّمُ أنَّ السَّنوات لا تُنضِب المشاعرَ ولا تؤثِّر في قدرتنا على المصارعة والوثوب. وكلّما تذكَّرتُ لحظة النُّضوبِ ونفاد الطاقة، تذكَّرتُ مشهدًا رأيته في مسلسل تلفزيونيّ: زوجة تجاوزت الخمسين، ترافق إلى قسم الطوارئ بأحد المستشفيات، زوجها عالِمَ الرياضيّات الماهر، بعد وعكةٍ مفاجئة جعلته يتهاوى ويشوبُ كلامَه هذيان. قرَّر الطبيب أن يحجز العالِم للعلاج، وأصرَّت الزوجة على أنَّه مجرَّد عياء عابر. هي تسأل الطبيب: هل سيكون معافى في الغد، لأنَّ عليه أن يقدِّم عرضًا عن نظريّاته أمام مؤتمر عالميّ؟ يجيبها الطبيب بأنَّ زوجها لن يستعيد صحَّته وذاكرته، لا بعد شهر ولا بعد سنة؛ فأخذت تصيح: ما تقوله غير ممكن، إنَّه دائمًا يفيض بالنشاط. يعود الطبيب ليحسم الموقف: أنتِ لا تفتحين عينيك. زوجكِ جاوز السَّبعين سنة، وإيقاع السُّرعة والانتقال من طائرة إلى أخرى لا يناسب سنَّه. ألا تفهمين أنَّه في حالة نفادٍ ونُضوب؟

خلال أصباحٍ متوالية، بعد التقاعد، وأنا بين يقظة ونوم، مستسلمًا لذبذبة أصوات الإذاعة، تطفو في ذهني مشاريع وأسئلة طالما تفاديتُها، عندما كانت حَوْمَة العمل والنشاط التطوُّعي تستحوذُ عليّ. في مُقدَم ما يطفو، علاقتي المكبوتة ب «دبدو» والوطن، وتجاهُلي لحصيلة المسار الذي سرتُ فيه محمولًا على أجنحة الحُلم والافتتان ومنطق الحذس والقلب.

في مطار وجدة، وجدتُ «صادق» ابن عمّي في انتظاري. لم أتعرَّف

عليه وحدي بل من خلال اللّافتة التي كتب عليها اسمي. وجدتُه طويل القامة، وسيمًا، وابتسامة ترافق محيّاه. عانقني مرحّبًا سعيدًا بلُقياي، ثمَّ اقتادني إلى دبدو في سيارته « كَلِيُو»، فخورًا باستقباله لابن عمّه المهاجر منذ عقود، والذي طالما سمع أباه يُثني على نجاحي في الدراسة والاندماج داخل المجتمع الفرنسيّ. صادق يعمل ممرّضًا متخصّصًا في مستوصف حكوميّ؛ وقد توقّف عن متابعة تعليمه، لأنَّ تقلُّبات الطقس والجفاف يعاكسان جهود والده الفلّاح العاجز عن القيام وحده بأعباء العائلة. وأختُه أحرزت على البكالوريا، إلّا أنَّ أمّها رفضت إرسالها إلى وجدة أو تطوان لمتابعة تعليمها العالي، لأنَّه لا يجوز أن تُقيم وحدها بعيدًا من أسرتها، ثمَّ إنَّ ما تعلّمته، تقول الأم، كافٍ. ومستقبلها يضمنه الزواج. وهل تزوَّجت؟ سألتُ. ما تزال تنتظر ابن الحلال، قال صادق. لكنْ لا أخفيك يا ابن عمّي أنَّ الأوضاع الماديّة لا تسمح لشباب دبدو بالزواج، وفلاحة الوالد لا تسمح بالإنفاق على عريس عاطل. لو هي محظوظة، سيطلب يدها دبدُوبي هاجر إلى الخارج، وجاء ليبحث عن ابنة بلدته لتضطلع بشؤون البيت وتربية الأطفال، وتنفيذ ما يأمرُها به...

أحسستُ كأنّي أعرف صادق من زمان. صراحتُه ولغته المباشرة نبّهتاني إلى واقع تلاشى من ذهني بسبب طول غيابي عن مسقط الرأس. وعندما سألته عن سبب توقُّفه عن متابعة تعليمه، قال إنَّه في الحقيقة لا يريد أن يجري وراء الأوهام، لأنَّ خرّيجين كُثرًا لم يعودوا يجدون عملًا، فتحوَّلوا إلى مُضربين دائمين عن الطعام، يحتجُّون أمام البرلمان... هو يفضل أن يبقى قريبًا من العائلة ليساعد أباه أيّام العطل في فلاحة قطعة الأرض التي يمتلكونها، وليكتسب خبرة في الزراعة منتظرًا أن تتغيَّر الأحوال! قُربه من الأسرة ودبدو يمنحانه، على الأقلّ، نوعًا من الأمان والاستقرار لن يجده في مدينة كبيرة، لن تُفضيَ به إلّا إلى سراب.

خطَرَ لي أن أقترح عليه أن يغيّر مساره لتصبح حياته أفضل ممّا هي عليه؛ لكنْ هل أستطيع أن أعينه؟ وهل أنا متأكّد أنَّ ذلك سيقوده نحو الأفضل؟ منذ أربعين سنة، كنت أنا أعيش في دبدو مثله، غير أنّني كنت محمولًا على أجنحة الحلم، مشحونًا برغبةٍ عارمة في تغيير نمط حياتي... أما هو، صادق، فيعيش فوق الأرض، يُعاين ما حوله من مُنطلق صلب، ويقيس الأشياء والعلائق والناس من منظور بسيط لا يتعدّى ما هو قائم في الظاهر. وقد بدا لي، خلال الحوارات التي دارت بيني وبينه منذ

وصولي، أنَّ الأيَّام علَّمته أنَّ هناك قوانين صارمة تحكم العالم، وأنَّ عيشته البسيطة المحدودة في دبدو المنعزلة، لا تمنعه من أن يتفرَّج على سيركِ الدُّنيا وما تحتويه من خوارق، دون أن ينجرَّ إلى الاقتراب من أضوائها الحارقة. ساعات أمام التلفاز كافية لنقله إلى تلك الأجواء الغرائبيَّة، الضَّاجَّة، المتحاربة، المُتسلِّية بالستريبتيز ومسلسلات الرُّعب ومباريات كرة القدم والتنس والغولف... وأيضًا صور آلاف الناس من كلّ الأجناس، وهم يتباكَون كلَّما أنذرت البنوك بإعلان إفلاسها، أو انهارت أسعار البورصة... وهم الملايين نفسها من البشر الذين يتعبَّأون على قدمٍ وساق، إذا ما اقترب عيدُ أو كرنڤال ليمدُّوا السُّفط ويُقيموا الولائم، متبارين في تقديم أطباقٍ شهيَّة وأنبذةٍ مُعتَّقة تُسيل اللُّعابَ، وتطرد كوابيس الأزمة.

كلّ ليلة، وقبل أن يتنفَّس الصُّبح، يجفوني النوم وأجدُني أمام السُّؤال نفسه الذي كان وراء زيارتي للمغرب: ما موقع دبدو من نفسي، لأنَّني أحسُّها متغلغلة ما تزال في السَّويداء والوجدان؟ أعود إليها وقد انجلت أوهام الشباب، وتعبتُ من الجري وراء أحلام الثورة وتغيير الجِلد؛ وأريد أن أعرف حقيقة شعوري داخل عالم مُلتبس الحدود، مُختلّ الإيقاع، كلَّ يوم هو في شأن؟

اهتمامي بمعرفة ماضي دبدو في السنوات الأخيرة، جعلني أقف على ملامح مشرقة في تاريخها القديم، خاصةً في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. بعد ذلك، انحدرتْ إلى غفوة النسيان، وانعزلت بين سهول تفراطة ووادي ملويَّة، لتغدو نقطة جغرافيَّة ليس لها صدى في ذاكرة المنطقة والوطن. هل بسبب ذلك أحسَّني «أجنبيًّا»، غريبًا عن المدينة، رغم السَّنوات العشرين التي أمضيتُها بين جنباتها؟ لا شيء في دبدو يقنعني أنَّها يمكن أن تكون مأوايَ في ما تبقى من عمري. اللَّحظاتُ المضيئات الباقيات في ذاكرتي لا تكفي لأن تجعل إقامتي هنا مستساغة، حاملة للرّوق والطمأنينة وحُسن الختام.

يتراءى لي طيف فطُّومة التي كانت مثل نسمة منعشة في صيفٍ قائظ، وأنا في عزّ المراهقة. هي توقفت عن المدرسة في مرحلة مبكرة، واشتغلتْ مع والدها في أرضه الزراعيَّة، لكنَّها ظلَّت منجذبة إلى القراءة وحيويَّة الشباب. صفاء مُتناهٍ في الطبع والعواطف جعلني أجد فيها واحة ظليلة، وحُبًّا أوَّلَ تؤجِّجه العُذريَّة والقبلات الملتهبة. استمرَّت علاقتنا إلى

أن أحرزتُ على البكالوريا، وغادرتُ مسقط الرأس.

الآن، وأنا أجوس بين جنبات «عين تافرنت»، أستعيد جولاتي مع فطُومة بعد الغروب، مُتستُرين بالظلام، مُجنُحين عبر أحاديث ومناجيات كانت تنسج بيننا عاطفة، يستعصي عليّ الآن أن أسمّيها. كلّ ذلك تلاشى بعد سفري إلى فرنسا. ابتلعني فضاء باريس العملاق: مدينة مُبرمجة وفق إيقاعٍ سريع، لا مجال فيه للتلكؤ أو التداعيات الرومانسيّة.

أذكر فطُومة والأوقات الهنيّة التي أمضيناها معًا، وأستطيع أن أتحدّث عنها أو أن أكتبها، بل وأن أعيد تخيُلها عبر استيهامات وتفاصيل لم تحدث، لكنّها تتخايَلُ للذاكرة الآن، وتوهِمُ بصدقيّتها... لعلّ عُزوفي عن استعادة تلك اللّحظات الرومانسيّة يعود إلى تراكُم الأنوات داخلي: فأنا هو منير الطفل، ثمّ المراهق الحالم بأوروبا، وأيضًا أنا هو منير الذي أمضى أكثر من أربعين سنة في مجتمع له تاريخ مختلف، وامتلأ ذهنه بأفكار الأزمنة الحديثة، وعايَنَ التحوُلات المتسارعة واهتزاز القيم على أرض الواقع، وذاق مرارة الخيبة وهي تستوطن، على غفلةٍ، مناطقَ من نفسه...

منذ وصولي إلى دبدو، وأنا أتحيّنُ الفرصة لأجوس عبر أزقة المدينة ومقابرها ومآثرها، متعلّلًا بأنّني أريد أن أمتحن ذاكرتي، لأعرف هل ما تزال تحتفظ بخارطة مسقط الرأس؟

هذا المساء، قصدتُ مقهى بعين تافرنت، تشرف على معالم المدينة من كلّ جوانبها. شمس أكتوبر المتلكّئة تجنح إلى المغيب. هدوء ينضح بالسُكات؛ وأنا مستسلم إلى حالة ارتخاء في المشاعر ، والتذكُرات تنثالُ لتجعلني أغوص رويدًا رويدًا في أحلام اليقظة.

أتخيّلني مهندسًا حاذقًا، لا أستاذًا للفلسفة. مهندس منَحهُ اللّه شيئًا من العبقرية، فأصبح قادرًا على تحويل دبدو من مدينة أزْرَى بها الدّهرُ إلى مدينة عملاق (ميكالوبوليس)، تصطفُّ على جنبانها، في نصف دائرة، ناطحات سحاب، وتتلألأ في سمائها أضواء الشوارع الفسيحة والمتاجر الفخمة والكازينوات العامرة، وملاعب الأطفال الضاجّة، ومراقص الصبايا والصبيان... وراء تلك الواجهة المُبهرة، تتناثر بقايا آثار الرومان وأسوار قلعة المرينيّين، ومقابر اليهود الذين نزحوا من إشبيلية منذ قرون، وأسهموا في ازدهار المدينة وتنشيط تجارتها... ماضٍ مجيد يسكن أبهاء مِعمارٍ قرويّ لا طراز له يميّزه، ساد بعد عقود من الإهمال وانكماش دبدو

داخل هضابها. وها إنّني، أنا المهندس العبقريُ، سليلها وابن تُربتها، أعود لأبتعث الحيويّة في عروقها، وأنقلها من زاوية المُهملات إلى واجهة المُحدثات. حينئذٍ، أشعر أنّني لم أضيّع سدى سنوات الشباب والكهولة في تعلُّم الفلسفة وتدريسها. لم أضيّع العمر في الجريِ وراء اشتراكيّة فرنسيّة تُحيي فكرَ الأنوار ومبادئه الكونيّة، لتشمل الدُنيا وتنير الطريق للضّالين... هيهات! طَعمُ الرّماد في الفمّ هو ما تبقّى من فترة الأحلام الذهبيّة.

لا علينا. الآن، من خلال أحلام اليقظة، أحسُني سعيدًا وأنا أنفخ الرُوح في دبدو الهادئة، المُعتزّة بهوائها العليل ومناخها الجافّ، وتصديرها للأغطية الصوفيّة الرفيعة، التي أوصاني صادق ابن عمّي أن أقتنيها: «عليك أولد عمّي بشي «دبدوبي» يسخّن لك العضيمات في باريس». لن أنسى أن أشتري الدبدوبي لأسهم في ترويج اقتصاد مسقط رأسي؛ لكنّني الآن مُنتشٍ بتوهُماتي: أزرع جيناتِ الحضارة المجنونة في أحشاء دبدو . وها هي شامخة، كما تتراءى لي، عبر الأبراج والعمارات الشاهقة، تجذب عُشاق المعمار الفانتاستيكي، وتُغري المهووسين بزواج الأصالة والمعاصرة. أحتفظ بعينيّ مُغمضتين، لأستديمَ صورة دبدو العملاقة التي أعدتُ خَلقها من جديد. لا أفتأ أردّد أنّ هجرتي إلى بلاد الإفرنج لم تذهب سُدى؛ فهناك اكتسبتُ معرفة متقدّمة، وبلورتُ إرادة تتغذّى من طموحي اللامُتناهي؛ وها أنا ذا أنفق كلّ ذلك في ترقيةِ ساكنة مسقط رأسي، أولئك المنسيّين عند أطراف المملكة...

لا يريد حُلمُ اليقظة هذا أن يتلاشى. أحسّه مُتشبّثًا بما وراء أهدابي، لا ينفكّ عن نسجِ صورٍ مُتناسلة، تؤثّث جميعُها هيكلَ دبدو/الميكالوبوليس.

يَستدرجُني حلمُ اليقظة إلى ما قرأته وشاهدته من آثار ووثائق عن الهِند الشاسعة ذات العادات والطقوس الغرائبيّة. وتذكّرتُ تلك الفئات الاجتماعيّة العريضة من «المنبوذين»، «المُغلق عليهم»، التي لا يُسمح لأفرادها بالزواج ممّنْ ينتمون إلى طبقات سويّة، بارزة في سلّم التراتبيّة الموروث... مع ذلك، تمتلئ حياة الهند بقصص الحبّ المُحرّم، تنشأ بين سكان مدن القصدير الثاوين في فضاءات عشوائيّة، وبين مَن هُم في عِداد الطبقات «المحترمة». ضدّ كلّ شيء، تظلّ قلوب المحبّين تخفق وتتراسل من وراء الأسوار والجدران. تتحدّى الأعراف والقوانين الجائرة التي لا تراعي ما يُقرّه الدستور من مساواة وديمقراطيّة.

أقول في نفسي، وأنا مُضمَّخ بأجواء الحلم الميتروبوليسيّ: سأشيِّد هنا في دبدو تلك المدينة العملاق. سأجعلها ملجأ مباحًا للعاشقين والعاشقات الهُنود، ضحايا الميز والتقاليد البالية. هنا، في دبدو الجديدة، تستطيع قلوبهم أن تخفق وتتحاب، أن ترشح بالعواطف المُلتهبة وتستحمّ في شمس يوليو الغاربة. هنا ستتلاشى الثغرة التي تصِمُ صرحَ ديمقراطيّتهم التي سار بذكرها الركبان. في شوارع دبدو/العملاقة، سيجد أولئك العشَّاق الهنود ملجأ يحميهم من جرائم سَدَنَةِ المعبد؛ بل ستَّتسع المدينة لجميع عشَّاق العالم المُضطَهدين! ومن يدري؟ فقد تنبتُ مدينة سينمائيّة تضاهي استوديوهات «بوليود» الضخمة، وتجد في اللَّاجئين إلى دبدو/الميتروبوليس مصدرَ إلهامٍ لأفلام الحبّ المُتحدّي لحواجز الطبقات!

تتناسلُ صور دبدو المحلوم بها في مُخيِّلتي، فأستسلم للاستيهامات المُتعاقبة، المستجيبة، ولا شكّ، لحاجةٍ غامضة في نفسي.

صوتُ راعٍ يهشُّ على أغنامه في المُنحنى، يُعيدني إلى دبدو/الراهنة، المُلتصقة بطفولتي، المُتشبِّثة بصورتها الطارفة، المتوارثة. أقول في نفسي: لعلَّها أفضل في هذه الحُلَّة الطبيعيّة! لماذا يحاصرني هذا الهوس بما حقَّقه الغربُ من «معجزات» في العِلم والمعمار؟ كيف أتناسى الاكتظاظ والتزاحُم والتلوُّث، والتهافُت على اقتناء وامتلاكِ كلّ ما تلفظه ماكيناتُ الاختراع التكنولوجيّ؟ لا شكَّ أنَّني أصِبتُ بعدوى الغرب المُفتخِر دومًا بقدرته على تحويل العِلم إلى مخترعات للاستعمال، تقلبُ صيَغَ العيش رأسًا على عقب.

أحسُّ في هذه اللَّحظة، كأنَّما من ورائي «بززخًا إلى يوم البعث». أحسُّني موزَّعًا بين ألق الغرب ومهارته التكنولوجيّة، وبين ما ترمز إليه دبدو من بساطةٍ وعتاقةٍ وبِلىً وبُعدٍ عن ديناميّة المعرفة والخيال.

أين تكون ذاتي مرتاحة في جِلدها؟

لا أستطيع أن أجيب بتلقائيّة، إلَّا أنَّ مسافة كبيرة تفصلني عن دبدو الغافية داخل ردائها «الأصيل» وإغراءاتها الطوبويّة، التي أحسُّ أنَّها تلاشت من ذاكرتي أو تكاد.

كلّ مساء، وأنا في بيت عمّي، الذي كان هو بيتنا وورِثَهُ عمّي بعد وفاة أبي، تُحاصرني مشاعر وهواجس وأسئلة تُطيِّرُ النوم من عينيّ. أتذكَّر

ما قاله كاتب عن الأرق: «الأرق مثل النوم، يحملك إلى مناطقك المنسيّة، ويجعلك تنبش لفائفها ولُغاتها، رجاءَ أن يُجلي عن الذاكرة حمولتها المُعوِّقة». في هدأةِ دبدو الليليّة، وفي أحضان الأرق النابش للأعماق، أحسُّ كأنّني عدتُ بعد ستة عقود من عمري إلى نقطة الصفر، نقطة البدء! هل هناك بدء؟

أين يكمن الفرق بين ما كنتُ عليه أيّام الطفولة وما صرتُ إليه الآن، وأنا أخطو على مدارج التقاعد والراحة الأبديّة؟ لو أنّني لم أهاجر إلى فرنسا، هل كنتُ سأتحوَّل، مثل عمّي وأسرته، إلى امتدادٍ لهذا الديكور «الطبيعيّ» الصامت؟ هل الأمر يتعلّق، في نهاية التّحليل، بضربة نردٍ تجعل المُتفاعلين مع لحظة الاندفاع والتّوق يُكسرون شرنقة الجمود والتشبُّث بما هو قائم؟

أفقدُ البوصلة وسط المقارنات والتذكّرات. أحارُ بين ما رواه التاريخ عن أمجاد دبدو، وما هي عليه الآن. يقول التاريخ: أعلمُ أنَّ دبدو غدت مجهولة لديكم، على رغم أنّها عرفت سنواتٍ وعقودًا تنضح بالرخاء والازدهار. أيّام ظلّلها الوئامُ بين مسلمين ويهود، بين أمازيغيّين وعرب. دبدو تلك المنزوية بين جبال وسهول، كان لها اعتبار عند الملوك المرينيّين الذين شيّدوا بها قصبة باذخة ما تزال بقاياها قائمة إلى اليوم، وأولوْها الاهتمام، لأنّها بوّابة المغرب الشرقيّ التي كان يأتي منها خطرُ الغزو العثمانيّ، وهجمات جيش الجيران... وحتى في فترات الانكماش، كان أهل دبدو يُسوِّقون منتوجات بلدتهم إلى فاس ومليلية وتلمسان ووهران: يُسوِّقون الصُّوفَ والزرابي والزيت والحبوب. وعندما طُرِدَ اليهود من غرناطة وإشبيلية في القرن الخامس عشر، وجدوا في إمارةِ دبدو، المستقلّة عن سلطة الوطّاسيّين، ملجأً ضَمِنَ لهم الاستقرار والمشاركة في توفير الرخاء وتحمُّل مسؤوليّاتٍ في تدبير شؤون الإمارة. أكثر من ذلك، أصبحت دبدو تحمل اسم إشبيلية منذ ١٤٧٠، بعد أن استقرَّت الجالية اليهوديّة في ربوعها.

قال التاريخ، يقول التاريخ...

تعوَّذنا على تلك المساحيق يُزيّنُ بها التاريخُ وجهَ الواقع الكالح، ليبدو الماضي مزدهرًا، مزدهيًا بما حقّقه لأوّل مرّة، منذ قرون، في ظروفٍ مواتية أسعفتهُ على التفلُّتِ من الجمود.

لكنّني أسأل: لماذا يمتنع البشر، في عِناد، عن النّظر إلى ما سبقهم وإلى ما هو معاصرٌ لهم، وإلى كلّ ما يُثير التفكير والتأمُّل؟

هذا سؤالٌ أبديّ فيما يُخيَّل إليّ؛ لأنّه لو تحقَّق العكس، لتعلَّمت الخليقةُ الحكمةَ وبُعدَ النظر، ولم تعد لتكرار الأخطاء نفسها، والانجِرار إلى السهوِ ومعصيّة الخالق... سنفترض أنّ أهل دبدو الذين عرفَ أجدادُهم أزمنة من مجدٍ وعنفوان، أصيبوا بالعمَى أو فُقدان الذاكرة، لكن أين هي حصافةُ الوطن الكبير الذي ينتمون إليه؟ وأين هم مؤرِّخو المملكة وسدَنةُ الذاكرة الجماعيّة والمُتعيِّشونَ من النفخ في الصُّور؟ هل غاب عن فطنتهم ما تنطوي عليه دبدو من كنوز ثمينة، تتمثَّل في صفحات مُشرقاتٍ جديرة بإيقاظ الهِمَّة والتلويح بمستقبلٍ زاهرٍ ينبعث من أطلال بني مرين وعين إشبيلية؟ أليس هذا خطأ ارتكبه مُحترفو النفخ في الرَّماد؟

قال التاريخ: إنّ فاطمة بنت الخليفة عبد الحقّ المريني هي التي موَّلت، في القرن السّابع الهجري، بناءَ القصبة من مالِ صَداقِها. ألا يستوقف هذا الخبرُ الباحثين عن النماذج البشريّة التي تُجاوِزُ عصرها؟ ألا يُذكِّرهُم ذلك بما فعلته فاطمة الفهرية التي موَّلت، قبل ذلك بقرون، بناء جامع القرويِّين في فاس؟ أين أنصار المرأة المُهمَّشة في عِزِّ القرن الواحد والعشرين؟

لا فائدة من الاسترسال في مثل هذا المنطق. دبدو، الآن، هي ما صارت إليه: مدينة مُنكمشة، تقلَّصت إلى قرية واسعة. وما تحويه من مقابر وآثار تشهد على فترات ازدهار، تقلَّصت بدورها وشمَلها الإهمال، فلم يعد للمدينة رواج في عهد التحديث والمنافسة العمرانيّة. ودبدو ليست بدعة في هذا الانحدار، لأنّ تاريخ العالم يكتظّ بأمثلةٍ عن مدنٍ سبق أن حلَّقت في سماء التألُّق زمنًا، ثمّ انحدرت إلى قيعان البؤس والنسيان. لا يَهمُّ «المجد» المندثر؛ الأهمُّ هو «الإنسان الدبدوبي» الذي خانه التاريخ، وجعله عاجزًا عن مسايرة منطق العصر! (تصفيق حادّ لهذه العبارة المتأسّية التي تُنصف دبدو وأهلها).

الأيّامُ متشابهة خلال زيارتي لدبدو. أتجوَّلُ عبر الآثار نفسها والمقابر نفسها، أقصد مقهى عين تافرنت قبل مغيب الشمس، أتحدَّث إلى عمّي وأفراد عائلته في الخاوي والعامر.. وكلّ يوم، يتقوَّى لديّ انطباع بأنّ دبدو تتوغَّلُ أكثر فأكثر في منطقة النسيان، على رغم اهتمام بعض اليهود

المغاربة بنفض الغبار عن الجانب المجهول من تاريخ أجدادهم وتاريخ المدينة التي استوطنوها عدّة قرون. وقد شاءت الصدفة، خلال زيارتي، أن يتمّ تدشين مشروع بناء مُركّبٍ ثقافيٍ لتحسيس الشباب بأهمّيّة تاريخ بلدتهم، وحثّهم على اليقظة والإبداع... قلتُ لصادق ابن عمّي: عليهم أن يهتموا أوّلًا بفتح مطعمٍ وفندق لإيواء الزائرين والسوّاح. يُستحسنُ قبل التباكي على عزلة دبدو، البدء بالأولويّات التي يحتاجها من يرغبون في زيارتها. سكتُّ قليلًا، ثمّ أضفتُ، وكأنّني مهندس خبير، لا مدرّس فلسفة سابق: المشروع ذو الأسبقيّة في نظري، هو المبادرة إلى حفرِ نفقٍ طويل يخترق هضاب دبدو الشماليّة ليفتح طريقًا يصلها مباشرة بمدينة الناضور أو وجدة؛ وبذلك تصبح دبدو ممرًّا نحو الشمال بدلًا من أن تظلّ دربًا وطريقًا غيرَ نافذ.

ابتسم صادق، قبل أن يتمتم مُقترحًا: لماذا لا تبدأ يا ابن عمّي أنت، بفتح فندق أتولّى أنا تدبيره، وتأتي أنت من حين لآخر للاطمئنان على المشروع؟

أحسستُ بالحَرَج، لكنّني أجبته بأنّني لستُ رجل أعمال ولا أتوفّرُ على مال يسمح بتنفيذ مثل هذا المشروع الحيويّ...

أوشكت زيارتي على النّهاية، فقرّرتُ السّفر إلى الدار البيضاء، لأطّلعَ على التغيُرات التي وقعت في قلب «المغرب النافع»، وأزور في الآن نفسه صديقًا عاشرتُه خلال فترة الدراسة الجامعيّة. هو، بعد دراسةٍ متخصّصة في الاقتصاد، عاد ليُغامر في مجال الأعمال والصفقات.

وجدتُ صديقي «رابح» كما عهِدتُه: نشيطًا، أنيقًا، مُتابعًا لما يجري في عالم المال والسياسة. على متنِ سيارته المرسيدس النبيذيّة اللّون، طُفنا شوارع البيضاء الفسيحة، المزدحمة، فاكتشفتُ الترامواي الجديد، والعمارات الشامخة المُتراصّة، والمقاهي والمطاعم الفخمة، والحركة الدائمة المقرونة بضوضاء تتعالى كأصوات سيمفونيّة مُغرقة في الحداثة...

«بيضاؤنا مثل باريسك أو تكاد، يقول رابح ونحن ندلف إلى مطعم «الصخرة» في شاطئ عين الدياب؛ ثمّ استدرك بأنّ البيضاء تمتاز بحضور البحر الأطلسيّ إلى جانب منات المآذن الصادحة كلّ فجر، لتوفّر على من يرغبون في الاستيقاظ باكرًا مشقّة اللّجوء إلى المُنبّه! يضحك في صفاء،

وهو يضيف: توحَّشتك، وتوحَّشت أيَّامنا في باريس، وأنتَ تصولُ وتجول في اجتماعات الطلَّاب، وفي سهراتنا الراقصة وجلساتنا الحميمة. لا أصدِّق أنَّك التحقتَ بالمتقاعدين. أنا بحاجةٍ إليك في حوْمةِ الأعمال والصفقات. تعال إلى المغرب، لتكتشف عيِّناتٍ أخرى من الذئاب الشرهين. قاطعتُه ممازحًا: أعرفك أيُّها الذئب الشرس. ردَّ منفعلًا: لا، أنا ضحية الحيتان الكبيرة تبتلعُني في نصف لُقمة، ولا أستطيع أن أتقيَ شرَّها. حِيتان مسنودة من خلفٍ وأمام، من الأصهار أو الأشراف أو من الذين يُحرِّكون عالمَ المال من وراء ستار...

يتدفَّقُ رابح بالشكوى مُغرقًا في التعميم. وسرعان ما يعود ليبتسم مؤكِّدًا أنَّه لن ينهزم، وأنَّ استقامته هي التي ستربح في النهاية.

لم نكن في باريس أيَّام الجامعة على وفاقٍ تامّ في تحليل الأوضاع، لكنَّه كان دائمًا يُصرُّ على ضرورة اتِّخاذ سلوكٍ مغايِر، عندما يتعلَّق الأمر بالتنافس في مجال الصَّفقات والمشاركة في خدمة الاقتصاد الوطني. وبعد عودته إلى المغرب، نجح في أن يشقَّ طريقه في أسواق التجارة، واستطاع، مع زوجته المشرفة على متجر كبير لصنع القفاطين الفاخرة وتصديرها، أن يكوِّن بؤرة اجتماعيَّة تضمّ أصدقاءه، وتمارس حياة مختلفة لا تستسلم للتقاليد الراكدة ولرتابة العيش. كلّ أسبوع، يسهر هو والصديقات والأصدقاء في بيته، أو عند من يتوافر على فضاء لاستقبال أكثر من ثلاثين شخصًا، بين متزوِّجين ومُتعاشرين (بسرعة دخلت كلمة عشير/ عشيرة compagne، إلى قاموس هذه الفئة العصريَّة). شراب وموسيقى وأطباق شهيَّة ورقص وآراء مُتبادلة حول ما يجري داخل المملكة وخارجها...

أحسستُ خلال السهرة، التي أقامها رابح على شرفي، أنَّ أصدقاءه من الرِّجال والنساء متشبِّثون بالحياة هنا والآن على طريقتهم، إذ يعيشون وَفق ما يتصوَّرونه الأقربَ إلى راحة النَّفس وانطلاقها. هم لا يطيقون المواضعات المُرائية، ويحرصون على ممارسة حريَّتهم في النطاق الذي تتيحه لهم وضعيَّتُهم الاجتماعيَّة، النُّخبويَّة إلى حدٍّ ما. لم أسمع منهم ما يدلُّ على أنَّهم ينتمون إلى حزب، أو أنَّهم يوافقون على سياسة المخزن. لكنَّهم يُفصحون عن توقهم إلى حياةٍ متحرِّرة من رقابة المؤسَّسات ومن خطابات التبشير وَ «تَغمَاز الشوارخ». يَبدونَ في توادُهم وعلاقاتهم

المفتوحة أشبهَ ببُقعة زيتٍ وسط محيطٍ من الرتابة والأدوار المكرورة والتسابق نحو احتلال المواقع.

فوجئتُ بهذا المناخ الذي لم أكن أتوقَّعه، خاصَّة بعد الأسبوعين اللذين أمضيتُهما في دبدو الغارقة في السكون والتقشُّف. وأثناء السهرة، قدَّمَ لي رابح سيِّدة عزباء «ف. م»، أستاذة بكليَّة التربية، لم يكن يُرافقها عشير. قال مُلمِّحًا: هذه مُربيَّتنا التي توضح لنا طريق السلوك المنفتح، والتَّعبير عن العواطف بتلقائيَّة وانشراح. اكتفتْ هيَ بابتسامةٍ أضاءت سُمرتها العسليَّة، وقالت، وهي تنظر مباشرة إلى عينيَّ، بأنَّ رابح حدَّثها عنِّي، وأنَّها تغبطني على هجرتي الأبديَّة إلى بلاد الإفرنج. بعد لحظة، استدركتْ: لكنْ لم تعد هناك حدود الآن، خاصَّة بالنسبة لِمَنْ هم من صنفنا، أعني المثقَّفين ورجال الأعمال المستنيرين (وأشارت إلى رابح). يكفي، يا أستاذ منير، أن توجِّه لي الدَّعوة صباحًا فأكون إلى جانبك مساء في باريس.

لم نضيِّع وقتًا طويلًا في المقدِّمات، لأنَّ «ف. م» تعرف كيف تختصر المسافات لتصل إلى منطقة الاستكناهِ والبوح. بعد أن أخبرتني أنَّها تعيش وحدها، وأنَّها لم تتزوَّج على رغم كثرة مَنْ طلبوا يدها، أضافت بأنَّها تظنّ أنَّ طبيعتها لا تتلاءم مع طقوس الزوجيَّة وأعباء الأسرة والأطفال. ربَّما لأنَّها عاشت سنوات في فرنسا، وتشبَّعت بلوثةِ الحرِّياتيَّة؛ أو لأنَّ ما تحكيه لها زوجاتُ الأصدقاء يجعلها تفضِّلُ البقاء خارج القفص الذهبيّ. «والحمد للَّه، قالت، انفتاحُ النُّخبة في الدار البيضاء يسمح الآن بأن نبتدع شكلًا حياتيًّا معقولًا مُتحرِّرًا من التقاليد اللاجِمَة. يا أستاذ منير، أنا عزباء ومقبولة وسط المتزوِّجين، وقد تلتهب الأسلاك بيني وبين أحدهم، فننساقُ لمغامرةٍ عابرة تطفئ عطشنا الفجائيّ، ثمَّ تعود العلاقات إلى ما كانت عليه. اختصارًا، أنا لا أتقيَّدُ بشروط الاندماج السَّائدة عند معظم الفئات الاجتماعيَّة عندنا. وأظنُّ أنَّ ما عشتُه من تجارب وتنوُّع ثقافتي يجعلانني أرفض منطق الفَوَاتِ والتأجيل. ربَّما لأنَّ لديَّ وهمَ اقترانِ الحياة بالفرح، والفرح لا يقبل التأجيل والفوات، ولا ينصاعُ للندم والتحسُّر...»

هي تتكلَّم، وأنا أقول في نفسي، هذا خطابي ورؤيتي منذ أربعين سنة؛ لكنَّني الآن مهموم بشيء آخر لا أقوى على تحديده. مع ذلك، كلامُ «ف. م»، حزَّك في أعماقي الأشجان والرغبة. هيَ تملأ كأسها وتسقيني،

ولساني تنحلُّ عُقدته تدريجيًا، فأستعيد معها ملامح المجتمع الطوبويّ الذي طالما حلُمنا به، وخيوط الألفةِ تنتسج بأسرع ممّا كنتُ أتوقّع: وضحكات الساهرين والأغاني والتعليقات المرحة، تضفي على السهرة ألوانًا من البهجة الداخليّة التي توقظ في النّفس حنينًا جارفًا إلى الالتحام: كأنّما المناخ البهيج المَرافِق لإنضاج الشهوة، هو أهمّ مِن لحظة تفجيرها!

وعندما همست لي «ف. م» بأنّها تدعوني لقضاء ما تبقّى من اللّيل في شُقّتها، لم أستطع أن أعتذر. لم تكن لديّ رغبة في مغامرة عابرة، لأنّني كنتُ منصرفًا إلى معالجة مُعضلات تقضّ مضجعي، بعد أن أصبحت مقبلًا على مرحلة تختلف تمامًا عمّا عشته من قبل؛ كما كنت أيضًا منشغلًا بالموعد الذي ضربتُه لابني «بدر» في باريس، لنتحدّث عن مشاكل تعترضه في عمله وعلاقاته العاطفيّة، ضمن سياقٍ بالغ التوتُّر يَرُجّ فرنسا التي تبدو فاقدة البوصلة في عهد الرئاسة الفرنسيّة الاشتراكيّة الثانية. لكنّني وجدتُني مأخوذًا في شرَكِ المسَرّة الطافحة التي غمرتني بها «ف. م»، فجعلت إرادتي تذوب في ظلال عينيها الناعستين، المُثقلتين بالنشوة، وهي مسرّة أيضًا افتقدتُها منذ افترقتُ عن زوجتي كاترين. أو لعلّها الفرحة بأن أجد في بلادي ما كنتُ أظنُّ أنّه مُقتصر على نساء بلدان أوروبا: ها هيَ امرأة مغربيّة في الدار البيضاء، تجسُر على أن تختار رجلًا استلطفته وسرت الرّعشة بين أسلاك كهربائهما. هي تفعل ذلك بحرّيّة، وأنا أيضًا أقبلُ تمديد اللّيل معها والاستماع أكثر إلى حديثها وشجونها، والرُّشف من شفتيها الواعدتين.

في شقّتها الأنيقة، المفروشة بذوق، في شارع غاندي، لم ننم إلّا قليلًا لأنّنا لم نكفّ عن المُسارّة واستكشاف مكامن اللّذة في الجسدين، وإيقاظ النشوة الغافية في الأعماق. أجواء مضمّخة تحفّ طقوس الجِماع الإيروسيّة، وتُضفي عليها نكهة جامحة، مُحلّقة في سماوات المُتعةِ المُصفّاة.

قالت لي ونحن ممدّدان على الفراش خلال استراحةٍ بين جولتين: «عندما رأيتك، أدركتُ أنّك تبحث عن شيء آخر، مُغاير للّذةِ العابرة. كأنّما شهوتك مغموسة في سوداويّة اللّحظات الهاربة. هذا ما جعلني أدعوك، لأنّني خدستُ متعة مختلفة لديك...»

هل هناك أجملُ من امرأةٍ جميلة، عارية، تلفظ كلامًا ناصعًا، مُتلألئًا

يجعل جسدها يشعُّ كالنيزك النازل من سماوات الجنّة الموعودة؟

لم تكن لحظة التوديع حزينة ولا دراميّة، لأنّ «ف.م» كانت مدركة لما يشغلني، فاكتفت بأن كتبت على ورقة رقم هاتفها وعنوانها الإلكتروني، قائلة باللُّغة الفرنسيّة: «نبقى على اتُصال»؛ ورددتُ بالجملة نفسها وأنا أبتسم، لأنّ هذه العبارة كثيرًا ما تُحيلُ على صيغةٍ مؤدّبة للتناسي أو التخلُّص من الالتزام بالاتّصال.

وسط الشارع، وأنا عائد إلى منزل صديقي رابح، حاصرتني إحدى مقولات الفيلسوف سبينوزا في كتابه «إتيك» (Ethique)، عن الفرح الذي يعتبره عنصرًا أساسًا في تقويم العواطف والأخلاق وطبيعة انفعالات التعلُّق. وهي مقولة طالما حاولتُ أثناء فترة تدريسي في ثانويّة «هنري دو بلزاك» بإحدى ضواحي باريس، أن أقرّبها إلى أذهان تلامذتي المُراهقين. يقول سبينوزا: **«الشعور بالتفتُّح [التكامل] هو فرحُ تُرافقه فكرة عن شيء ماضٍ حدَثَ على غير انتظار»**. انشددتُ إلى فكرة «على غير انتظار»، أي اللّاافتوقع، ذاك الذي يفاجئنا بحدوثه ويُنبّهنا إلى إمكانات أخرى، إلى فضاء لم يكن بخطر على البال، ونحن سُجناء الفضاء المألوف.

لقائي مع «ف.م» الذي لم أكن أتوقّعه، أضفى تلويناتِ فِرحَةٌ على زيارتي لمسقط الرأس. لم تبق الصُّورة الراجحة هي تلك التي ترسّخت في ذاكرتي من خلال شوارع وهضاب دبدو المقفرة وانحسار الحركة ومجال التواصل. لن أحتفظ فقط بمشهد شباب دبدو وهم متحلّقون في المقهى حول جهاز التلفاز الذي يبثُّ مباراة حامية، من قناة إسبانيّة، بين ريال مدريد وفريق برشلونة العتيد، والمعلّق الإسباني يصرخ بأعلى صوته، والمشاهدون الدبدوبيّون يتابعونه وكأنّ على رأسهم الطيرا!

صديقي رابح استقبلني، صباح اليوم التالي، عند مدخل منزله بابتسامة عريضة، تنطوي على تلميحات وإحالات صريحة. قال مُصطنعًا الجدّيّة: آملُ أن تكون الدار البيضاء قد أعجبتك وأقنعتك بالعودة إلينا. نحن بحاجةٍ إلى وجودك بيننا، لتسهم معنا في بلورة طريقة للعيش والاستمرار، على رغم المناخ السياسي الملتبس، الكابوسي أحيانًا. ونمط العيش والعلاقات التي نطمح إلى بلورتها لتصبح سلوكًا تلقائيًا، ما تزال زئبقيّة، كما لاحظتَ ولا شك.

كان جوابي ينحو إلى التنصُّلِ من تلبية الاقتراح بالعودة، لأنّني على

رغم تعاطفي مع الممارسة التي يجترحُها رابح وأصدقاؤه، لم أجد لديَّ ذلك الحماس الذي كان يُلهبُ كياني منذ أربعين سنة، حين كنت مندفعًا في الصراع، إلى جانب قوى التغيير الفرنسيَّة، لتحصين قيم العدالة والحرِّيَّة والأخوَّة... تراكماتُ رحلةِ العمر تثقلُ النَّفس، فأحسُني مربوطًا بأرسانٍ وثيقة إلى مخلّفات التجربة الطويلة التي عشتُها في فرنسا، وأصبحت تقتضي المواجهة وإعادة التقييم... مخلّفات تجذبُني إلى منطقة الأسئلة التي أغفلتُها أو عالجتُها بخفَّةٍ ونزق.

في الطائرة، وأنا عائد إلى باريس بعد زيارة دبدو والدار البيضاء، وجدتُني غائصًا في استعادة تفاصيل ما شاهدتُ وسمعتُ. لم أخرج كما دخلتُ. جزء منِّي كنتُ أهملتُه، أخذ ينتعش ويُعرب عن نفسه من خلال أسئلة وهواجس متلاحقة، كأنَّ الأرض التي قطعتُ عليها أميالًا وأميالًا، ظانًّا أنَّها أرض صلبة، بدأت تتشقَّقُ مفسحة في المجال أمام هشاشة كامنة.

بين يقظةٍ ونوم، عاودتني لقطاتٌ من فيلم «ميتروبوليس» للمخرج فريتز لانغ (١٩٢٧). ما الذي دفعني إلى إسقاطها على فضاء دبدو الذي هو أبعد ما يكون عن المدينة العملاق، التي شيَّدها عمَّالٌ خاضعون لمشيئة وأوامر رجلٍ غنيّ استسلم لإرادة عالِمٍ يجرِّبُ اختراعاته الشيطانيَّة على حسابه مستفيدًا من انصياع العمَّال المحتاجين إلى لقمة العيش؟ ناطحاتُ سحاب، بوَّابات ضخمة تُقفلُ وتفتح بالضغط على أزرار، وامرأةٌ تنزلُ من السَّماء لتُسعفَ العمَّال المَمحونين، يُؤازرها ابنُ الرَّجل الغنيّ المصاب بجنون العظمة... داخل ذلك الفضاء الذي تعمُره الآلات والعماراتُ الشاهقة، يتحرَّك البُناة ليضعوا حدًّا ل «الغول» (الليفياتان؟) الذي يتهدَّد حياتهم. لكنَّ سحر المدينة العملاق التي تُدار كلّ مرافقها بالأزرار هو ما أثار اهتمامي. لقد صرفَني عن النَّظر إلى احتجاجات الناس والعمَّال على الفخِّ الذي نصبَهُ لهم العالِمُ العبقري من خلال استغلال أموال الرَّجل الثريّ في تنفيذ فكرته الشيطانيَّة عن المدينة العملاق. لا يشتمل الفيلم على حوار منطوق، وإنَّما هناك بعض جُمَلٍ مكتوبة تحت الصُّور لتلخِّص المواقف؛ والحركة المتوالية هي السائدة طوال المعركة اللَّامتكافئة... وحين ينجح الابنُ ومارية المُخلِّصة السَّماويَّة، والعمَّالُ في إيقافِ زحف سكَّان المدينة العملاق، يكتب مخرج الفيلم الحكمة التي يتوخاها من شريطه: **«بين المُخِّ واليد، لا بدَّ من واسطةٍ تتمثَّلُ في لُغة القلب»**.

ما أظنّ أنّني كنتُ سأتردّد في إعطاء الأسبقية لتعمير دبدو، قبل أن أفكّر في توفير أنسَنتها: العمران هو الذي قد يخلق حركةً ويُنشّط تفكيرَ الناس. أما الأنسنة في ظلّ الخواء والكساد والمقابر المتلاشية، فلا أظنّ أنّها ستحمل حياةً.

عليّ أن أعترف أنّ طيف «ف.م» ظلّ يمنحني رُفقةً في منتهى العذوبة، وأنا أستعيد إيقاعَ حياتي في باريس بعد العودة من المغرب. بل كنتُ أبادر من حين لآخر، بكتابة رسائل إلكترونيّة إليها، كأنّما لأشعرها بأنّها حاضرة في البال، على رغم اختلاف طريقينا. وهي تسايرني في اللُّعبة، من خلال كتابتها لرسائل تحجبُ أكثر ممّا تُفصح.

كتبتُ لها مرّة ردًّا على إحدى رسائلها:

«العزيزة ف.م: تسأليننني عن حياة التعطّل التي أعيشها منذ شهور بعد إحالتي على التقاعد؟

أظنُّ أنّ هناك أشياء لا تُبارحنا، خاصّة عندما نتقدّم في العمر، ومنها الشعورُ بالكآبة المقترنة بالعبث. ربّما لأنّ مفاجآت الوجود تفقد تدريجيًّا بكارتها! أو لعلّ التكرار يوحي لنا بأنّ ما نعيشه اليوم، قد عِشناهُ من قبل!

مع ذلك، أجدُني أفتح عينيّ كلّ صباح ومعي وهمٌ بأنّ الحياة ما تزال تنطوي على مفاجآت، وأنّ هناك أشياء بكرًا لم نكتشفها بعد... من ثمّ يتجدّد إقبالي على متابعة الرحلة، نافضًا عنّي كسلَ التقاعُد وإغراءات الشيخوخة».

وردّت عليّ «ف.م.» بالرّسالة التالية:

«الصديق منير

أنت تتحدّث عن الكآبة والعبث اللذين هما عنصران ملازمان بحسب قراءاتي لعمليّة الإبداع والتفلسُف. لذلك أتساءل: لماذا لا تحاول أن ترتادَ مجال الكتابة لتحتمِيَ من الملالةِ وشكوك الوجود؟

أنا حاولتُ أن أكتب ولم أوفّق؛ ربّما لأنّ ارتباطي بالتربية يمنعني من التحليق بعيدًا من رؤيتي المُثقلة بالبيداغوجيّة... لكنْ، بالنسبة لك، يبدو أنّ قراءاتك الواسعة في الأدب والفلسفة ستسنِدُك في مغامرة

الإبداع. وهذا ما يجعلني أخمّنُ أنّك تحمل في أحشائك بذورَ نصوصٍ شعريّة أو قصصيّة أو روائيّة. إنّما أرجوك، إذا دخلت مغامرة الكتابة، أن تستوحيَ أشياءك الصغيرة، الحميمة، ففيها تكمن الجاذبيّة والإثارة. ولا أخفيك أنّني وجدتُ خلال لقائنا اللّامُتوقّع في البيضاء، أنّك تُكثر من الحديث عن موضوعات، على أهمّيّتها، تظلُّ مسرفة في التعميم؛ مثل اهتمامك بتحليل تحوُّلات المجتمع الفرنسي منذ ثورة الطلاب في مايو ١٩٦٨، وانعكاساتها على سلوك الناس...

لو سألتني عمّا يشغلني الآن، لقلتُ لك بتلقائيّة صادقة إنّني أفكّر جِدّيًا في «آخر فرصي». قد لا تثير هذه المسألة أدنى اهتمام لديك، لكنّ فكرة «اخر فرصة» تتاحُ لي، هي على جانب كبير من الإثارة في نظري: كيف أعرف أنّها آخر فرصة؟ وهل هي فعلًا آخر فرصة؟ وبالنسبة لأيّ شيء؟

ألستُ أنا اليوم امرأة في كامل انتعاشها وتألّقها؟ ألا أتوفّرُ على ما أريد علمًا وعاطفة وممارسة للجنس؟ (إيوا آش بغيتْ كْثر من هادا؟). أم الأمر يتعلّق بفرصة الاندماج في المؤسّسة الاجتماعيّة المعترف بها؟ أم هي فرصة الدخول في مغامرة مجهولة العواقب؟ أو لعلّها فرصة تجريب الأمومة؟

بصراحة، أنا فقط أحاول أن أجد موضوعًا له علاقة بالعبث الذي أشرتَ إليه في رسالتك؛ أو بالأحرى، أبحث عن موضوع يربط الحوار بيني وبينك، ويُذكي ضُبابة التواطؤ الذي جمعَنا في تلك اللّيلة الجميلة...».

من يوميات منير

بعد زيارة دبدو مسقط الرأس، والدار البيضاء صندوق المفاجآت التي أتاحت لي لقاءً غير متوقّع مع «ف.م»، وجدتُني في نهاية اللّيل وقد جفاني النوم، أخلو إلى نفسي لأدوّنَ كلماتٍ تستوحي حالات التأمّل والتفلسف التي بدأت تلفُّني أكثر فأكثر، منذ عودتي من رحلةِ المغرب.

هل كنتُ مُنساقًا، لا شعوريًا، إلى تنفيذ ما اقترحتهُ عليّ «ف.م» لأرتادَ عالمَ الكتابة؟ أستبعد ذلك؛ لأنّني أدرك جيّدًا أنّني لا أمتلِك مجاذيفَ متينة تسعفُني على الإبحار في متاهات التخييل. لعلّني انسقتُ أكثر إلى

رغبةٍ فيزيولوجيّة في التقاط تلك الحالات التي تحاصرني بانتظام، منذ بدأتُ مرحلة التقاعد، ومنذ أخذ الحوارُ بيني وبين ابني بدر، طابعَ المواجهة والتحدّي أحيانًا.

لفتَ نظري، أنَّ ما سجلتُه في هذه اليوميّات، يتّخذ شكلًا لا يخلو من التجريد. كتبتُها أوّل الأمر بالفرنسيّة، ثمّ ترجمتُها لأختبر قدرتي على استعادة اللُّغة التي تعلّمتُها طفلًا، وعُدت إليها مشتاقًا في كهولتي، لأستحضر، ربّما، جزءًا من هُويّتي المركّبة والمُغيّبة؟

بأيّ ميزان؟

أعاينُ أنَّ أشياء كثيرة تبدو متغيّرة. وفي الآن نفسه، لا شيء يتغيّر عندما تطفو ذاكرةُ الطفولة واللّحظات المنقوشة في الشّويداء.

مع مرور الوقت، وكلّما تقدّمتُ في العمر، أحسُّ أنّني أستطيع أن أنتمي إلى كلّ البلدان وأن أتآلفَ مع كلّ اللُّغات؛ هذا إذا وطّدتُ النّفس على العيش دون نوستالجيا تشدُّني إلى زمنٍ فائت. الإحساس نفسه ينتابني عندما أتبنّى انتمائي إلى النّوع البشريّ المنتمي إلى الدُّنيا والحياة، على رغم عموميّة ما تشير إليه هاتان الكلمتان.

إلّا أنَّ تصاعُد المواقف اللّاإنسانيّة، المضادّة لحلم التساكن والتسامح، يزرع لديّ الشكَّ في إمكان التآلف بالمطلق مع الآخرين: هل يتعلّق الأمر، إذًا، بانقسام جوهريّ بين «إنسانيّين» وَ«مُتوحشين»؟ بأيّ ميزانٍ نزنُ هذا التوزُّع والانقسام، ما دام الأمر يتعلّق بأناسٍ خُلقوا جميعهم من ذكرٍ وأنثى ليتعارفوا ويتعايشوا؟

الفرحُ قليل

مَنْ يُناديني من وراء الجدار؟

كأنَّ أزمنة مديدة مرّت منذ اقترن هذا النّداء عندي بالفرح. أصيخ السمعَ من جديد. تلفُّني نشوةُ اللّيلة المُضيئة. أراني معانقًا مَن أحبّ. والقُبَل تُلهب الشرايين. كأنّنا نحتضنُ الحاضر والآتي ونسبحُ مع الحالمين.

من يُناديني؟ أصيح.

فرَحُكَ القليل.

أجابَني صوتٌ تُبلّلهُ النَّشوة...

الأحلامُ تنسحب

أسيرُ بأقصى سرعة. أسير إلى أن أبلغ المتاهة.

فجأة، يتوقّف الحاضر. يغمرني الضوء/العتمة. هل لي أن أعيش المستقبل بقلبٍ مفتوح؟

لكنّني لا أبصر شيئًا وراء الدّغل، بل هو سديم يجثمُ عند الأفق.

فيما يغفو الماضي في ذاكرتي، يزيد زمنٌ مُبهم من حيرتي . فأرى الأحلامَ تنسحبُ إلى أبعد ما تكون عن رغبتي.

يا من وراء البرزخ

قبلَ وبعد أن يتنفّس الفجر، أجتزّ خواطري.

غضبُ ملاكٍ من دون أجنحةٍ يلُفُّني. كائن وثنيّ خابث آماله.

شهوة متجدّدة تعيدُ إنتاجَ نفسها. روحُ أسيرةُ جَسدٍ مُتهدّم، وصمت يغمر الكيان.

يا أنتَ الذي تُحيّي المُحتضرين، يا مَن وراء البرزخ:

متى يكونُ بَعثي؟

مثل قطعة سكر

أحسُّني مثل قطعة سكر تذوب في قعر الكأس. كلّما أردتُ الحديث عن الماضي، أجدُني أتحوّل إلى ما يشبه قصبة جوفاء تبحث في فضائها الفارغ، عن ألَقٍ كان. ذلك الألق الموصول بالتجارب ونحن نخوض غمارها لأوّل مرّة. لكنّ استعادة ما فاتَ تبدو باهتة، متلاشية تحت ركامِ التعثُّر والخيبة.

ثمّ، ما جدوى أن نتذكّر ونحن سائرون إلى زوال؟

لا أحد ينتفع من تجربة الآخرين. مضمون العيش المُنصرم مربوط بسياقه، لذلك يخيّل إليّ، وأنا أسترجع ذكرياتي بصوت مسموع، كأنّني أتكلّم في جوف بئر بعيدة الغور.

ما يُحيّرني أيضًا، أنّ أشياء كثيرة تبدو متغيّرة، مختلفة عمّا

كانت عليه. وفي الآن نفسه، يتبدّى لي أن لا شيء تغيّر عندما تطفو ذاكرةُ الطفولة وتنبعث اللّحظاتُ المنقوشة في الأعماق.

رسالة إلى ألبير

عدتُ منذ أسابيع من رحلتي «التاريخيّة» إلى دبدو، مسقط رأسي. كنتُ دائمًا أحدّثك عنها، عن ذلك الفضاء الذي عاش أمجادًا منذ القرن الخامس عشر، ثمّ غاصَ فجأة في هوّةِ النسيان والتلاشي التدريجي. ولم يكن مصير الانحدار هذا، قاصرًا على دبدو، لأنّ المغرب كلّه أخذ يسير نحو المصير نفسه، على رغم مقاومته للاحتلال العثماني، أوّلَ الأمر.

هل أقول إنّ مصائر الشعوب لا تتحدّد بحسب إرادتها فقط، بل هي دائرة في فلَكٍ أشمل، حيث تتصارعُ وتتحاربُ المصالحُ وطموحاتُ السُلطة والتسلُّط؟ أميل إلى ذلك وأنا أسترجع «الدّورة» الحضاريّة التي انطلقت من أوروبا، منذ القرن السادس عشر، صوب أفق مغاير يستفيد من حضارات سابقة، لكنّه يجترحُ طريقًا جديدًا، قِوامُه اكتشاف آلاتٍ فعّالة في تقليب التربة وضخّ الماء والكهرباء، وربط القارات المتباعدة بشرايين من بواخر وسيارات وطائرات... أقصدُ ذلك المنعطف الذي رافَق حركات الاستعمار عبر العالم، طوال القرن التاسع عشر. والمغرب كان مُهيّأ للدخول في فلَك المستعمرات أو المحميّات، لا فرق.

صحيح، أنّ تجربة محمد بن عبد الكريم الخطابي، من ١٩٢٤ إلى ١٩٢٦ في الريف، تمثّلُ نموذجًا في التمرّد على الاحتلال وفرض السيطرة، لكنّه كان محكومًا بشروط جغرافيّة وعالميّة، قادتهُ إلى الانتكاس، وأفشلت مشروعه المنطلق من القبيلة إلى تحرير مجموع الوطن... هو وحده تجرّأ على أن ينتقد سلطة «المخزن» التي قبِلت التوقيع على صك الحماية الفرنسيّة، التي دامت أكثر من أربعين سنة... مع ذلك، يُخيّل إليّ أنّ مستوى الوعي والعلم في المغرب، لم يكن يسمح بأن تذهب ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي بعيدًا؛ إلّا أنّ رمزيّتها تظلُّ مَعينًا لا ينضبُ لتزويدِ الرافضين والثائرين.

من هنا، أقفزُ إلى ما عشناه، أنا وأنت، خلال تجربتنا في انتفاضة مايو ٦٨. أستعيد كلّ الأحلام والتطلّعات التي ألهَبت صدورنا وأقنعتنا بضرورة الجهر بالرّفض و«قلب الطاولة» كما يقول التّعبير الفرنسي. كنّا

فعلًا نظنّ أنّنا نستطيع أن نقطف النجومَ بأصابعنا، وأنّ ما أقدمنا عليه كان يستجيب لانتظارٍ اخترق كلّ فئات المجتمع الفرنسيّ المهمَّشة والمُستَغلَّة، بل تعدّى ذلك الاختراقُ الحدودَ إلى أقطار نائية... وإذا كنتُ فهمتُ مقاصد الطلّاب آنذاك، فهُم لم يكونوا يستهدفون الاستيلاءَ على السُلطة، وإنما تقليب التربة الآسِنة وتحقيق الحرّيّة الفرديّة، والتخلُّص من الوصاية كيفما كان شكلها!

مع مرور الأيّام، يتبدّى لي ذلك المنطق الأقوى لما يُسمّى التاريخ. هو أكثر تعقيدًا وملموسيّة وابتذالًا أيضًا. معظم الذين كانوا قادة لثورة مايو ٦٨، انسحبوا إلى أطراف فرنسا، حيث يعيشون في عزلة يجترُّونَ الهزيمة التي حملت في أعقابها أشكالًا مُزرية من ممارسة السياسة وتدبيج الخطابات الواعدة، للضحك على ذقونِ المواطنين ! ولعلنا، أنا وأنت، من ذلك الفريق الذي يُكبّلهُ العجز، وينخره الفشل! لكنْ، لا أظنّ أنّنا نتنكّرُ لما آمنّا به، وشاركنا في إشعال نيرانه.

صحيح، كلّما امتدّت المسافة الزمنيّة، ندركُ أنّ للتاريخ منطقًا لا يخضع لرغباتنا. نحس أنّنا مجرّد ذرّاتٍ سابحة في سديم الزّمن المتحوّل، المُتناغم مع صيرورته الخاصّة. أرجو، يا ألبير، أن تتحمّل هذه الخواطر التي أفضي بها إليك، فلعلّ شعوري بالإحباط، وانتقالي إلى منطقة التقاعد، هو ما يدفعني إلى ارتياد متاهة التفلسف، والبحث عن تأويل يخفّفُ من الشُعور بالهزيمة...

بعد عودتي من زيارة مسقط الرأس، أحسّ كأنّما استيقظت بأعماقي خُشاشة من حماس وفضول، تحثّني على استيعاب ما عشتُه، وما هو محيط بي وأنا أتجاهله أو أؤجّلُ مواجهتَه.

ارتعاشة التيقُّظ والتحفُّز أحسُّها، فعلًا، كخُشاشة شمسٍ تقترب من الأفول؛ لكنّها تبعث في نفسي رغبة جامحة لاستعادةِ شريط حياتي وأنا في ضيافة «الآخر»، مغمورًا بالأماني، مُرحّبًا بالتحدّيات، مُصدّقًا وعودَ الأحلام فوق الأرض، أو: متهالكًا تحت الخيبات الكاشفة لقساوة العالم، مُتناسيًا أسئلة المعيش المتحدّرة من تجارب الحبّ والزواج والأبوّة...

لا مناص. أحسّني الآن، بعدُ، قادرًا على مواجهة المشاهد واللّحظات المنسيّة، مستعدًّا للاقتراب من قفير الأسئلة اللّاسعة.

في بلاد الأنوار

« ما أتعسنا.. إذ نكتشف في آخر المطاف أنَّ حياتنا كانت دومًا مُوازية لأحلامنا، وأنَّهما لم يتعانقا قطّ».

تيم باركس Tim Parks

لو سأل أحد، اليوم، منير الدبدوبي عن سبب هجرته إلى فرنسا وهو في سنّ العشرين، مطلعَ القرن الماضي، لما استطاع أن يستقرَّ على جواب. قد يقول هي الرَّغبة في إتمام تعليمه وتأمين مهنة تضمن له ولأسرته عيشًا كريمًا. قد يقول هي الصدفة التي جعلته يتفوَّق في الترتيب العامّ لشهادة البكالوريا، ويحظى بمنحةٍ دراسيَّة إلى فرنسا... إلّا أنَّ جميع إجاباته ستقفز على الحافز القويّ الذي شحذ همَّته آنذاك، ولم يكشف عن نفسه إلّا عندما وصلَ إلى باريس.

أكثرُ من حادثة وموقف يشير إلى أنَّ التعلُّق بالسَّفر يعود إلى تنامي ميلٍ جارف نحو المعرفة، نحو الابتعاد عن مسقط رأسه «دبدو» الذي يزداد في عينيه ضمورًا وانعزالًا عن حركة التوسُّع التمديني. منذ التحق بالمدرسة الإعداديَّة في مدينة وجدة، وهو مشدود إلى الفضاء المتَّسع، مفتون بالتَّعرُّف على عشرات التَّلاميذ المراهقين، مثله، المتمرِّدين على حياة الدّعةِ والسُّكون. حملَ إلى المدينة الكبيرة معالمَ آثار قديمة مبثوثة في جنباتِ دبدو، مثل قصبة المرينيِّين وعين تافرنت، والملّاح حيّ اليهود الذين هجروه ليلتحقوا بإسرائيل أو كندا... وحملَ معه نصائح والده «الكسّاب» الذي كان يحثُّهُ على الاجتهاد، لأنَّ ظروف العيش في دبدو تزداد صعوبة بسبب موجات الجفاف وإهمال السُّلطات الحضريَّة ترقيةَ البلدة واستثمار موقعها وآثارها. كان يلمس عند أبيه مرارةً كلَّما تحدَّث عن دبدو، واضمحلالِ ما كانت تتمتَّع به في تاريخها القديم من حظوة لدى الملوك المرينيِّين والسعديِّين، وفي عهد إنشاء إمارة دبدو المستقلَّة على يد موسى بن حمّو، طوالَ مائة سنة (من ١٤٣٠ إلى ١٥٥٠). وكان يتحسَّر أيضًا على أيّام الازدهار التي عرفتها مدينتهم، عندما هاجر إليها اليهود من إشبيلية حاملين معهم بعضًا من ثمار حضارة الأندلس...

أحسَّ، منذ طفولته، أنَّ أباه يستمدُّ عزيمته وحبَّه لدبدو ممَّا ورثه عن قبيلته التي كانت موصولة بفترة التألُّق التي عاشتها هذه المدينة ذات

الهواء المنعش، كأنّه يريد أن يستعيد ملامح من ذلك المجد الضائع، من خلال حرصه على تعليم ابنه منير ودفعه إلى التفوُّق.

بين نيّةِ الأب ورغبة الابن تنتصب احتمالات أخرى ولا شك. ومنها ما عبّر عنه منير بعد وصوله إلى فرنسا، من أنّ هوس السَّفر اقترن عنده برفضٍ حشويّ لمدينة دبدو التي تكلّست الحياة فيها، ما جعله يصبو بكلّ كيانه إلى فضاء باريس الموسوم في مخيّلته بالمعرفة الرفيعة والفنّ والتحرُّر من رقابة الأسرة والمجتمع: «هل كان الدافع إلى سفري، عدا الدراسة، هو شعوري بما يشبه الاختناق في دبدو ووجدة؟» يتساءل منير في يوميّاته قبل أن يُضيف: «لم أكن أدرك تمامًا ذلك الشعور المبهم الذي كان يوحي إليّ أنّ السَّفر إلى فرنسا هو ما سيفتح باب المستقبل أمامي. كنتُ في مطلع الشباب، وما درستُه بلغة فولتير فتحَ أبوابًا ومسالك في وعيي، وثبّت الحلم لديّ بالانتقال إلى فضاء الحرّيّة والتجربة المفتوحة على احتمالات مفاجئة حين العيش على أرض حضارة مُغايرة... أو لعلّها رغبة أخرى تتخفّى وراء تعلُّقي بالسَّفر إلى فرنسا!».

في أيّامه الأولى بباريس، لم يكن وقته يتّسع ليفكّر في حياته الجديدة أو في دبدو الهادئة السابحة في فلكٍ أبعد ما يكون عن صخَبِ باريس العملاقة.

بدا المناخُ الفرنسيّ في عينيْ منير، بتفاصيله ومظاهره اليوميّة، مُفرطَ المغايرة عن عالم طفولته ومراهقته. ما يستحوذ عليه الآن، هو أن يغطس في عاصمة الأنوار بكلّ جوارحه، ليستأنس بالعادات وطريقة تلفُّظ الكلمات، والتعبير بالإشارات؛ وأن يُمايز بين أنواع الطبخ والأجبان والأنبذة... ثمَّ ذلك الدَّفق من الكتب والمجلّات وعشرات الأفلام والمسرحيّات: بحرٌ بلا شواطئ يهدّده بالابتلاع، وهو حائر يفكّر كيف يجعل غطسَه في هذا البحر مثمرًا، مراكمًا لما ينير له طريق المعرفة والعيش والتلذُّذ بهذا المناخ الساحر. كأنّما مجيئه إلى باريس أيقظ في دخيلته نيرانًا لم تُطفأ جيّدًا، وسرعان ما استعادت جذوتها الغافية.

أجواء الجامعة جاذبة. حيويّة تغمر الطلّاب، وعلاقاتهم تلقائيّة، مفتوحة. يتنافسون على متابعة المحاضرات والتردُّد على المكتبة. المطاعم الجامعيّة تضجّ بالصخب والضحكات وتبادل التعليقات والنكت. والطالبات يُضفين على فضاء الجامعة إشراقًا مبهجًا. منير يجدهُنّ في

منتهى التلقائيّة واللُّطف تجاه زملائهن. يمكنه أن يتحدَّث مع أيّ طالبة ليستفسرها، أو يدعوها إلى تناول قهوة، أو يخوض معها حديثًا عن محاضرة الأمس أو عن أحد المراجع التي لم يقرأها بعد...

مطلع ستينيّات القرن الماضي في فرنسا مشحون وغامض القَسمات؛ تعتمل فيه صراعاتٌ، هي امتداد لفترة الاحتلال الألمانيّ وحكومة فيشي وعقابيل المحرقة النازيّة، ومنجزات المقاومة التي استجمع شبكاتها الجنرال ديغول، والنزوع إلى بناء ما هدَّمته الحرب الطاحنة، والتطلُّع إلى وضع أسس دولة حديثة، تتخايل معالمُها من خلال النموذج الأميركيّ الذي أوغل في التحديث والتقانة...

لم يكن لمنير ولعٌ بالسياسة وخباياها. كان في سنّ العاشرة عندما أحرز المغرب على الاستقلال، وكان يلمس طبيعة الصراع مع قوى الحماية والمُعمِّرين عبر الإجماع الوطنيّ الذي عبَّأ جميع الطبقات، وجعل مدينته دبدو تُسهم في المقاومة، التي حكى له أبوه عن بعض أبطالها... لكنَّ ما يُعاينه هنا بفرنسا، في مجال السياسة، يكتسي طابع الحدَّة والجِدال والتنافس العنيف بين مختلف التيّارات. والصحف لا تُوقِّرُ زعيمًا أو بطلًا؛ حتى ديغول نفسه يتلقَّى رشاش انتقاداتٍ موجعة.

«لم أستسغ، أوَّل الأمر، تلك الوقاحة التي تطبع ساحة الصراع السِّياسيّ في فرنسا. وجدتُ أن لا شيء يحظى بالتقديس، وأنَّ النقد كثيرًا ما يتحوَّل إلى إيلامٍ جارح. غير أنَّ التعارض يكشف، في الوقت ذاته، عن زوايا واحتمالات لا تخلو من صواب. سألتُ أستاذ الفلسفة الحديثة، بعد انتهاء حصَّته، أن يوضِّح لي مسالك هذه المتاهة التي تندُّ عن فهمي، أنا الطارئ على فرنسا، فقال لي بأنَّ ما ألاحظه أمرٌ طبيعيّ، لأنَّ فرنسا بعد الهزيمة واختلال الاقتصاد واهتزاز القيم، باتت تبحث عن طريق يضمنُ تدارك ما خسرته، ويسهِّل الانخراط في سيرورة جديدة تعيد الثِّقة في قيم التنوير التي صرعتها النازيَّة والفاشيَّة. ثمَّ إنَّ حقيقة الصراع أضاف تشمل أيضًا المجابهة بين قوى المحافظة ذات الخلفيَّة الدينيَّة، وقوى الحداثة ذات الخلفيَّة اللائكيَّة المتطلِّعة إلى الالتحاق بالعالم الجديد الحابِل بالتغيُّرات المذهلة... حاوِلْ أن تقرأ كتب فلاسفة الوجوديَّة والماركسيَّة المجدِّدة، فهي تلامس مطامح الفئات المنجرفة نحو الثورة. فرنسا لا تستطيع أن تعيش من دون ثورات

متواترة تصحّح المسارَ، لأنَّ تقاليدنا وجذورنا المجتمعيّة مثقلة برواسب الماضي التي تُمعن في الجرّ إلى الوراء...».

على هذا النحو، بدأ منير يدقِّق النَّظر في الفورة التي عاشتها فرنسا طوال ستينيّات القرن الماضي. تنبّه إلى حركة تجديد المناهج وطرائق التَّحليل في العلوم الإنسانيّة، وإلى السينما الطلائعيّة التي لفتت الأنظار من خلال أفلام كودار وتريفو ورومير، والإبداعات التشكيليّة، والتفاعل بين فنانين وكُتّاب وافدين من أقطار مختلفة، اختاروا باريس التي تسعى لأن تكون عاصمة للثقافة والإبداع في العالم. أكثر من مجالٍ وحركة يصبّ باتِّجاه إسناد إشعاع يتَّسمُ بالمغامرة والتجريب المفرط الذي أطلق شرارته السوريالِيُّون. يصعب أن تفصل حلقة عن أخرى في هذه الكتلة المتراصَّة المنطلقة صوب الأمام، وكأنَّ فرنسا تخوض من خلالها سباقًا مع أقطار منافسة في أوروبا وأميركا...

مشهدُ فرنسا المتحرِّكة، المتسابقة مع الزمن، أخرج منير من إيقاع حياته المتَّزن، المنحصر في الدِّراسة الجامعيّة والنجاح في الامتحانات. أصبح حريصًا أيضًا على ملاحقة المشهد الثقافيّ والسياسيّ المتسارع الخطى. لم يعد يكتفي باستيعاب مُقرَّرات شعبة الفلسفة، بل أضحى يتابع ما يقدَّم على المسارح وفي دور السينما، وما تصدره المطابع، وما تحبَل به منتديات السياسة ومنابر الفكر. كأنَّما قطع على نفسه أن يتقمَّص شخصيَّة شابٍّ فرنسيّ يسعى إلى استيعاب مكوِّنات مجتمعه، ليتمكَّن من التأثير فيه.

قبل أن يغادر المغرب، مطلع ستينيّات القرن الماضي، كان منير يتابع من بعيد أصداء صراعات ما بعد الاستقلال؛ وكان يعاين التململ في أوساط التَّلاميذ والطلَّاب، إلَّا أنَّه لم يكن يشاركهم في مظاهرات الاحتجاج والتنديد، لأنَّ والده كان يوصيه بإعطاء الأولوية لدروسه. وعندما يتذكَّر تلك الفترة، يجدُ: **«أنَّ التَّلاميذ في إعداديَّة عمر بن عبد العزيز بمدينة وجدة، كانوا دائمًا مستثارين، مستعدين للانتفاض والتمرُّد. معهم، كنتُ أحسّ كأنَّنا يتامى تفصلنا مسافة شاسعة عن نمَط الحياة الذي نتطلَّع إليه. حجرٌ ثقيل يسدُّ منافذ الضوء أمامنا. نصائح وتعاليم تتقاطرُ على مسامعنا لتحولَ دون استكشاف تلك التفاصيل التي تعطي لوجودنا نكهة الحيويَّة والانطلاق. كنَّا نتفرَّج على لعبة مملَّة يكِرُّ أمامنا شريطُها**

بين الكبار في ميدان السياسة واحتكار السلطة. مِن ثمَّ جاءت مظاهرات التّلاميذ أقرب إلى الاحتجاج على وصايةٍ متناسلة، أكثر ممَّا هي تعبير عن رفض سياسة الحكم الفردي...».

قال راوي الرُّواة:

بعد مُضيّ سنة على إقامة منير في باريس، بدأ يحسُّ أنَّه ما يزال يتعثَّر في التواصل مع الواقع المحيط به، لأنَّه مختلف عمَّا عاشه في بلاده، ومختلف عن الصُّورة المجرَّدة المؤلَّفة من القراءات والخطابات المُرافِقة لإعلاء شأن النموذج الحضاريّ الفرنسيّ. بدأ يستشعر تفاصيل تنغلُ في جنبات المجتمع وتطفو تدريجيًا، لتُبرز سلوكيَّاتٍ متخفِّية وقيمًا هي في طور التشكُّل أو في مدار المخاض. أخذ يتوقَّف كثيرًا عند ما كان يعتبره تافهًا: صور الممثِّلة بريجيت باردو مثلًا؛ فهي تتصدَّر الجرائد والمجلَّات وإعلانات الأفلام. وهي فعلًا اكتسحت عِقدَ الستينيَّات بمقاييس جسدها المتناسقة وجرأة النظرات التي تحرِّك أكثر الدِّماء برودة في عروق الرجال. غير أنَّ منير سرعان ما اقتنع أنَّ مزاياها لا تكمن في الجمال بقدر ما تنبعُ من خبرتها في الدلالِ، وتسويق ما يختزنه جسدُها اللَّدن، المحطِّم لحدود الحشمة والوقار. وتذكَّر لفظة «التخلوين» التي يستعملها أهلُ بلاده لوصف فتاة تلجأ إلى إغراء شبانٍ يتطلَّعون إلى مفاتنها. التحلوين هو بمثابة سلاح يُليِّنُ الحديد، إذ يجعل المتحلوِنة تكتسي غلالةَ القُربِ والحميميَّة، وتنزع الستار عن جاذبية لا تبدو في السلوك المحتشم. لكنَّ «باردو» سرعان ما قفزت إلى نطاق الرمزيَّة الأنثويَّة، بعد أن كتبت عنها الفيلسوفة سيمون دو بوفوار مقالًا يمتدح جرأتها في التَّعبير عن الجسد وبالجسد، ويقرن مغامراتها عبر الزواج المتعدِّد أو من دونه، بتجسيد حرِّيَّة المرأة في ممارسة الجنس والتمرُّد على مؤسَّسة الزواج... تنبَّه منير إلى أنَّ بريجيت وكوكبة أخرى من الممثِّلين والممثِّلات لا تسطعُ نجومهم من غير أضواء خيمة «الخِياطة الرفيعة» صانعة الموضة والأناقة، وكاشفة المفاتن المستترة. كلّ سنة تقام معارض الأزياء، وتتنافس مواهب المصمِّمين والعارضات، وتتحلَّق «كلّ باريس» حول منصَّة العرض، لتُصدر آهات الإعجاب وتصفيقات الاستحسان التي هي مقياس للجودة وترجيح موضةٍ على أخرى.

بشيءٍ من التأمُّل والتَّحليل، أدرك منير أنَّ وراء تجلِّيَات السينما والموضة والمسرح وتلميع الكُتَّاب والسياسيِّين، «مصنعًا» متخفِّيًا يستثمر

وسائط الإعلام وأجهزة الاتّصال ليخلق نجومًا/رموزًا، آلهة/بشرًا، يُدثّرهم بغلائل أسطوريّة وبما هو فوق المعتاد. عمليّة حاذقة، معقّدة، تخضع لشبكاتٍ توجّهها قوّة المال ومراكز السُلطة، واستطلاعات الرأي العامّ المفتون بالجديد والعابر. من ثمّ تحتلّ الحياة الخاصّة للممثّلين والمغنّين ومصمّمي الأزياء والعارضات والكتّاب الأكثر رواجًا، القسطَ الأوفر في نسجِ أسطورة كلّ واحدة وواحد منهم، لتغدو مادّة دسمة تُغذّي عُمر الشهرة والرواج والتألّق، وتحدّد بعضًا من ملامح المتخيّل الاجتماعي...

ألبير، الصديق الذي تعرّف عليه منير أثناء ثورة الطلبة في مايو ١٩٦٨، هو الذي لفتَ نظره إلى أهمّيّة الرّبط بين مختلف الخطابات وأنواع السلوك الظاهرة والمُستترة، لتحَسُّسِ بوصلة الحركة المجتمعيّة وما تختزنه من قِيَمٍ هي قيد التحوُّل:

«من خلال مناقشاتي مع ألبير، أدركتُ دورَ الأدب والمبدعين في إنارة المشهد. وجدتُ في الشعر والرواية والمسرح تعبيرًا مختلفًا، يقتنص تدفُّق الحياة وتناقضات السلوك البشريّ عبر التفاصيل اليوميّة؛ بينما الفلسفة التي أتخصّص فيها، تُسعفني على استيعاب المفاهيم والأنساق النافذة إلى أسرار الوجود وسيرورة التغيُّرات. والأكثر إثارة في متابعتي للأدب الفرنسيّ هو تلك العلاقة المثيرة بين الأسماء اللّامعة ونوعيّة الحياة الخاصّة التي يعيشونها مقترنة بالمغامرات والفضائح، وكأنّها جزء من ضريبة الشهرة والنجوميّة...

«عندما قرأتُ «مرحبًا أيُّها الحزن» لفرانسواز ساغان، وجدتُ فيها تعبيرًا عن شرخٍ يخترق الطبقة البورجوازيّة والمُتبرجزة بعد الحرب العالميّة الثانية؛ كأنّما الكاتبة الشابّة تحمل صوت جيلٍ لا يجد نفسه في الموروث ولا في الانتصار على النازيّة. هو جيل، بالأحرى، مُتعطّش إلى الانغمار في حياة الصخب وإلى معانقة المحرّمات والمُجون ودفنِ الأحزان في موسيقى الجاز الوافدة من بلاد العمّ سام...».

صدق منير في ما خمّنه، لأنّ ساغان بعد النّجاح السّريع والانتشار الواسع، جسّدت ملامح من حياة ذلك الجيل الذي استوحَته في روايتها: بعثرت الفلوس يمينًا ويسارًا، شُغِفت بالسيّارات الأكثر سرعة. مارست الجنسَ والحبّ مع الرجال والنساء، وودّعت العالم وهي بين أحضانِ امرأة.

أدمنت العربدة والسّهر والتبذير، لتجد نفسها مُسوَّرة داخل أوهامٍ لا تفيدها، بعد أن ولّى الشباب والمجد وتبدّدت الثروة...

في فترةٍ موازية لتلك التي يشير إليها منير، كانت هناك ظاهرةُ الكاتب رومان كاري، الروسيّ الأصل الذي أصبح متألّقًا في كتاباته بالفرنسيّة والإنجليزيّة. تجربتُه متفرّدة، لأنّه على رغم نجاحه وجماله وحُظوته عند النساء، فإنّ ذلك لم يشفع له عندما كانت تحاصرُه أسئلةُ الهُويّة والوجود والخلود... للخروج من مأزق الكينونة، لجأ إلى انتحال أكثر من شخصيّةٍ واسمٍ لتوقيع روايات فازت بأعلى الجوائز، وحظيت بفئاتٍ واسعة من القرّاء. فاز بجائزة الكونكور مرّتين مستعملًا اسمين مختلفين، لأنّه أراد أن يجرّب من جديد وضعيّة الكاتب المبتدئ، المغمور. ولأنّ قلقه لم يعرف طريقًا إلى الانطفاء، طلّقَ زوجته، وعقد قرانه سرًّا على الممثّلة الأميركيّة، الفاتنة، جينْ سِبيرغ (**Sberg**) التي شخّصت دور البطولة في فيلم «مرحبًا أيُّها الحزن». تزوجا سرًّا في كورسيكا، استجابة لصعقة الحبّ التي جعلت كلًّا منهما يتخلّى عمّن كان مرتبطًا به، لكنّ زواجهما لم يدم أكثر من عشر سنوات، فقرّرا الانفصال، لتتّجه جين إلى الانتحار. وبعد رحيلها بسنةٍ واحدة، أطلق كاري رصاصة على نفسه ليلتحق بها. لا شيء يصدّ الكارثة حين تكون الدودة قد تغلغلت في الأعماق. لم تنفعه الأقنعة المتعدّدة التي توسّل بها لتهدئة جنون العظمة والتفوُّق، ولم يسعفه الحبّ في العثور على توازنٍ بين الكينونة العارمة والوجود الاعتياديّ، الملتصق بالوضع البشريّ الغارق في الملالة والاجترار.

في الفترة نفسها تقريبًا، شاهد منير، صحبة صديقة إسبانيّة، مسرحية «الكراسي» للكاتب الرومانيّ أونيسكو. كان قد مضى خمس عشرة سنة على عرض هذه المسرحية بقاعة صغيرة في زقاق «لاهيشيث»، فأصبحت بمثابة مَعلَم سياحيّ يُنصَح زوّار باريس بمشاهدته. إلّا أنّ الصديقة التي كانت تدرس المسرح، أقنعته بأنّ في «الكراسي» ما يستحقّ التأمُّل على رغم مرور السنين. وفي المسرحية: الزوج الشيخ وزوجته العجوز يتحدّثان لغة لا تُحيل على مدلول الكلمات المألوف. هما يبدوان صاحيين، إلّا أنّهما يتلفّظان كما لو كانا في حلم: يتحدّثانِ عن زوّارٍ لا نراهم، وينهمكانِ في إعداد الكراسي الكافية لاستقبالهم. يتناقران حول ابنهما، فتقول الزوجة إنّهما لم يُرزقا بطفلٍ قطّ؛ لكنّ الزوج يُصرُّ على أنّ الابن وُجِدَ، وأنّه سيعود إلى البيت... **«علّقت صديقتي بأنّ «الكراسي» لا**

تندرج ضمن مسرح العبث وحسب، بل هي تثير الانتباه إلى تغلغلِ الفانتستيك في حياتنا، بوصفه عنصرًا يُحيل على اندماج اللّاعقلانيّ في الواقع المعيش... أعجبني تأويلها للمسرحية . فعلًا، نحن دائمًا نبحث عن كراسٍ نقتعدها، والكراسي لا توجد إلّا في مخيّلتنا. هل نعيش حقًّا في حيّزٍ محدود بالجدران والأمتار، أم أنّنا نعيش دومًا في ما لا تحدُّه سوى الأوهام؟».

قال راوي الرُّواة:

يمكن أن نسترسل على هذا النحو في استحضار لحظاتٍ ومشاهد تخطُر على بالِ منير، لها جذور في الخمسين سنة الماضية التي عاشها في فرنسا، وتحيلُ على امتدادات تاريخيّة واجتماعيّة. إلّا أنّ الأمر هو أكثر تعقيدًا، لأنّ التاريخ متدثّر بأكثر من حجاب، وما قد نستعرضه لا يعدو أن يكون محكياتٍ متداخلة مع أحداث ومواقف، تجعل علاقة منير بتلك الفترة من حياته أشبه بمشاهد تخييليّة، اختمرت في ذاكرته ولوّنت نظرته الاسترجاعيّة لتلك السنوات المديدة المنتمية إلى القرن العشرين. كثرةُ الأحداث وتشابُكها وانتماؤها إلى فضاءات عديدة، تجعل التاريخ العامّ أقربَ ما يكون إلى عوالم متخيّلة، لا نقترب منها إلّا من خلال لحظاتٍ تومِضُ بقوّة وتتغلغل في سراديب التاريخ الشخصيّ الذي لا ينجو، هو أيضًا، من بصمات التخييل والتوهُّم.

لو أردنا أن ندفع الخواطر إلى الأبعد، لقُلنا إنّ منير يسعى إلى تحديد مرتكزٍ في الحاضر، تتجمّع عنده خيوطُ الماضي: هذا ما يشغله أكثر من محاولة استعادة العمر المنصرم. أليس هو في ذلك أشبه بالرّوائيّ المهموم قبل كلّ شيء بتحديد «حاضر الرواية» الذي ينطلق منه؟ الحاضر زئبقيّ يصعب الإمساكُ به، لكنّه يظلّ نقطة ارتكاز ضروريّة، ولو عن طريق الافتراض، لأنّها تسعف على تبديد حواشي السديم. لكلّ ذلك، يبدو منير ملتصقًا أكثر بتاريخه الشخصيّ، حين يتعلّق الأمر بعلائقه الحميمة مع النساء، أو بالأخص مع زوجته كاترين وابنه بدر.

بدأت تجربته مع المرأة والحبّ والجنس، بعد سنتين من وصوله إلى باريس، حين أدرك أنّ الاهتمام بالدّراسة لا يتنافى مع الغرام واستنشاق العطر الأنثوي. عندئذٍ، أقنع نفسه بأنّ ما أوصاه به أبوه أن يحرص على الوقت والجدّيّة في التعلُّم، لا يتنافى مع نزوعه الطبيعيّ إلى استكشاف عوالم المرأة المجهولة لديه. دعنا إذن نجاريه في ما قاله مع

نفسه، من أنَّ تعلُّقه بالمعرفة هو دافِعُه إلى التعرُّف على المرأة في تجلّياتها المختلفة، بعد أن خبرَ الجانب الرومانسيّ منها في مسقط رأسه.

إذا صدقته الذاكرة، كانت جوسلين أوَّلَ حبّةٍ في عِقده النسائيّ. شقراء، عينان زرقاوان، كلامها مصحوب بابتسامة تتمّم ما تتفوَّه به. تعرَّف عليها في حديقة المدينة الجامعيَّة بحيّ جوردان. بعد خروجه من المطعم صحبة زميله فريد، المعروف بجرأته في معاكسة الطالبات، أخذا يتحدَّثان بصوت مسموع، وصديقه يُبدي رأيه في أسراب الغاديات والرائحات. وكانت جوسلين ذلك المساء منصرفة وحدها من المطعم، وبيدها تفاحة تقضمها: **«فاجأها فريد: طريقة ملامستك للتفاحة أيقظت لديَّ شهوة القضم. هل تسمحين؟ مدَّت إليه التفاحة مع ابتسامة تلقائيَّة، فشرع في قضمها مفيضًا في التغزُّل. تدخَّلتُ لأحمي جوسلين من مضايقته، وأخذتُ أعتذر لها، وفي الوقت نفسه استفسرتها عن الجناح الذي تسكن به في الحيّ، ومستأذنًا في أن تسمح لي بالاتِّصال بها لنتحدَّث بعيدًا من صخب فريد وتهريجه. رحَّبت باقتراحي، وأعطتني رقم غرفتها. علَّق فريد على المشهد: ها كِدا، أنا نُطيِّبها وانتَ تاكلها؟»**

خلال لقاء منير الأوَّل بجوسلين، عرف أنَّها سويسريَّة تدرس علم الاجتماع، وتهتمّ بنظريّات ومنهج بيير بورديو، لأنَّه يجدِّد الفكر الماركسيّ ويفتح أبحاثه على مناطق ظلَّت مهملة عند الباحثين، رغم تحوُّلات المجتمع الفرنسيّ المتسارعة. أخبرته أيضًا أنَّها منتمية إلى الحزب الشيوعيّ في سويسرا. أبدى استغرابه، فضحكت قائلة بأنَّه ليس الوحيد الذي يظنّ أنَّ سويسرا الثريَّة، مأوى البنوك، لا يوجد بها فقراء أو مهمَّشون يلتمسون العدالة عن طريق انتمائهم إلى حزبٍ يُبشِّر بالمساواة المطلقة.

ما فتح عيني منير على مسرَّات الجسد وأسراره الشهوانيَّة هو الجانب الحميميّ في علاقته بجوسلين. عندما كانا يختليان في غرفتها، تبادر إلى إضاءة لمبة حمراء خافتة، وترتدي غلالة من حرير أبيض، وترسل شعرها الأشقر على كتفيها، وتُدير مسجِّلة تبثُّ موسيقى ناعمة ترافق رحلتهما إلى ملكوت الإيروس والشبَق المتأجِّج. ومنذ ليلتهما الأولى، لاحظت أنَّه لا يُناغم إيقاعَ شهوتها، فأخذت تطلب منه أن يُطيل المداعبة وأن يتذوَّق، مثلها، اللَّحسَ والغوص في ثنايا جسدها، لكي لا يُسرع في القذف. بصبرٍ وأناة، عبر اللَّمسات والقبل الملتهبة، استطاعت جوسلين أن

تقود منير إلى شاطئ الالتحام المتناغم.

بعد أن توطّدت علاقتهما، وأصبح التواطؤ بينهما ساريَ المفعول، فاجأته ذات يوم بالسؤال عن صديقه فريد الذي كان قد غازلها بلغة لا تخلو من وقاحة. أجاب بأنّه لا يراه إلّا مصادفة، ولا تربطهما صداقة متينة. ابتسمت وتمتمت: أسألك عنه، لأنّ طريقته التلقائيّة، المقتحمة، لمست لديّ منطقة الشّهوة العميقة، وكنت أنوي أن أقترح عليك استدعاءه ليقاسمنا الفراش، فلعلّ حضوره يكشف لنا منطقة مهملة في جسدينا.

«تلقائيّة جوسلين وصراحتها تهدّئان غضبي، وتجعلاني من دون سلاح أمام خججها وتعاطيها مع تفاصيل الحياة. أذكر أنّها استدعتني لقضاء بضعة أيّام معها في مدينتها نوشاتيل؛ وعندما وصلنا إلى بيتها، كان هناك شابّ إسباني قدّمته لي على أنّه عشيقها السّابق، وأنّ علاقتهما توقّفت بعد أن وقع هو في غرام فتاة أخرى. الآن، هو يعمل في نوشاتيل، لأنّه هارب من قمع الجنرال فرانكو. يوم وصولنا، استدعته إلى العشاء معنا في أحد المطاعم، وأمضينا سهرة مرحة كأنّنا أصدقاء منذ أمد طويل. عند عودتنا إلى البيت، تمنّينا له ليلة سعيدة، ودخلنا إلى غرفة جوسلين. كانت الشّهوة متيقظة، فلم نستطع كبحها.وسرعان ما بدأت تعلو وخوَحةُ جوسلين في إيقاع منغّم، وأنا أحاول أن أضع يدي على فمها لكي لا نستثير العشيق السّابق... قد ننسى تجاربنا مع بعض النّساء، لكنّ وخوَحة جوسلين باقية في الذاكرة ما تزال...».

حين أنهت جوسلين أطروحتها، غادرت باريس عائدة إلى سويسرا، وظلّ التواصل قائمًا، ثمّ أخذ في التباعد، إلى أن أخبرته بعد مضيّ سنوات، أنّها ستمرّ من باريس في طريقها إلى أستراليا، حيث ستستقرّ هناك مع أستاذ جامعي طلب يدها.

أثناء لقائهما بمطعم «الشعلة الدائمة» في المقاطعة الرّابعة عشرة، بدت جوسلين متغيّرة في سمتها ولباسها وقصّة شعرها، محتفظة ما تزال بألقها الأنثويّ، إلّا أنّ مسحة من الرزانة والوقار تجعلها تبدو متباعدة عمّا حولها. كانت تحمل في يدها كتابًا ملفوفًا في ورق أخضر وعليه شريط أحمر؛ قدّمته إلى منير قائلة: هذا كتاب جديد لبيير بورديو الذي كنت تشاطرني الإعجاب به، وهو يحمل عنوان «بؤس العالم». آملُ أن تجد وقتًا

لقراءته، ففيه تحقيقات مضيئة عن الظواهر التي كنّا نلاحظها ونستشهد بها من تدقيق في التفاصيل. تتكلّمُ وتبتسم: **«لكنّني وجدتها بعيدة عنّي كأنّها تطلّ عليّ من كوكب آخر، أو من المسافة التي تفصل أستراليا عن باريس. حاولتُ أن أذكيَ شعلة الانجذاب الذي ربطنا منذ عقدين من الزّمن، إلّا أنّها ظلّت متباعدة، متحفّظة، وكأنّ ما جمعنا كان صداقة خالصة لا غير. واستمعتُ إليها تتحدّث عن خطيبها، فتأكّد لديّ أنّها في حالة حبّ نادرة، تحتلّ كيانها ولا تترك لها مجالًا لتلتفت إلى لحظات مضيئة عبرت حياتها ذات غمرٍ مضى. حتى عند الوداع، لم تسمح لي بأكثر من قبلتين على الخدّين. هي تخطو متباعدة عنّي، ملتفتة نحوي، وابتسامتها الرزينة وتسريحة شعرها لامرأة أربعينيّة، والتايور النبيذيّ الذي يرسم تقاطيع جسدها في احتشام، كلّ ذلك ينحفر في ذاكرتي، ماحيًا الصُورة الأخرى التي كنتُ أختزنها منذ أيّام عنفوان علاقتنا...».**

منذ ذلك الوداع، انقطعت أخبار جوسلين، وبقيت عالقة بذاكرة منير صورتُها المتباعدة، الحاضنة لاطمئنان امرأة تعيش حبًا جديدًا. امرأة ترنو صوب الآتي، ولا تلتفت إلى ما مضى من حياتها. وكلّما استعاد هذا المشهد، أحسّ بحسرة تتسلّل إلى نفسه، لأنّه ظلّ يحنّ إلى جوسلين «المعلّمة الأولى» التي فتحت عينيه وجسده على أسرار المتعة الكامنة في الأعماق.

الآن، عندما تغمره لحظات التأمّل، ينساق منير إلى المقارنة: هو يُنكر على نفسه أن يكون أسير النوستالجيا والارتداد إلى ما عاشه في الماضي؛ إلّا أنّ الذاكرة كثيرًا ما تُطوّح به إلى أصقاع بهيجة متّصلة بما انقضى من عمره، فيسرح معها إلى درجة أن يغدو غير قادر على الانغمار في الحاضر...بينما تبدو له جوسلين الآن واضحة في علاقتها بالزّمن: تعيش كلّ فترة ملء وجدانها وعقلها، ثمّ تنتقل إلى غيرها، حين تدرك أنّ الوقت استنفد ما ينطوي عليه من إمكانات ووعودٍ بالمسرّة. بطريقة جوانيّة، يأخذ المستقبل الحيّز الأكبر من اهتمامها وطاقتها. مِن ثمّ قدرتها، فيما يخيّل إليه، على الانتقال من ماضٍ إلى حاضر منفتح على ما هو قيد التشكّل. هذا لا يعني أنّها تمحو ماضيها من روزنامتها؛ لكنّ الأسبقيّة لديها هي لصُنع لحظاتٍ مميّزة تضيء الأيّام الآتية.

قال راوي الرُّواة:

باريس فضاء مفتوح على المفاجآت. فكرة ترجّحُ كفّتُها عند منير منذ التحاقه بالعمل في التدريس، واكتشافه لحياة اللّيل والمراقص

المكتظّة والسّهرات المختلطة عند الأصدقاء. منذ رحلت جوسلين، عاش فترة من العلاقات العابرة مشدودًا إلى المغامرات التي تضيف إلى نضجه العاطفيّ والجنسيّ. لكنّه في الآن نفسه، وطّدَ صلته بالساحة السياسيّة ومعارك اليمين واليسار، واحتجاجات الطلّاب على جمود الأوضاع وسطوة الرأسمال. ولم تكن هبّةُ الطلبة في ١٩٦٨ حدثًا عابرًا، لأنّها كشفت لمنير ولآلاف الشباب قضايا وآفاقًا كانت غائبة عن وعيهم. أحسّ بالفرق الكبير بين لغة السياسيّين المراوغة وخطاب الرفض والانتقاد العنيف يصدح به الطلّاب في الشوارع، وفي مظاهرات تهزّ الجدران وتقتلع أحجار الرصيف للدّفاع عن النّفس أمام جحافل البوليس والقوى الاحتياطيّة. واهتمام منير بالسياسة، بعد تخرُّجه من الجامعة، يعود إلى مشاركته قبل ذلك في انتفاضة مايو، واستيعابه للمطالب الثوريّة التي تتطلّع إلى المزيد من العدالة والحرّيّة والمساواة. أصبح منير، وهو طالب في السنة الثالثة بالجامعة، مواظبًا على المظاهرات والاجتماعات، متحمّسًا للشعارات التي تمتدّ من تحرير المخيّلة إلى تحرير الجسد، وتصبو إلى إقناع العمّال والنقابات بالانضمام إلى ثورة الطلّاب، لتخليص فرنسا من وصاية ديغول الأبويّة، وفتح الطريق أمام حداثة توافق إيقاع مرحلة ما بعد الحرب...

كان منير يقف مذهولًا أمام جموع الطالبات والطلّاب، وهم يندفعون مُتحدّين الشرطة والجيش؛ يقتلعون حجَر الطوار، يصدحون بالشعارات المعادية للحكومة، يمزجون الصراخ بالغناء والتعليقات الساخرة، ويُنصتون في انتباه إلى زعماء شباب أفرزتهم الممارسة اليوميّة لنضالهم.

يومًا بعد يوم، أخذ منير يتبيّن أنّ ما يعيشه حدثٌ غير مسبوق، يُزيح الستار عن أزمة مجتمعيّة لم ينتبه إليها، لأنّه كان مبهورًا بالحياة في باريس وبالعلائق المفتوحة، ومستوى التّعليم. ما كان له أن يخمّن هذا الخلل الذي يثور ضدّه الطلّاب، لأنّ ما عايَنه منذ مجيئه يؤكّد الفرق الكبير بين حياة الفرنسيّين وحياة مواطنيه في المغرب. مستوى العيش، التأمين الصحّي والاجتماعي، حرّيّة الصّحافة وانتقادها اللّاذع للماسكين بالسُلطة، حرّيّة المرأة وحضورها في كلّ المجالات... ماذا يريدون أكثر من ذلك؟ كان يتساءل في الأيّام الأولى لانطلاق هبّة الطلبة. وخلال أحد التجمّعات في السوربون، تعرّف على ألبير سالاس، طالب في السنة النهائيّة في معهد «الفنون والمِهَن». ابتدأ الحوار عفويًا بينهما، وكان ألبير يناقش بصوتٍ مرتفع شعار «يجبُ منعُ المنع: **Il faut interdire d’interdire**». كان

ألبير يتكلّم بطلاقة، ويستشهد بحجج مقنعة، مُناصرًا الفكرة التي يطرحها هذا الشعار، لأنَّ الدولة تُكثر من قوانين المنع التي تستعملها السُلطة لإقبارِ كلّ ما يدعو إلى التغيير... وحين سأله منير عن المخاطر المحتملة لهذا الشعار، الذي قد يفتح الباب أمام الفوضى وانتشار قيمٍ مهدِّدة لأمانِ الناس؛ أجاب ألبير بأنَّ وعيَ المواطنين هو ما يحمي من الانحراف؛ ونحن الآن، بحاجةٍ إلى تكسير القوانين التي تخدم مصالح اليمين وأصحاب الأرباح المنهوبة. ولم يفتأ ألبير يردّد أمام منير بأنَّ الإضراب العامّ وإرغام ديغول على الاستقالة هو ما سيتيح الانتقال إلى مرحلة جديدة من تاريخ فرنسا، وليس قبول الانتخابات التي يتحايل اليمينيُّون من خلالها على إطفاء لهيب الثورة... على هذا النحو، في غمرة المظاهرات والجِدال الصاخب، انتسجت بين منير وألبير خيوط صداقةٍ، تراهن على ما ستسفر عنه حركة الطلّاب التي خلخلت مجموع فئات المجتمع، وجعلتها تنصت إلى أفكار تتحدّث عن المستقبل بلغة مختلفة. وأصبح منير يكنُّ تقديرًا كبيرًا لألبير الذي ينحدر من أسرة فقيرة في مدينة الهافر، ويدافع بقوَّة عن التغيير: «لماذا ينتابهم الخوف... أولئك الذين يهاجمون ثورة مايو ١٩٦٨، ويَذرفون دموع التماسيح؟ لأنَّ جيلنا يريد طريقة أخرى في تحديد حرِّيَّة الفرد وعلاقته بالمؤسّسات. حرِّيَّة الفرد التي نريدها مقترنة بوضع أسس مجتمع المساواة وضمان الحريات».

في أعقاب انتفاضة مايو ٦٨، انتقل ألبير إلى العمل في مدينة مارسيليا، وظلّت صداقته مع منير متواصلة من خلال الرَّسائل، ثمَّ عبر البريد الإلكترونيّ عندما انتشر في نهاية ثمانينيّات القرن الماضي. يتكاتبان ويتحدّثان في الهاتف من حين لآخر، وغالبًا ما تلتقي تحليلاتهما وهواجسهما في تصوُّر مشترك، على رغم اختلاف مسار كلّ منهما.

إلّا أنَّ ما حافظ على هذه الصداقة قويَّة ومتجدِّدة، تلك الحقبة التي تقرب من العامين، قبل أن يغادر ألبير باريس، والتي كانت بمثابة حقبة ذهبيَّة، خاصَّة بعد أن عزَّفَ ألبير صديقه على الجميلة كوليت كرانفال، سليلة البورجوازيَّة الفرنسيَّة، المهووسة ب «الانفتاح» على الشباب، والعيش في ظلال «الحرياتيَّة **libertinage**» التي دعا إليها بعض شباب انتفاضة مايو المجيدة. كوليت، سمراء ممتلئة في اعتدال، البسمة تعلو محيّاها الوسيم، تُقبل بِنهَمٍ على كلّ ما يمتُّ إلى الحياة بصلة. أوَّل انطباع يترسَّخ لدى من يتعرَّف عليها، أنَّها زهرة برِّيَّة شامخة، نبتت بين أدغالِ

كثيفة، واستنشقت هواءَ أصقاع نائيَة، متباعدة، واستقطرت من مناطق الظلّ والشمس عسلًا خالصًا، اتَّخذت منه ترياقًا يُسعفها على تخطّي رتابة العيش، وزادًا تمنحه في كرَمٍ لمَن تعذُّبهم حساسيَّتهم في دنيا الأحزان. هي لا تبخل بالحكي عن نفسها حين تُسأل؛ لكنَّ مرويَّات من عرفوها، وإشاعات من لم يعرفوها، تجعل من كوليت امرأة تتجدَّد صورتُها في كلّ حين، لتملأ فضاء استيهاماتٍ متناسلة لدى المحرومين. كأنَّها تستجيب لانتظارٍ تحبِك معالمَه رغائبُ الطلَّاب والشباب المتمرِّدين على شرنقة العائلة وعوالم السياسة المُسيَّجة بمواضعات موروثة ومصالح آنية.

ما هو معروف عن كوليت، بصورةٍ إجماليَّة، أنَّها أمضت سنوات طويلة في الهند؛ خاصَّة في «بونديشيري»، حيث كان أبوها يدير مشروعًا له علاقة بالوكالات التجاريَّة الشهيرة (كونتوار)، التي أسهمت فرنسا في تنظيمها وتغذيتها منذ القرن الثامن عشر. أبو كوليت اختار أن يراهن على إحياء فترة ازدهار تلك الوكالات، عندما أصبحت فرنسا، بحسب اتفاقيَّةٍ وُقِّعت في ١٧٦٣، تدير شؤون بونديشيري وولايات أخرى مجاورة لها، بحسب مراسيم منصوص عليها. التحق مسيو كرانفال، والد كوليت، بالمنشآت الفرنسيَّة في الهند سنة ١٩٣٠، مستفيدًا من الوضع التِّجاريّ المربح الذي خلَّفه أبوه. وعلى رغم أنَّ تلك المناطق استرجعت استقلالها الذاتي منذ ١٩٣٩، فإنَّ أبا كوليت بقي هناك إلى سنة ١٩٦٥، أيْ أنَّه مدَّد إقامته عشر سنوات بعد إدماج تلك المنشآت الفرنسيَّة بالجمهوريَّة الهنديَّة الشاسعة الأطراف.

عاد الأب إلى باريس، ومعه قُرَّة عينه كوليت التي أصبحت وردة ريَّانة زاهية في سنِّها العشرين، تتقن الإنجليزيَّة والفرنسيَّة والهنديَّة التي تحب أن تغنّي بها، بعد أن ترتدي الساري الحريري وتضع نقطًا حمراء على جبهتها وذقنها... هي تقول إنَّ أمَّها توفيت في مطلع الخمسينيَّات من القرن العشرين، والإشاعات تذهبُ إلى أنَّ أمّ كوليت هي عشيقة الأب الهنديَّة التي رفضت مصاحبتَه إلى فرنسا.

إنَّما كوليت تُنسيك ما عداها: جميلة، مثقَّفة، تتدفَّق حيويَّة، وتُعانق ما حولها لاستكشاف ما يحيط بها. ولم يكن يُسعد الأب أكثر من أن يُلبّيَ رغباتها، بل نزواتها.

العشرون سنة التي أمضتها في بونديشيري وتطوافها عبر ولايات

القارة الهنديَّة، أضافت إلى أصلها الفرنسي، البورجوازيّ، نكهة هي مزيج من روحانيَّة الهندوسيَّة وطقوس الآلهة الأرضيِّين ورومانسيَّة الموسيقى الوتريَّة ورشاقة الرقصات المجنَّحة. وكانت أبواب قصور العائلات الأرستقراطيَّة مفتوحة أمام كوليت، فأضحت نجمة متألِّقة في السهرات التي تقيمها أوساط النُّخبة الهنديَّة المتخرِّجة من جامعات بريطانيا العظمى، من كامبردج وأكسفورد. وسرعان ما تآلفت مع أجواء الهند الكوسموبوليتانيَّة، وانفتحت أعماقها الفتيَّة على كلّ ما يرمز إلى صورة الإنسان المُثلى. وفي سنّ الثامنة عشرة، عاشت كوليت تجربة حبّ ملتهبة مع شابّ هنديّ يدرس الطبّ، متعلِّق بالحضارة الفرنسيَّة وتجلِّياتها في مجالات الفكر والفلسفة والأدب والموضة والمطبخ... إلَّا أنَّ ما أعطى لحبِّهما طعمًا لا يُنسى بحسب ما حكته كوليت لألبير هو طقس الجِماع الذي يبدع فيه الحبيب الهنديّ كلَّما ضمَّهما الفراش: «لذة لم تتكرَّر معي رغم كثرة الرجال الذين عاشرتهم؛ تقول كوليت قبل أن تضيف: لا شك أنَّه استوعب جيِّدًا ما ورد في كتاب كاماسوترا عن فنّ الحبّ». تردِّد جملتها الأخيرة أكثر من مرَّة، ثمَّ ترفع يديها إلى أعلى، كأنَّما لتستنزِلَ من السَّماء مشهدًا من تلك الطقوس التي تسكن الجسد والمُخيِّلة. تتذكَّر أنَّ لقاءاتهما الحميمة كانت تمتدّ عدَّة ساعات، داخل غرفةٍ يخبو نورها أو يتسلَّل عبر شقوق مصراع النافذة، وهما منغمران في المداعبة والقُبل واللَّمسات لفترةٍ مديدة، يتهيَّأ خلالها جسداهما لأن يصبحا ذاتًا روحًا واحدة. وعبرَ أوضاع مستمدَّة من التجربة الإيروسيَّة الهنديَّة العريقة، يبتدع عاشق كوليت أشكالًا تقودُ إلى تلاحُم مستدام، إذ يستقرّ داخلها مفسحًا المجال لشهقاتهما المتأنِّية، الصادرة من غورٍ لا يُعرفُ له قرار. يشهقان ويعيدان، كأنَّهما يرتِّلانِ صلاة في معبدٍ، أو بالأحرى كأنَّهما يحاكيان طقس الإيلاج بين الإله شيفا وزوجته بارافاتي. لم تكن كوليت تحسّ، بحسب قولها، أنَّ ما تستكشفُه من أساطير الهند هو بعيد عن أرض البشر، ومن ثمَّ فإنَّ حبيبها المتوغِّل في المسامّ والخلايا، لا يعدو أن يكون بلسمًا يمسح الغبار عن روحيهما ليعبرا معًا إلى ملكوت النرفانا، حيث الفناء المطلق يبعث الجسد من جديد...

كلَّما استبدَّ بها الحنين، أو شعشعت خمرة سانت إمليون في خلاياها، عادت كوليت إلى الحديث عن تجربة الحبّ التي عاشتها في بونديشيري، وعن الأجواء الروحانيَّة التي تبدِّد مساوئ الفقر وجشع

المتهالكين على متاع الدُنيا. يستبدُ بها الحنين إلى تلك الرّحاب، حيث الناس يتحرّكون وكأنّهم في أجواء علويّة. من ثمّ ألحّت عليها فكرةُ أن تخلق فضاءً تعمُره المحبّة والصداقة وألفة التواصل ونشوةُ المتعة. توسّلت إلى أبيها ليمنحها حرّيّة التصرُّف في قصرٍ صغير محاطٍ بضيعة مزدهرة الأشجار، في إحدى ضواحي باريس الشماليّة. استجاب الأب لرغبة ابنته، التي وجدت في القصر البديع وغرفه الفسيحة وصالوناته وحديقته، الفضاء المُرتجى لاستقبال صديقاتها وزملائها في كلّيّة الآداب. اختارت شعبة الفلسفة، لكنّها تهوى المسرح وحفلات الأوبرا، وتمارس الغناء في السهرات الخاصّة، وتتطلّع إلى صورة للعيش في باريس تستمدُ نُسغها ممّا عاشته في رحابة الهند الأسطوريّة.

بعد فترة وجيزة، أصبحت ضيعة كوليت كعبة يتردّد عليها طلّابٌ وطالبات ينشدون التحرُّر والتفكير بصوتٍ مرتفع، ويحلمون بإعادة صياغة العالم انطلاقًا من فكرٍ طوبويّ، ينطلق من أحلام سان سيمون إلى تنظيرات سارتر وفوكو وَدُولوز... ولا أحد يستطيع أن يفسّر لماذا اختار الشباب الفرنسيّ العقد السادس من القرن العشرين ليكون، على وجه التّحديد، موعد التغيير الجذري لمؤسّسات المجتمع وقيمه!

بحسب رأي ألبير الذي عايش مشروع إنشاء الخلوة منذ بدايته، كانت كوليت بعد عودتها إلى باريس، تحت تأثير ما عاشته في بونديشيري من تجارب مفتوحة، يمتزج فيها الماديّ بالروحيّ، ويتحوّلُ التواصل الجسديّ إلى مرقىً لمُلامسة العواطف المُصفّاة وامتلاك اللّحظات التي تضخُّ حبّ الحياة في الشرايين. ويُضيف: إنّ هذا ما جعلها، بعد عودتها، تحرص على ابتداع فضاء «خريّاتي» يمنح الشبابَ خلوة منعتقة من القيود والمواضعات، وتكون العلائق فيها مستجيبة، قبل كلّ شيء، للرّغبة والتجاذب، للموسيقى والشراب، وللمتعة والكلام غير المباح. هي مقتنعة، يقول ألبير، بأنّ ما ورثه المجتمع الفرنسيّ منذ عهود الأرستقراطيّة وسيطرة البورجوازيّة، واضطهاد الكاثوليكيّة للبروتستانتيّة، هو إرثٌ خلّفَ جروحًا وحزازاتٍ وعقابيل، وأنّ رهان فرنسا، بعد هزيمتها في الحرب العالميّة الثانية، يتمثّلُ في صقل الوِجدان، وتحرير المرأة والرجل من وطأة الوصاية وغقد الخطيئة واللاساميّة والعنصريّة. ما تقوله كوليت وتدافع عنه، لا يصدر عن منظومة فكريّة مترابطة، وإنّما ينبثق من تجربتها المفتوحة على عوالم يضيئها التمازج والتهجين المُخصّب. ويضيف ألبير

أنَّها كانت تنوي أن تكتب على مدخل الضيعة بالبنط العريض: «خُلوة الضالّين»، لتؤكّد على أن لا أحد يعرف ما يريد من الدُنيا وهو في مطلع شبابه، وأنَّ لا مناص من توفير فرصٍ تتيح للشباب اليافع أن يبحث عن طريق تقنعه بين ما هو معروض من مُثلٍ وسلوكات وقيمٍ متشابكة، غالبًا ما تنقَضُّ علينا ونحن نرتادُ متاهة العالم. تنقضُ علينا لتسجننا داخل شرنقة الموروث والمألوف والسائد، وما هو «ناجحٌ» في سوقِ العمل والعواطف والجنس والدين والسياسة... لكنَّ اعتراض ألبير وآخرين على تسمية الضيعة بخلوة الضالّين، أقنع كوليت بالتخلّي عنها، لأنَّ تلك التسمية مُسرفة في التحديد، وتفرض مجالًا ضيّقًا يتعارض مع مبدأ الحرياتيَّة الجديدة، التي تكمن وراء المشروع المعبّر عن حساسيَّة الطلّاب والمثقّفين في مطلع ستينيّات القرن الماضي.

كانت كوليت هي التي تبادر إلى استدعاء من تقدّر أنَّهم، أنَّهنَّ، سيحملون نكهة وحيويَّة إلى سهرات الخلوة الشبابيَّة، التي سرعان ما تبلورت طقوسُها وممارساتها خلال بضعة أسابيع. أخذ الطلّاب، إلى جانب الطقم الصغير المكوَّن من الطابخات والساهرات على نظافة الغُرف، يسهمون هم أيضًا في إعداد الأطباق وشراء النبيذ لتدعيم مدخّرات قبو القصر من زجاجاتٍ مشهود لها بالجودة والتصنيف الممتاز. ومن خلل عبَق السهرات والجِدالِ والضحكات واللّمسات وتهاطُل موسيقى الجاز والبوب، انتسجت في سلاسةٍ ووئام علائق، يحفُّها الالتباس، وتُكلّلها الخلواتُ الحميمة داخل الغرف أو استنادًا إلى جذوع الأشجار. ولم تكن العلاقات تقف عند حدٍّ، أو تنحو إلى الأحادية والانتظام، بين الذين تلاءمت أذواقهم وشهواتهم. كانوا كأسراب النَحل، يتنقّلون بين الأزهار ويتزوَّدون بالرحيق المغذّي للجسد والرُوح. وكوليت في الواجهة تستقبل الوافدات والوافدين على الخلوة الحرّياتيَّة، وتقود خطواتهم على طريق نزْعِ العِذار والاستحمام في أحواض اللّذائذ والأحلام المنعشة.

وعندما يتعبون من الجدال والتفكير بصوت مرتفع في مصيرهم كشباب، وفي آفاق فرنسا الممكنة، يتوافدون على حلَبة الرقص، مُفسحين المجال للأجساد كي تترجم الإيقاعات الموسيقيّة المحمومة إلى مشاهد سينوغرافيَّة، تُبرز تقاسيم الأجساد ولُدونتها وما كان مستترًا من فتنتها...عندئذٍ، تكون الفرصة مواتية لكي تفاجئ كوليت الحاضرين، وهي تنبعث من إحدى زوايا الحلبة، مُرتدية الساري الهندي، مُغيّرة الموسيقى

الصاخبة إلى ألحان هادئة، تُرافقها وهي ترقص وتغنّي كلماتٍ رومانسيّة باللُّغة الهيندي (**Hindi**): تغنّي وتتلوّى في حركاتٍ رشيقة، تناغِمُها أصابعها المَلداء وابتسامتها الساحرة. وكلّما أمعنت في الرَّقص، تخفَّفت من الجزء العلوي من الساري الشفَّاف، لتكشف عن نهدين مُتوثِّبين كأنَّهما رسالة صارخة، تستحثّ المتحلّقين حولها لينطلقوا في رقصٍ محموم.

استمرَّت كوليت، حتى بعد أن أحرزت الإجازة في الفلسفة من جامعة السوربون، في السهر على لقاءات الخلوة ورعاية الجِدال، وتوفير شروط المتعة والانعتاق... ودائرةُ المتردّدين على القصر الصغير تتّسع أحيانًا وتتقلّص في أحيان؛ وكلّما غابت مجموعة عوَّضتها أخرى، وقد تسمح الصدفة بلقاءاتٍ تضمُّ قدامى الحَزياتيّين إلى حديثيّ العهد بالخُلوة. وصاحبةُ المشروع لا تكلّ ولا تملّ، بين أسفار وسهرات وتحضير أطروحةٍ عن «طقوس الجذبة والانخطاف في الممارسة الإيروسيّة». كأنّما، باختيارها لهذا الموضوع، كانت تسعى إلى تقديم جوابٍ على سؤال مشترك لهذا الجيل الحائر، المُتطلّع إلى تكسير ما يعوق انطلاقته المتمرّدة!

لكنَّ آخرين، في طليعتهم ألبير ومنير، كانوا يتوقَّفون خلال المجادلات والتَّحليل، عند العوامل الاجتماعيّة والسياسيّة التي تحولُ دون تغيير عميق في بنيات المجتمع الفرنسي، تُعزِّزُ تطلُّعاته التنويريَّة منذ ثورة ١٧٨٩.

يحلو لألبير الذي ربطته علاقة حميمة بكوليت، قبل مغادرته باريس، أن يردّد على مسامع منير، بعد انفجار حركة الطلّاب في مايو ٦٨، أنَّ الخلوة كان لها تأثير في التمهيد لتلك الانتفاضة، وفي صوغ الشعارات المنادية بتحرير العلاقة بين الرجال والنساء، والاعتراف بقيمة الفرد، ومعانقة الموسيقى والفنّ سبيلًا للتحرُّر، بدلًا من أهداف الثورات الإيديولوجيّة الغارقة في تصوُّراتٍ تقود إلى الدكتاتوريَّة وحمّامات الدّم... يضيف ألبير أنَّ مجموعات الطلبة الذين التقوا في حلقات كوليت كانوا في واجِهة المظاهرات، وكانوا متميِّزين بشعاراتهم وطرحهم المغاير لما درجت أحزاب اليمين واليسار على تسطيره وترديده في كلّ المناسبات. هُم، لم يكن غرضهم الاستيلاء على السُّلطة، بل الإلحاح على تحرير الفرد، وتغيير جوهر نموذج الحياة اليوميّة والعلائق الرابطة بين الناس...

يستحضر منير ما أشار إليه ألبير في رسائله الأخيرة، بعد مرور

أربعين سنة على حركة ١٩٦٨، عن تصدّي الرئيس ساركوزي لانتقاد ثورة الطلّاب وما طرحوه من بدائل، مُحمّلًا إيّاهم مسؤوليّة الأدواء والأزمات التي تتخبّط فيها فرنسا في مطلع القرن الواحد والعشرين! يعزو ساركوزي أزمة بلاده إلى أنانيّة الفردانيّة وانحلال القيم، والتفريط في الهُويّة، وانحراف المدرسة عن وظيفتها، زاعمًا أنّ جميع هذه الاختلالات تعود إلى الشعارات والمواقف المتطرّفة التي نادى بها جيلُ مايو ٦٨ !!! نموذج صارخ عن مغالطة التاريخ من لدُنِ السياسيّين، الذي يرفضون الاعترافَ بكلّ ما هو نابع من أعماق المجتمع حاملًا رؤية ووعيًا مختلفين عن الرؤية الماضويّة.

كتب منير إلى ألبير ذات مرّة، في أوائل سبعينيّات القرن الماضي رسالة يقول فيها: **«خمس سنوات مرّت على مايو ٦٨. وعلى رغم أنّ الحدث ما يزال يسكنُ قلوبَ ومخيّلة الشباب، فإنّني أحسّ أنّ جوهر الانتفاضة آخذ بالتلاشي، أو بالأحرى يتراجع إلى مكان مُنزوٍ في الذاكرة. أتابع بقلقٍ خطة الرئيس بومبيدو في مجال إرساء الليبراليّة المتسارعة والتحديث الأهوج. كأنّما يريد أن يسجن المجتمع داخل بنياتٍ عمرانيّة والتزامات اقتصاديّة، تُقيّدُ حرّيّته وتخضعه إلى أداء ثمن هذا التحديث! لا أخفيكَ أنّ ما عشناه جنبًا إلى جنب مع صديقاتٍ وأصدقاء في خلوة كوليت العزيزة، هو ما منحني الأمل في تجديد الحياة وبلورة معنى للوجود، طالما شغلني قبل أن أصل إلى مدينة الأنوار. مِثلك أنا، أضحيتُ أرى أنّ بذور الأمل والثقة في النّفس تبرعَمت خلال تلك السّهرات المتفرّدة، التي أذاقتنا ألوانًا لا تُنسى من اليقظة الفكريّة والانتشاء بصفاء العواطف ولَذّاتِ الجسد. ولا أبالغ إذا قلت إنّ لذّة تلك الأماسي واللّيالي «ما تزال عالقة بين أسناني» بحسب التعبير المغربيّ. وبالمناسبة، أخبرك أنّ علاقتي بكاترين التي تعرّفتُ عليها خلال مظاهرات وتجمّعات الهبّةِ الطلّابيّة، قد توطّدت، وقد تذهب بنا بعيدًا على طريق المعاشرة والتآلف في المستقبل...».**

قال راوي الرُّواة:

الإشارات الواردة في رسالة منير، تُحيل على فترةِ تحوُّلاتٍ في مسار حياته العاطفيّة والفكريّة وتجربته النضاليّة، تعلن عن انتقالٍ نوعيّ من مرحلة الحُرّياتيّة/الإباحيّة، إلى عتبة التمرُّد العلنيّ على منطق الدولة الليبراليّة وعلى المواضعات المكبّلة لحرّيّة الفرد وسلوكه الحميم. يصعب

تحليل أسباب انفجارات مايو ١٩٦٨، كما يصعب التقاط الأهداف الكامنة وراء مثل هذا الإعصار الشبابي الذي زعزع أعمدة السياسة الفرنسيَّة، وأطاح بالجنرال ديغول ورمزيَّته الموروثة عن فترة مقاومة الاحتلال النازيّ.

في البدء، اتَّسمت الانتفاضة بطابَع احتجاجي تُحرِّكه مطالب نقابيَّة من خلال اتِّحاد طلَّاب فرنسا العتيد آنذاك؛ لكنَّ ديناميَّة المظاهرات وتنافس الخطباء سرعان ما جعلت الحركة تتوغَّلُ في صلب الأزمة الشاملة، التي كان الساسةُ يحرصون على تغليفها والقفز على تجلِّيَاتها، كأنَّما صوتُ الطلبة كان ينطق باسم الهوامش ليُفصح عن المكتوم والمسكوت عنه. لم تقبل الدولة الفرنسيَّة وأركانها والطبقة المجسِّدة لمؤسَّساتها، أن تفضح ثورة ٦٨ نِفاقَ الأخلاق البورجوازيَّة المتدثِّرة بقيم كاثوليكيَّة مراوغة... وزاد من قيمة الانتفاضة أنَّ مجموعة من المفكِّرين والفلاسفة والفنَّانين سارعوا إلى تأييد ما صدحت به أصواتُ الشباب، واعتلوا المنصَّة لربط ما كتبوه ولم يلق صدًى بما يجهرُ به الشباب في لغةٍ واضحة لا تتخفَّى وراء المفاهيم المجرَّدة، لغة تتوسَّلُ بالسُّخريَّة والصراحة الجارحة، وتسعى إلى كنْسِ ما هو رميم.

هل يمكن القول، احتذاءً بآخرين، إنَّ ثورة مايو ٦٨ هي عيِّنة من ذلك المخبوء في أعماق المجتمع، من ذلك الكلام الكاشف الذي يُتداوَل سرًّا، ويظلّ مدفونًا وراء الحلول الوسطى، محجوبًا داخل أروقة المؤسَّسات والبرلمانات الحريصة على تأجيل الانفجار؟

لكنْ، ماذا نستطيع أن نستخلص من الفرص النادرة التي تتاح لكلّ مجتمع كي يَجهَر بالبوح عن مصادر الداء والجراح؟ هناك دائمًا وسائل وتحايلات يلجأ إليها المستفيدون من السلطة لكي يخفِّفوا من وطأة التعبير الصريح الصادر من أعماق المجتمع. يتحايلون ليحوِّلوا الصرخة المُلتاعة إلى مناسبة للجدال والاختصام الذي يُوهمُ بأنَّ لا شيء تغيَّر، ولا شيء يقتضي التغيير! كأنَّما يريدون أن يختزلوا التاريخ في ماضٍ وحاضر، ثمَّ يحتمون بالماضي لإلغاء مستقبل الحاضر. هي اللُّعبة نفسها التي لجأ إليها ساركوزي أثناء رئاسته للجمهوريَّة، إذ هاجمَ في خطاب رسميّ، ثورةَ مايو ٦٨ مدَّعيًا أنَّ ما يعانيه المجتمع الفرنسيّ منذ مطلع الألفيَّة الثالثة، إنَّما مردُّه إلى عواقب حركة الطلَّاب الهوجاء في القرن الماضي، لأنَّها

دافعت عن حرّيّة الفرد المطلقة، وشرّعت الأبواب أمام إعادة النظر في الموروث المُكرّس والقيم الحامية للهُويّة...

ظلّ منير، إلى حدود منتصف سبعينيّات القرن الماضي، مُحتضنًا في أعماقه لأهداف مايو ٦٨، متفاعلًا مع الرجّة المزلزلة التي أحدثتها في أناهُ الباطن وفي المحيط الذي يكتنفه. استأنف عمله في تدريس الفلسفة، وانكبّ على القراءة بالعربيّة إلى جانب الفرنسيّة، ساعيًا إلى بلورة أجوبة على الأسئلة المتشابكة، النابعة من أتونِ التجربة التاريخيّة التي قُدّر له أن يشارك فيها عن قرب. لم تعد علاقته بالعالم كما كانت من قبل. بدأ يحسُّ أنّ ذاته تستأنف الجريَ بعيدًا عمّا حوله، باحثة عن رؤية تستوعب تلك المُتغيّرات الكثيرة التي تسللت إلى عقله ووِجدانه، فيما هو يحاول أن يتجاهلها أو أن يجعلها سرًّا خاصًّا به. غير أنّ التحوُّل السرّيّ في دخيلة منير سرعان ما عثر على مسارٍ سيقوده إلى فضاء أرحب. وكانت بداية هذا المسار عندما توطّدت علاقته ب «كاترين جيرو» التي تعرّف عليها أثناء مظاهرات مايو المحفورة في ذاكرته. كانت في سنتها الأخيرة في كلّيّة الحقوق وتنوي الالتحاق، بعد التخرُّج، بسِلك المحاماة. قالت له إنّها تهتمّ بقضايا الخصومات والمنازعات التي تشغل حيّزًا كبيرًا من حياة الناس، وتكشف فظاعة المناورات والخُدَع التي يلجأ إليها المُتحايلون والشرّيرون لاقتناص الفرص والضحك على ذقون البسطاء والمُغفّلين. وأضافت كاترين أنّ اختيارها المحاماة يعود أيضًا إلى رفضها الظلمَ الذي يتستّر وراء أكثر من قِناع... وجَدَ منير أنّها، إلى جانب صِدقِ خطابها، تتوافر على عينين عسليتين تنبعث منهما ابتسامة جاذبة، ويحملهما جسد متناسق تجلّله سُمرة خفيفة تستهويه وتوقظ شهوتَه.

خلال المظاهرات والسُّهرات عند كوليت في خلوتها، وفي أجواء الثورة وما حملته من تلوينات حُلميّة، رومانسيّة، انتسجت بينهما تلك العلاقة السرّيّة التي توهِم بأنّ كلّ شيء ممكن، وأنّ الرّحلة إلى المستقبل هي أجمل في ظلال الحبّ والجنس والآمال المشتركة... وهي أجمل خاصةً عندما تكون وجهة الرّحلة تغييرَ العالم وتغيير الانتماء إليه.

مع امتداد الأيّام والشهور، أصبحت ثورة الطلّاب حلمًا يسكن الوجدان ويقوّي الشُّعور بضرورة التعلُّق بأمل التغيير. لكنّ المرارة ظلّت تعلو تصريحات وتحليلات الفاعلين في حوْمة مايو ٦٨. معظمهم أرجع

الفشل إلى رفض الحزب الشيوعي، والنقابة الموالية له، مجاراة الطلّاب في أهدافهم الثوريّة؛ واستخلص آخرون أنّ كلّ طبقة وفئات نافذة لها مصالح وحسابات تحرص على بقائها، ومن ثمّ تخشى كلّ احتجاج يُشعل نيران الفوضى ويتسبّب في ضياع رفاهِ الحياة الهنيّة التي تستطيبها الطبقات البورجوازيّة والوسطى؛ فضلًا عن أنّ منطق الحرب الباردة، آنذاك، كان ينحو إلى الحفاظ على التوازن بين المعسكرين، والاكتفاء بتسجيل إصابات إيديولوجيّة لا تغني من جوع... والجنرال الهمام الأريب اللبيب، شارل ديغول، صنو دونكشوت، انسحب من المعمعة منهزمًا، إلّا أنّه ترك خليفته جورج بومبيدو الحاذق في حماية مصالح اليمين الليبرالي. أمّا مطالب الطلبة، فقد تمّ الالتفاف عليها بطرائق متعدّدة، من بينها فتحُ جامعة فانسين لاستقبال كلّ من يرغب في استكمال تعليمه، دون التقيّد بمقياس الشهادات التي تخوّل الالتحاق بالجامعة. واستقبل هذا الفضاء أيضًا مجموعة من المفكّرين والأساتذة الذين ساندوا الطلّاب في تمرّدهم، وانتقدوا قيم المؤسّسات المتكلّسة. وأصبحت الحجّة المبرّرة لإنشاء جامعة فانسين هي أنّ التغيير المطلوب هو بحاجةٍ إلى تقليب تُربة المجتمع الفرنسي، وتعرية السّلوكيّات والمعتقدات التي كثيرًا ما تُتّخذ درينة يختبئ وراءها مُحترفو الكلام والمدافعون عن ثبات الأوضاع.

وجد منير في رحاب فانسين فضاءً لمتابعة تحليلات وأطروحات ميشيل فوكو وجيل دولوز، التي تنبش ما تحت القِشرة لتضيء المخبوء وراء تصريحات النوايا، والشعارات الخاطفة للأبصار. وجد في تلك المحاضرات وما يتلوها من نقاش، ما يستجيب إلى رغبته في مراجعة ما درسه من قبل عن تاريخ الفلسفة والأفكار وعن عصر الأنوار. هي بمثابة محطّةٍ لتصفية معارفه ومفاهيمه من الزُّوان والزوائد والمغالطات. بل هو مقتنع أنّ انتفاضة الطلّاب تعني، في بعض جوانبها، ضرورة القيام بتفريغ شامل لِمَا امتلأت به عقول الناس من معارف ومقولات، كثيرًا ما تحجبُ عنهم الرؤية الواضحة، وتمنعهم من الانفتاح على وعيٍ مغاير يضيء الواقع الذي أضحى مسرفًا في التشابك والتعقيد...

قال راوي الرُّواة:

في مطلع ١٩٧٠، شرع فرانسوا ميتران في جمع فصائل الاشتراكيين المبعثرة، وأخذ يدعو إلى تأسيس حزب مشترك ينتزع الحكم من أيدي اليمين. ومن مؤتمر إلى آخر، تبلورَ برنامج سياسي واقتصاديّ قادر على أن

يقنع الناخبين بالتصويت على الجبهة التي كوّنها ميتران مع الحزب الشيوعي.

عندئذٍ، أصبحت الفرصة سانحة لكي ينضم منير وكاترين إلى صفوف الحزب الاشتراكي، الذي أضحى بمثابة كوكبة نجوم تضمّ مناضلين وخبراء وتقنوقراطيّين وشبّانًا طامحين إلى ارتياد أروقة السُلطة. تختلف الدوافع لدى المنخرطين في الحزب الجديد، لكنَّ الإطار الإيديولوجي والاقتصادي يقدّم لكلّ فئةٍ ما يقنعها بالانخراط في بناء مشروع اليسار الفرنسي. والداهية المحنّك ميتران يعرف كيف يُحرّك الخيوط المتشابكة، ويُغدق الوعود ليقود السفينة إلى المرفأ المطلوب...

بعد إنهائهما لدراستهما الجامعيّة، التحق منير بكوليج هنري دو بلزاك في باريس، أستاذًا للفلسفة؛ وأصبحت كاترين محامية متدرّبة في المدينة نفسها. والعلاقة العاطفيّة بينهما متأجّجة، مشدودان إلى العالم المحتمل الذي خطّطت ملامحه مظاهرات مايو ٦٨، واندفاع الشباب الباحثين عن نموذج للعيش يمتح من المخيّلة أكثر ممّا يلتصق برتابة الواقع المكرور. وهما في فورة العشق وعنفوان الجسد، غاصَا في حميميّة نقشت تضاريسَها اللّمساتُ والبوحُ والقُبلُ المحمومة والانخطافُ المتحقّق عبر الوصول إلى قمّة الجِماع واهتزاز الجسدين في حضرة النشوة القصوى... ما كان يحظى بالأهمّيّة عندهما، آنذاك، ابتداعُ لحظاتٍ مميّزة تجسّد نمط العيش الذي يطمحان إليه، من خلال مشاهدة أفلام السينما الجديدة، ومعارض الفنّانين الطلائعيّين، ومسرحيات تستعيد تجربة ثورة ١٧٨٩ من منظور الحاضر الفرنسي المُتفجّر، والمشاركة في لقاءات تنظّمها جريدة «ليبيراسيون» التي ورثت فكر مايو ١٩٦٨، مستظلّة بنفوذ الفيلسوف العجوز جان بول سارتر ورفيقته سيمون دو بوفوار زعيمة الحركة النسويّة ومؤلّفة كتاب «الجنس الثاني». كأن لا أحد يريد أن يتلاشى ذلك الوهج الكهربائي الذي اخترق العظام والأجساد والنفوس، أثناء هبّةِ الطلّاب المتدثّرة في غلائل الحلم والتطلّع إلى الأفضل. لنقل في صيغةٍ أخرى، إنَّ كلّ من عاش تلك التجربة يحرص دومًا على أن يبقى مستمتعًا بضيافة الإله ديونيزوس، رمز النّشوة الدائمة والغنائيّة الحالمة.

مرّ أكثر من خمس سنوات على علاقتهما دون أن يشوبها الفتور؛ بل تأكّد لديهما أنّ الرحلة يمكن أن تدوم، وأن تؤول إلى صيغة مستقرّة. هو

عرف قبل كاترين عدّة نساء، أبرزهُنّ جوسلين التي تركت لديه بصماتٍ على غريزته الشهويّة، وعلى مناحي الحساسيّة تجاه الأنثى بوصفها عنصرًا مكمّلًا لروعة الحياة. وهو، لحدّ الآن، يحتفظ في قرارة نفسه بذكرى تلك المغامرات الإيبيقوريّة التي عاشها في خلوة كاترين، أيّام كانت الحرّياتيّة تبدو أفقًا مُفضيًا إلى تحرير الذّات والفكر والجسد، وعبر تلك اللّيالي التي كان الحماس يمتزج فيها بالجرأة، وفورة الشباب بالتمرّد، والغضب بالنّشوة... والآن، تحاصره الرّغبة في أن يُشيّد حياة أخرى مع كاترين ليتفرّغ لعمله في التدريس، وللنضال في صفوف الحزب الاشتراكي الذي استفاد من الحَراك السّياسيّ التي عرفته فرنسا منذ الحرب العالميّة الثانية، وأصبح يجسّد أفقًا يواكبُ الثورات والانتفاضات التي لا تهدأ إلّا لتبدأ من جديد، عبر أنحاء العالم...

لم يكن المغرب غائبًا عن بالِ منير؛ إلّا أنّه كان يضعُه في خانة «المُؤجّلات». يتابع من بعيد أنباء القمع وفصولَ أزمنة الرّصاص، وينتهي في تحليله إلى أنّ شروط التّغيير لم تكتمل بعد في المملكة الشريفة، ولهذا اختار أن يصنع مستقبله في بلاد الأنوار، حيث شروط العمل السّياسيّ متوافرة، والصراع الديمقراطيّ منظّم، وأبوابُ الأمل والحبّ مُشرّعة.

قال لكاترين ذات ليلة، وهما عائدان من السينما: ألّا تعتقدين أنّ الوقت حان لنعيش معًا ونخطّط للمستقبل؟ وكان جوابها أن ارتمت على شفتيه في قبلة محمومة، طويلة، قبل أن تتمتم في همسٍ يشوبُه الانفعال: السّؤال نفسه الذي كنتُ سأطرحه عليك، سبَقتَني إليه.

وكاترين التي هي من الطبقة الوسطى، وجدت في تجربة مايو ٦٨ وفي تعرُّفها على الطُّلّاب المتمرّدين، وفي أجواء خُلوة كوليت، ما فَتح أمامها الطريق إلى تحرير ذاتها الحاملة لرواسب تربيةٍ كاثوليكيّة، تحدُّ من انطلاقة الذّات وتقمعُ نزواتِ الجسد. انجذبت إلى منير، لأنّه كان يجيدُ الحديث عن المستقبل، ولا يدّخر شيئًا من أجل الوصول إلى صورة المُثُل العليا التي تشكّلت لديه من دراسته للفلسفة وقراءاته المتنوّعة. وعنده، وجدت ذلك الإصرار على ابتداع حياةٍ تستوحي القيم التي كانت تبدو آنئذٍ أفقًا لتجسيد الذّات ونزوعها العاطفيّ والوجوديّ خارج الأسيجةِ الموروثة... وعندما كان يحكي لها عن طفولته ومراهقته في «دبدو» مسقط رأسه، كانت تستطيبُ ما يرويه من مشاهد وذكريات حالمة تُلاقي

في نفسها مرعىً خصبًا. إلَّا أنَّها كلَّما اقترحت عليه زيارة مسقط رأسه، تنصَّل من الاقتراح مردِّدًا: ليس الآن؛ لدينا ما نحقِّقه هنا أوَّلًا، وستحين الفرصة لاحقًا لأستعيد معك زمني الرُّومانسيِّ، هناك... لم تكن كاترين تقتنع بما يسوقه منير من تعلّاتٍ تثنيه عن زيارة الوطن، إلَّا أنَّها كانت تحترم اختياره. وكانت مشدودة أكثر إلى تجربتهما العاطفيَّة، وإلى ابتداع حياة زوجيَّة خارج الإطار المألوف.

يبدو من رسائل وتأمُّلات كتبها منير، بعد أن تقدَّم به العمر واصطدم المعيش بالمحلوم به، أنَّه على رغم دراسته للفلسفة واستيعابه للمفاهيم المتَّصلة بالذَّات والأنا والغيريَّة، لم تكن حداثة سنِّه تسمح، عندما طلب يد كاترين، بأن يعيَ تمامًا العلاقة الزئبقيَّة بين الإدراك النظريِّ والتحقُّق الذي يتجلَّى في كلِّ ما هو خارج الذَّات ومتفاعل مع المحيط الاجتماعيِّ. أو كما عبَّر هو عن ذلك لاحقًا: **«غلَبتُ عنصرَ تبادل التأثير وإيجابيَّته على الطبيعة التراجيديَّة للذات المحكومة، المُقيَّدة بأرسانٍ لامرئيَّةٍ، تشدُّها إلى رفض الانقياد لجدليَّة تخضع أكثر لمقتضيات العالم الخارجيِّ...»**.

غير أنَّ مسار منير، إذا نظرنا إليه من الداخل، بعيدًا من تأمُّلاته الفلسفيَّة، سنجد أنَّه كان خاضعًا للصدفة أكثر من استجابته لاختيارٍ ذاتيٍّ. ولعلَّ ذلك ما جعله متشبِّعًا بفكرةِ الجدليَّة التي تجعل الذَّات مستجيبة لاندفاعة الحياة، مُتقبِّلة لتحوُّلاتها، مندرجة في ديناميَّة الأنا والغيريَّة، التي تُذوِّب صلابة الحدود الفاصلة بين التصوُّر النظريِّ والتحقُّق الواقعيِّ. **«الحياة كلُّها مفاجآت. كلّ مفاجأة تفتح لك بابًا»**. هكذا كان منير يردِّد مع نفسه، وكأنَّه شِعار يستهدي به.

في تلك المرحلة من العيش المشترك بين كاترين ومنير، لم يكن الحلم وحده يقود خطواتهما. كانا يتطلَّعان إلى صيغة يبتدعانها؛ غير أنَّ الواقع وتفاصيله كان دائمًا بالمرصاد يجعلهما يتقبَّلان التلاؤم مع مقتضياته. من ثمَّ ضرورة التنازل، من حين لآخر، عن سماوات الحُلم. ومثلما تكشَّفت تجربة التدريس عن صعوبات فاجأت منير، وجدت كاترين في مجال المحاماة سلوكًا لا يخلو من مراوغة وانحراف مغايرين لما يقتضيه فضاء العدالة من نزاهةٍ واستقامة...

المفاجأة التي فتحت أبوابًا جديدة للأمل أمام منير وكاترين، هي تسارع خطوات الحزب الاشتراكيِّ الفرنسيِّ باتِّجاه تنظيم صفوفه،

استعدادًا لخوض معركة استلام دفَّة الحكم. كان مؤتمر «إبناي» ١٩٧١، نقطة تحوُّل، إذ استطاع ميتران أن يلملم صفوف تيّاراتٍ متصارعة، ويقدِّم أرضيَّة تفتح الطريق لتوسيع حجم المناصرين، وضمان الأصوات الكافية للفوز في انتخابات الرِّئاسة. تحوَّلت الأوضاع من شعارات تجريديَّة إلى مقترحات عمليَّة، ومن كنائس حزبيَّة إلى حزبٍ مُوحَّد، مُهيكَل، واستلم ميتران الزمام ليشقَّ طريقه نحو القمَّة، مستعينًا بخبرته الطويلة في أروقةِ السُّلطة، وبقدرته على المراوغة والإقناع الخَطابي وبلاغته في تدبيج الكتب والمشاريع... كان كتابه الأوَّل «اشتراكيَّة الممكن» (١٩٧١)، نقطة تحوُّل للتخلُّص من التركة السلبيَّة التي التصقت بالحزب الاشتراكيّ أثناء قيادة كِي مُوليه المتورِّط في الهجوم على قناة السويس... وفي ١٩٧٢، نشر أرضيَّة «تغيير الحياة» المشتملة على نواةِ البرنامج المشترك مع الحزب الشيوعيّ؛ وفيها استعمل مصطلحات كثيرة، اقترضها من القاموس الماركسيّ ليجدِّد منهج التَّحليل عند الحزب الاشتراكيّ...

استغرقت الرِّحلة نحو الإمساك بالسُّلطة، عشر سنوات، أبدى ميتران خلالها كاريزماه القياديَّة وحنكته في المناورة والتفاوض، وبراغماتيَّة تسعفُ على تغيير المواقع. وعندما أُعلِنَ عن فوزه برئاسة الجمهورية في انتخابات ١٩٨١، توجَّه عبر التلفزيون إلى الشعب الفرنسيّ من قصر شيتون قائلًا:

«هذا الانتصار هو أوَّلًا انتصارٌ لِقُوى الشباب والقوى العاملة، وقوى الإبداع والتَّجديد التي جمَّعت صفوفها لتحقِّق انطلاقة وطنيَّة عارمة، من أجل التشغيل والسَّلام والحرِّيَّة، أي من أجل القيم التي كانت أساسَ حملتي الرِّئاسيَّة، والتي ستظلّ هي الأهداف المتوخَّاة طوال سنوات رئاستي...».

ما كان لمنير وكاترين أن يدركا، آنئذٍ، أسرار قيادة الحزب، ولا ما يدور في الكواليس، لأنَّهما كانا مناضلين حديثي العهد بالانخراط، وما كان يهمُّهما هو العمل لنشر المبادئ التي تدعم وحدة اليسار. كانا يعيشان في دوَّامةٍ من الاجتماعات والمجادلات واستقطاب الأساتذة والمحامين، والمشاركة في التجمُّعات والمهرجانات وعروض الأفلام والمسرحيَّات وحفلات الموسيقى، لجعل الفكر الاشتراكيّ حاضرًا في كلّ مكان، متابعًا لنبض الشارع، مُبشِّرًا بتطبيق اقتصاد مضادّ للاختيارات الليبراليَّة التي

عمل جيسكار دستان الرَّئيس السَّابق، على توطيد مسالكها.

كان قد مضى على زواجهما ستّ سنوات، عندما استلمَ ميتران الرِّئاسة.

حبّ وزواج، وانتصار سياسيّ للحزب الذي ينتميان إليه، وسعادة تغمرهما، لأنَّ الأفق انفسح وأبانَ عن ملامح أخرى. التناغم قائم بين الحميميّة والعمل وشلّة الأصدقاء واجتماعات الحزب... لم يكونا يُعيران أهمّيّة إلى ما يجري في المطبخ الحزبيّ وما يعجُّ به من مناورات وتحالفات. بالنسبة لهما، الأهمّ هو خدمة المبادئ التي سطَّرها البرنامج المشترك الذي أعادَ لليسار تأثيره، فأصبح رمزًا للقوى التي تحول دون صعود اليمين ودعاة العنصريّة. وحتى عندما تبلغهما أنباء عن خلافات مذهبيّة بين أجنحة الحزب أو مع حلفائه، لم يكونا يُعيرانها اهتمامًا، أو أنّهما يعتبرانها سحابة عابرة.

هكذا هو منطق العمل داخل الأحزاب: القيادة والأقربون إليها يمسكون بزمام الأمور، ومسافةٌ بينهم وبين عموم المناضلين تحجبُ ما يدور في المكاتب والبيوت المغلقة.. والجميع يحرص على خِطابٍ موحَّد حفاظًا على تماسك الصفوف. وحين يُبرهِنُ مناضل أو مناضلة على الفعاليّة والمرونة والطموح، تبادر القيادةُ إلى استقطابه لتستفيد من طاقته، وتعزِّز الخطّ الذي تدافع عنه... هي لعبة سارية دون أن تكون لها قوانين مُسطَّرة. وعندما يكتشف المناضل هذه اللُّعبة المستترة، يكون عليه أن يختار: إمَّا أن يقبلها ضمن منطق الاحتراف السياسيّ، أو أن ينعزل مكتفيًا بالدِّفاع عن المبادئ التي انخرط من أجلها في البدء، مدفوعًا بالحماس والرَّغبة في التغيير.

لكنَّ منير الآن مشدود كلّيّةً إلى النضال والتدريس؛ وكاترين أنهت التدريب وأصبحت محامية تشقُّ طريقها بنجاح؛ وقد قبلت أن تستجيب لرغبة زوجها في الإنجاب، فأهَلّ عليهما في ربيع ١٩٨٢ طفل بهيّ الطلعة أسمياهُ «بدر». مع بدر، تجدَّدت جوانب من حياتهما، واتَّفقا على أن يوفِّرا له تربية متسامحة، لا تفرض عليه قيودًا تعوق تفتُّحه أو تسجنه في دهاليز الموروث؛ خاصَّة في ما يتَّصل بالدِّين. سيشرحان له ما المسيحيّة وما الإسلام، ويتركان له حقّ اختيار أحد الدينين أو الاستغناء عنهما معًا، عندما يبلغ سنّ الرشد... كلّ شيء وجدا له ترتيبًا معقولًا، بحسب اجتهادهما،

والأبواب أضحت مشرَّعة أمام سعادة تنتظرهما.

تجري الأيَّام متواترة لا تخلو من مفاجآتٍ وانعراجات؛ وميتران على رأس الدولة أشبه بالحاوي الحاضن لألفِ رقيةٍ وخِطاب، مُحاطًا بكوكبةٍ من مفكّرين وفلاسفة لامعين في حقل الثقافة (ريجيس دوبريه، جاك أتالي، روبير بدانتير...) يُعيدون تأويل الماضي ويتنبأون بالمستقبل؛ وهو يُطلّ من خلف شاشة التلفزيون رصينًا، بليغًا، كأنَّه أخ أكبر يُسدي النصح ويستبدل العصا بالجزَرة. كلّ الأماني تبدو دانية القطوف، والناس استعادوا ثقتهم في الحزب الاشتراكيّ، الذي ينتسب هذه المرَّة إلى جوريس الشَجاع لا إلى كي موليه الانتهازيّ...

كانت المفاجأة الكبرى في ١٩٨٣، حين قرَّر ميتران وحكومته انعطافة ب ١٢٠ درجة، نحو سياسة اقتصاديَّة ليبراليَّة تستجيب لمُقتضيات السوق العالميَّة، وتفتح المجال أمام فرنسا للاستفادة من العولمة التي نشرت ألويتها في جميع بقاع الدُنيا، وأضحت شعارًا للرفاهِ وتطوير آليَّات البيع والشراء خارج الحدود. طبعًا، حمِيَ وطيس المناقشة والخصومات الجداليَّة، وارتفعت أصوات اشتراكيَّة ويساريَّة تندِّد بالانحراف عن البرنامج المشترك؛ لكنَّ «منطق الواقع» كان يسند التوجُّه الجديد، لأنَّ فرنسا كما قيل لبِنةٌ أساس في مشروع الاتِّحاد الأوروبي الطامح إلى منافسة الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، والمعسكر الاشتراكيّ في طريقه إلى الانهيار؛ والحفاظ على مستوى رفاهية العيش للفرنسيِّين يستدعي هذا الانعراج نحو «وسط اليسار» أو «الاجتماعيّ الديمقراطيّ» أو «اللّيبراليّ الاجتماعيّ»: ما أكثر التسميات التي تُخفي أكثر ممَّا تُوضح. وقد علَّق أحد الصحفيِّين الظرفاء، آنئذ، بأن جودة السياسة الاقتصاديَّة تقاس عند الفرنسيِّين بمدى محافظتها على مستوى الأطعمة وجودة الأنبذة والأجبان، وصوْن الطقوس الغذائيَّة المرافقة للأعياد والمناسبات الدينيَّة، خاصَّة عشاءات ليلة نُويل ورأس السنة...

ما يستوقفنا في هذا السِّياق، أنَّ هذه التجربة السياسيَّة بالنسبة لمنير وكاترين، جعلتهما يدركان أنَّ الانخراط في حزبٍ يمسك بالسُلطة ويحرص على معانقتها، ليس مثل الاندفاع المتحمِّس، المتفاعل مع ثورة طلَّابيَّة ذات أهدافٍ طوبوية بعيدة المنال، رغم ضرورتها لتعديل الاعوجاج.

ثمَّ علينا أن نستحضر أنَّهما أصبحا يعيشان مرحلة تشييد أسرةٍ وتربية طفل؛ وحياتهما الجديدة تقتضي الاحتكاك بالناس والتَّعرُّف على سلوكيَّاتٍ وطبائع كانت مجهولة لديهما، غائبة عن معترك خبرتهما...

ولندفع مجرى الخيال قليلًا، لننفذ إلى ما وراء الستار، فيبدو لنا أنَّ هناك درجات من التآكل تتسرَّب خلسة إلى ذخيرة الحماس والرفض والتفكير المثاليّ، وسرعان ما يستقرّ، بدل تلك الذخيرة، تآلفٌ مع الواقع، واستئناس بمنطق التنازلات المُبرَّرة. ربما، بعد مرور عقود على ما عشناه، ننتبه إلى الفخّ الذي استُدرجنا إليه، لكي نتخلَّى عن مُثلٍ ومقاييس نعتبرها ملتحمة بنموذج الحياة التي نحبُذها! حينئذٍ، يكون التآلفُ مع الواقع قد تغلغل في سلوكنا، وشعورنا بمسؤوليَّتنا في تغيير العالم خفَت وطأتُه وتحوَّلت إلى نظرة بعيدة المدى، تُفلسِف الوضعَ على هذا النحو: **«البركانُ الكامن في كلّ واحد منَّا، إذا لم يعرف طريقه إلى الانفجار الآن، فسيأتي جيل آخر يحقّق ذلك الانفجار؛ والأهمّ هو أن نحافظ على «الإنسانيّ» المُهدَّد في كلّ لحظة، وأن نفتح صدورنا لتلك الأصوات التي توقظ البركان الغافي بأعماقنا...»**.

قال راوي الرُّواة:

كانت خمس سنوات قد مرّت على عودة الاشتراكيّين إلى الحكم، حين التقى ألبير وصديقته ومعهما كوليت وعشيقها الهنديّ، على مائدة كاترين ومنير في بيتهما القريب من ضاحية باريسيَّة ، ليلة عيد الميلاد. شجرة بابا نويل تلمع أضواؤها الملوَّنة، والطفل بدر يجري من ركنٍ لآخر، مُعبّرًا عن فرحته بالزيارة المنتظرة لِمَن سيحمل الهدايا إلى مدفأة البيت. الزائرون يلاعبونه ويعاكسونه وهو مندفع في تعبيراته الفرحة، الممزوجة بكلمات عربية لقَّنها له أبوه، مُلتفتًا من حين لآخر إلى منير ليُشهدَه على صحَّة ما يقول...

منذ أكثر من سنتين، لم يلتقِ منير بألبير الذي انتقل إلى العمل في مرسيليا؛ إلَّا أنَّهما ظلَّا على اتِّصال يتبادلان الرَّسائل والمكالمات. فضَّل ألبير ألَّا ينخرط في هيئة سياسيَّة، لأنَّ لديه تحفُّظات على المنحى الذي آلت إليه الأوضاع بعد مايو ٦٨، ويخشى أن تتكشَّفَ الوعود عن إنجازات ضئيلة تُفيد الماسكين بالسُّلطة وحواريِّيهم، أكثر مِمَّا تعدل الفوارق والبنيات الليبراليَّة. ربما، تشبُّعُه بروح ثورة الطُّلَّاب وحنينه إلى عودتها هو ما جعله يبقى في الهامش مراقبًا، منتقدًا، مطالبًا بالطوبويّ المُتمنِّع عن التحقُّق؟

أمّا كوليت، فآثرت بعد أن انفضّت محافل الثورة وأحلام الشباب، أن تعود إلى الهند، منجذبة إلى إشعاع «مدينة الفجر» (**Auroville**) التي أنشأتها الفرنسيّة ميرا ألفاسا، رفيقة الفيلسوف الهنديّ سري أوروباندو، في ٢٨ فبراير ١٩٦٨. ميرا استوحت فلسفته الروحيّة التي ترى: «أنّ الإنسان كائن انتقاليّ، ويمكنه أن يكون المساعد الواعي في تطوُّره الخاصّ». وانطلاقًا من هذا التصوُّر العامّ، أنشأت هذه المدينة على بُعدِ عشرة كيلومترات من شمال مدينة بونديشيري، لتجعل منها فضاءً للعيش الجماعيّ، الكونيّ، حيث يتعلّم الرجال والنساء كيفَ يتعايشون في سلام وتناغم، بعيدًا من كلّ المعتقدات والقوميّات والآراء السياسيّة.

كانت أورفيل، تضيف كوليت، صحراء عند الانطلاق؛ ثمّ أصبحت، تدريجيًا، فضاءً للعيش المتحرِّر من القيود والالتزامات التي تفرض على الإنسان سلوكًا بائسًا. ما يُميِّز هذه المدينة حقًّا، هو أنّها أصبحت مكانًا غير قابل للاستلاب على وجهِ الأرض، لأنّ ملكيّتها لا تعود إلى دولة أو أمّةٍ بعينها؛ بل هي فضاء مَشاع، يستطيع داخلَه ذوو الإرادة الحسنة، الصادقون في نواياهم وآمالهم، أن يعيشوا أحرارًا بوصفهم «مُواطني العالم». في هذه المدينة التي تستقبل خمسين ألف مواطن عالميّ، ليس هناك تملُّكٌ للعقار، والقاطنون يسهمون في نفقات تعليم أبنائهم واقتناء حاجيّاتهم الخاصّة. وجميع السُّكان يتوزَّعون على وحداتٍ للعمل والإنتاج في مجال الزِّراعة والتربية والصِّحّة، والصِّناعة والمعلوماتيّة...

لكنّ ما هو ساحر في هذه المدينة، عيشٌ هنيّ يتقاسمُه العمل والإنتاج والإبداع، ويحظى فيه الحبُّ والعشق والمضاجعة بالنصيب الأوفر، لكي تحتفظ الحياةُ بنكهتها وتجدِّد معناها...

تتوقَّفُ كوليت قليلًا عن الحكي، ثمّ تستأنف: أورو فيل هي بحقّ مدينة الحلم. يعود فضلُ اكتشافي لها إلى صديقي وحبيبي «راجي» الذي أنار لي مسالك الهند المتشابكة، وأسرارها المتوارية. تنظر إليه وتقول: أليس كذلك أيُّها العشيق المُحنّك؟ هو يبتسم ويضمّ يديه ويرفعهما إلى مستوى صدره منحنيًا أمام أصدقاء كوليت. يلتفتُ إليها ليقبلها قبلة رشيقة، قبل أن يرفع كأسه في صحّة الجميع.

قال ألبير متنهِّدًا: عرفت كيف تهربين من أجواء الخيبة والتأقلُم مع الهزيمة. في الهند، هناك على الأقلّ من استطاع أن يجسِّد نموذجًا يمثُل

بعض ما كنّا نحلم به. أمّا نحن هنا، إمّا أن ننضمّ إلى المستفيدين من ثورة الطُلّاب، أو نظلّ على الهامش ننتقد ونصرخ حاملين يافطة الرّفض إلى يوم البعث! أليس كذلك يا صديقي منير؟

أحسّ منير ببعض الحرج، لكنّه ابتسم وهو يقول: لا أظنّ أنّ تجربة الاشتراكيّين في الحكم هي سيّئة بالمطلق. هناك منجزات وقرارات تمهّد الطريق لتغيير ما ورثته فرنسا عن حكم اليمين. هناك زيادة عشرة في المائة في الأجور الدُنيا، وإلغاء حكم الإعدام، وفرض ضرائب على أصحاب الثروات الضخمة، والبقية تأتي لاحقًا. رئيس الجمهوريّة الآن يصرفُ كلّ جهوده لدعم وتطوير مشروع الاتّحاد الأوروبيّ.

يهزّ ألبير رأسه متشكّكًا: لكنّ، كيف نفسّر هذا التحوُّل السّريع، المفاجئ، من أفق اقتصادٍ اشتراكيّ بحسب ما نصّ عليه البرنامج المشترك، إلى معانقة اقتصاد ليبراليّ يخضع لمُقتضيات السُوق الرأسماليّة؟ أين هو الفرق إذن بين يسارٍ ويمين؟ لا تنسَ يا عزيزي القناعَ الذي التجأ إليه ميتران ليصل إلى الرّئاسة التي أخطأ الطريق إليها طوال ما يفوق الثلاثين سنة. أظنّ أنّه ثعلبٌ مراوغ، ارتدى قِناع اليسار ليفوز بالمنصب الأعلى، وكأنّه اشتراكيّ أصيل نذرَ نفسه للدّفاع عن مبادئ هذا الاتّجاه منذ بدأ حياته السياسيّة...

تدور الكؤوس، ويتناوبُ الأصدقاء على الكلام والتّعليق، ثمّ يعود ألبير إلى مناوشة منير، مُذكّرًا إيّاه بأنّ ميتران هو الذي غيّر قانون الانتخابات ليُدخل فيه عنصر النسبيّة في التّصويت، ما أتاح للجبهة الوطنيّة اليمينيّة المتطرّفة أن تحظ رجلها في الرّكاب، وتنافس اليمين مفسحة الطريق أمام اليسار. مراوغة شيطانيّة، إلّا أنّها سمحت للجبهة أن تتوسّع وتفرض نفسها على السّاحة السياسيّة...

ليس هذا هو سبب صعودها، يردّ منير، بل ارتفاع نسبة البِطالة وتعثُّر الاتّحاد الأوروبيّ، وسلبيّات العولمة، واهتزاز الهُويّة بعد فشل اندماج المهاجرين الوافدين على فرنسا...

على رغم الاختلاف بين ألبير ومنير، فقد كانا يلتقيان في إعلاء المبادئ التي بصمَت صداقتهما التي وُلدت في حومة انتفاضة ١٩٦٨. ولا أحد منهما اليوم، يستطيع أن يُنكر أنّ مرور عشرين سنة على ميلاد تلك الأحلام قد أصابها بالتصدُّع والبَهَت، وأحالها إلى فقاقيع في الهواء.

سيكتب منير في مذكّراته ذلك المساء: **«منظر غيرُ مريح أن نرى المبادئ الجميلة، الواعدة، تشيخُ على وجوه الثائرين السائرين نحو الانهزام»**. وأضاف، كأنّما يريد أن يستخلص سببًا يكمن وراء هذا التآكُل الذي يصيب التنظيمات الثوريّة: **«في غمرة الفعل، جميع المناضلين يستشعرون طلائع الأخطار المنطوية على عواقب وخيمة وعلى بوادر الانزلاق إلى مهوى المساومة والتساهُل؛ لكنّهم لا يتحرّكون لوقف ذلك الميكروب المنذر بالانحراف والتفكّك. وعندما تتكشّف الأخطاء عن كارثة، ترتفع أصواتٌ لائمة، تنتقد التقاعس والتهاون وعدم التنبؤ بالشرّ المُستطير في الوقت المناسب...»**.

امتدّ جدالُ السُّهرة على إيقاع كؤوس النبيذ المعتّق، وقد شعشع مفعولها في الخدود، وسرى الحماس في الأوردة والصدور. والحُجَجُ تتوالى يتكسّر بعضها فوق بعض، متراوحة بين رؤيةٍ مثاليّة، طوبويّة، وأخرى تفسح المجال لمقتضيات الواقع وضغط الشُّروط العالميّة، وتجذُّر قوى رأس المال، وحِرص المحافظين على امتيازاتهم...

طوال السهرة، ظلت كوليت متألّقة بجمالها وبشَرتها الورديّة وعينيها الزرقاوين، لا تكفّ عن مناوشة ألبير، مُذكّرة إيّاه بأنّ خلوتها مفتوحة دائمًا في وجه الشباب والباحثين عن ملجأ يحميهم من الاستلاب والمتاجرين بالسياسة: «لا تنسَ أنّ الخلوة هي أيضًا لمَن خابت آمالهم ويريدون معاودة تجربة مايو ٦٨. والأفضل، تضيف كوليت، أن تلتحق بنا في أورو فيل، لتعيش متحرّرًا من كلّ القيود، ولتشمّ «رائحة الهند» مثلما استنشقها الشاعر، السيناريست بازوليني، الذي أقرّ بأنّه على رغم كون الهند جحيمًا من البؤس، فإنّ العيش فوق أرضها عجيب ومريح لأنّه خالٍ من الابتذال».

بين الهند وفرنسا تبدو المسافة طويلة، موغلة في البُعد. ومنير وكاترين ماضيان في رحلتهما نحو المعلوم والمجهول، وهما حاضنان طفلهما بدر الذي يستشرف عامه الخامس. ماضيان في رحلتهما، وقد بدآ يقتنعان أنّ اللّامُتوقّع جزء مُلازم لسيرورة الحياة.

قال راوي الرُّواة:

لم يكن منير متفرّغًا للنّضال السياسيّ فقط، بل كان هناك عمله كأستاذٍ للفلسفة في مدرسة إعداديّة بإحدى ضواحي باريس الشماليّة، وكان هو نافذته على معايشة الواقع الفرنسيّ النابت على أطراف المدينة،

والمكوَّن من فئات واسعة تعيش على هامش الطبقات الوسطى والبورجوازيَّة، داخل فضاء عمرانيّ أقرب ما يكون إلى الفضاء العشوائيّ. كلّ صباح، وهو في طريقه إلى اللّيسيه، يطالعُه ذلك المزيج من الإثنيَّات والبَشرات الملوَّنة والسحَنات التي تُحيلُ على إفريقيا وآسيا، والتي يختلط حوارها بلهجاتٍ ولغاتٍ مغايرة للفرنسيَّة المُقمَّطة في تراكيب وألفاظ مُعجميَّة. على امتداد المسافة، تتعالى أصواتُ الراكبين والراكبات في الحافلات، في كلام مسموع، دون تحرُّجٍ أو حرص على التكتُّم، كما هي العادة في حافلة أو مقصورة قطار يتواجد بها ركّابٌ من أرومةٍ فرنسيَّة تراعي الأصول... وكان تلامذته في المدرسة يُكوِّنون امتدادًا لتلك التشكيلة البشريَّة التي تسكن الضواحي. صار يميِّز، بسهولة، المغاربيِّين من الراكبين، ويلجأ إلى التخمين بالنسبة للأفارقة والأسيويِّين. إلّا أنّه سرعان ما تآلف، داخل الفصل، مع الأسماء والأقطار الأصليَّة للتّلاميذ الذين هم، جميعًا، يحملون الجنسيَّة الفرنسيَّة.

كان همّ منير الأوّل، هو أن يُلقّنهم التسامح في وصفه قيمة جوهريَّة تنسج التفاهم بين أبناء الجمهوريَّة، وتحقِّق التعايُش سويَّة، والقبول بالاختلاف... وفي الحصص المخصَّصة للفلسفة، كان كثيرًا ما يُعرِّج على تلك الكوكبة من القيم التي تفتخر بها فرنسا وتجعل منها مرجعيَّة مُؤسِّسة لكيان الجمهوريَّة، سليلة ثورة ١٧٨٩؛ لا فرنسا، التي امتدَّت إمبراطوريَّتها إلى ما وراء البحار، عن طريق قوَّة السّلاح والمال والتكنولوجيا...

كلّما توغَّل في التدريس، زاد شغفه بالحوار مع التلاميذ المتعطِّشين إلى استشراف ما يخبِّئه لهم المستقبل في وطنهم الجديد، الذي يعُجُّ بالصِّراعات النقابيَّة والسِّياسيَّة، ويزيد من تكشير أنيابه تجاه الوافدين الذين استوطنوا فرنسا بعد الحرب العالميَّة الثانية، وأسهموا في أعباء التصنيع والخدمات العامة، قبل أن يبدأ اليمين المتعصِّب برفضهم وتضييق الخناق عليهم. ما بين المراهقة وأوّل الشباب، تفاجئ علامات الإقصاء والتهميش هؤلاء التّلاميذ؛ إذ يلمسون أنّ وطنهم ليس مأواهم ومرتع أحلامهم، وتطلُّعهم إلى حياة مختلفة عن تلك التي خلَّفها آباؤهم في أوطان يحاصرها البؤس والاستبداد وسلبيَّات الاستعمار.

يستعين منير بكلّ قراءاته وإصراره، ليفتح نوافذ يُطلّ منها طلبته

على شساعة العالم وقيم الثقافة الأصلانيّة، التي ساهمت بها حضارات أخرى في تلقيح حضارة الغرب، عندما كان يغادر القرون الوسطى لينخرط في دورةٍ جديدة تراهن على العلم والتكنولوجيا الحديثين.

أحيانًا، لا تكفي حصص الفلسفة لاستيعاب الموضوع المطروح، فيستمرّ في ساحة المدرسة، أو يستدعي بعض الطلّاب إلى المقهى لمتابعة الحوار، أو ليستمع إليهم وهم يحكون له همومهم الصغيرة والكبيرة. كان بعضهم يحكي عن سطوة الأب الذي يرفض أن يتشبّهَ أبناؤه وبناته بالسُلوك الفرنسي المنفتح، الصريح، داخل الأسرة... وآخرون يستشيرونه في نزوات القلب، الذي يتعلّق بجميلات شقراوات فيما هُم سجناء اللّون الأسود والأسمر، أو الدّيانة المختلفة... ومنير لا يكفّ عن ترديد أنّ المعرفة وإرادة الشباب كفيلان بتحقيق أصعب الأماني، وأنّ العالم، الآن، سائر باتّجاهٍ غير مسبوق ليُبلور طرائق في العيش والعلاقات تسمح باستمراره من دون صدامات عنيفة؛ وهم، التّلاميذ المُتحدّرون من أصول أخرى، مطالبون بأن يراهنوا على الآتي، على اللّامُتوقّع...

لكنّه، عندما يخلو إلى نفسه في هَدأةِ اللّيل، يستعيد ما قاله لتلامذته الحائرين، فيُدرك أنّه كان مسرفًا في التفاؤل، إذ لم يأخذ في الاعتبار البُثورَ الكثيرة التي تعلو جسدَ فرنسا، وكأنّها نتوءات وحواجز تعرقل دواليب المجتمع وتمنعها من الدّورانِ المنتظم لتسقي بذورَ المبادئ الجمهوريّة، وتُوحّد المكوّنات المتباينة الأصل ضمن رؤية منسجمة داخل التنوُّع المُخصب.

هذه الهواجس، سرعان ما تأكّدت عندما شاهد فيلم «الكراهية» (**La haine**) سنة ١٩٩٥، للمخرج ماتيو كاسوفيتز (**Kassovitz**). أصابَه ما يشبه الهلع. شبّان يسكنون إحدى ضواحي باريس الصعبة، وتنتمي أصولهم إلى إفريقيا وبلدان المغرب وفرنسا أيضًا، وتجمعهم جنسيّة واحدة، ويؤلّف بينهم شعور جارف بالكراهية تجاه فئات المجتمع الغنيّة، الغاطسة في نعيم الرفاهية، المحميّة بالقانون والجيش والبوليس، ومؤسّسات تبرّر الفوارق وتُزكّي توزيع الأدوار بين من يحتلُّون قمّة الهرَم بفضل المال والتوريث غالبًا، وأولئك الذين هم في الأسفل وفق ناموس التراتبيّة والتهميش... الفيلم لا يؤرّخ لهذا التفاوت ولا يعلّل الأسباب، وإنّما يقتنص لحظةَ انفجارِ الكراهية الكامنة في أعماق شبّان الضواحي، الذين عاينوا أن

سبُل العمل والعيش والاستقرار مُغلقة في وجوههم، وأنَّ التخطيط ، منذ عقود، آلَ إلى أن يجعلهم ثمرة لذلك التهميش، الهادف إلى حماية المالكين للمال والسُلطة من «رعاع» الضواحي المهدِّدين لنمط العيش البورجوازيّ الذي يُباهي فرنسيُو الأرومة والمحتذ باستثنائيَته التاريخيَة، الجاذبة. فوجئ منير، وهو يرى على الشاشة، كيف تطوَّرت شرارة الكراهية والشُعور بالحرمان إلى عنف مباشر، جعل الشُبَّان الحاقدين يطلقون النار على رجال الأمن. في رمشة عين: انتقال من براءة الشباب إلى منطقة الشرّ والعدوان، وكأنَّهم يمارسون لعبة يتسلَّون بها. غير أنَّ فِعلَهُم يُعمِّد الكراهية بالدمَ، ويثير الانتباه إلى الشروخ العميقة المستوطنة في الجسد الفرنسيّ.

كان عرض فيلم «الكراهية» في دور السينما حدثًا اجتماعيًا وسياسيًا، فاغتنم منير الفرصة، ليجعله منطلقًا للحوار مع تلامذته؛ وكانت المفاجأة أنَّ أغلبيَتهم برَّرت عنفَ عصابة الضاحية، بل وكشفت عن كراهيةٍ مكبوتة تجاه أغنياء باريس المولَعين بسهرات الخلاعة وكرع الشامبانيا والتهام الكافيار... سرعان ما تلاشت من شفتي منير الكلمات التي تحاول التنبيه إلى أنَّ القانون هو السَّبيل إلى حلّ خلافات المجتمع، وأنَّ النضال السِّياسيّ السِّلميّ هو ما يقلِّص الفروق ويُلغي شطط ذوي الامتيازات. بدلًا من مقاطعتهم، أتاح لهم أن يعبُروا عمًا يختزنونه في الذاكرة والوجدان. حينئذٍ، أحسّ كأنَّما الكراهية تتحوَّل إلى قيمة تكتسب شرعيَتها من اختلالٍ ملموس في واقع الحياة. في الآن نفسه، أخذ يتساءل عن هشاشة الجهود التي يبذلها في دروسه لينقل إلى أبناء الضواحي المُهمَّشة معرفة «عقلانيَة»، تراهن على التَّغيير من خلال الحوار وإحياء قيم الحرِّيَة والعدالة والأخوَة. هو قريب منهم، أو يستطيع أن يزعم ذلك، إلَّا أنَّه لا يتعرَّض مباشرة لما يعيشونه يوميًا معزولين، مُبعدين عن سيرورة المستقبل الأفضل. يتفاجأ منير إذ يُدرك، في لمح البصر، أنَّ كلمة «مستقبل» لا تعني الشيء نفسه عند سكَّان الضواحي. ذلك أنَّ الأسوأ يعني أيضًا المستقبل عندهم.

بعد ليالٍ من التفكير، سيطر عليه الوهمُ بأنَّ التَّخييل في فيلم «الكراهية» يبدو أقوى من الواقع المعيش، لأنَّه يُلجِم لحظات الشعور المنفلت، المندفع، ليخلق منها واقعًا متكاملًا يُلغي ما عداه. استرسل في التأمُّل، فانتابَهُ إحساس بأنَّ ما عاشه طوال ما يقرب من خمسين سنة بفرنسا، يتخايَل له الآن، وكأنَّه مجموعة من الصُّور والمشاهد والتصريحات

والشُعارات ومانشيتات الصحف،تضافرت كلُّها لتنسج محكيّات تاريخيّة ومتخيّلة، تعوّض ذلك التاريخ الذي عاشه هو منذ منتصف القرن الماضي في فرنسا. يحس كلّما أراد أن يستعيد ما عاشه، أنّ عمليّة تعويض واستبدالٍ تفرض نفسها، لتفسح المجال أمام تلك المحكيّات التخييليّة التي سرعان ما تحتلّ الواجهة. فعلًا، مع الأيّام، يزداد اقتناعه أنّ كلّ شيء إنما نعيشه عبر التّخييل، على رغم أنّنا عشنا تلك الحقبة بشكلٍ مختلف، لأنّ المحكيّات المُركّبة، المنقّحة، هي التي تطغى أثناء التذكُّر.

ما الذي يتبقّى في ذاكرة منير من ولايتي فرانسوا ميتران اللتين امتدتا أربع عشرة سنة؟

هل هي تلك السّاعات التي كان منير يمضيها في مقرّ الحزب بشارع سولفيرينو، مدافعًا عن البرنامج المشترك، أو مُطالبًا بقرارات أكثر جرأة لتجسيد قيم اليسار؟

أم هي تلك الأيّام الكالحة التي كان يحس خلالها بالحَرَج، لأنّ الرّئيس الاشتراكيّ، المراوغ، فاجأ الجميع بانعراجات سريعة صوب سياسة ليبراليّة تغازل أرباب المصانع والمقاولات؟

الان، لم يعد يستقري ذاكرته وما اختزنه عن تلك الحقبة النضاليّة المفعمة بالآمال، لأنّ أفلامًا وثائقيّة كثيرة عن ميتران ظهرت كالفُطر على الشاشات الصغيرة، تروي وتؤلّف، من خلال التوضيب والصُّور وشهادات المحلّلين والأصدقاء والخصوم، مسارًا «مُكتملًا» عن حياة ومنجزات الرّئيس الغامض، الذي استطاع ، رغم اللّطخات التي تصِمُ مراحل حياته، أن يبدو في أعين الشعب والتاريخ رئيسًا مُحنّكًا، بارعًا في اتّخاذ القرارات الضروريّة، محافظًا على أبّهة المنصب وطقوس التفخيم... لذلك، عندما يتذكّر منير الآن، ميتران، فإنّه يستعيد صورته المركّبة من شهادة الآخرين الذين عرفوه منذ خطواته الأولى في حومة السياسة، ومن فضاء الأفلام الوثائقيّة التي تقدّم الرئيس عبر المواقف المتوازية وردود الفعل المتجاورة... ما يحيّزه أكثر هو كيف استطاع ميتران أن يحمي حياته الخاصّة اعتمادًا على المراوغة والكذب. حتى في علائقه مع النساء والعشيقات، استطاع أن يتذرّع بالكتمان، ما أتاح له أن يخفي وجود ابنته مازران، التي هي ثمرة حب سرّيّ مع امرأة جميلة اسمها آن أنجو، كانت محافظة متحف أورسي ومتخصّصة في فنّ النّحت خلال النصف الثاني

من القرن التاسع عشر؛ عاشرها اثنتين وثلاثين سنة، وظلّ يلتقيها ويراسلها إلى آخر أيّامه. بعد موته، نشرت رسائله ويوميّاته التي يبدو فيها ميتران عاشقًا رقيقًا، يعيش مأساة الحبّ المُعاق ويقبل ما في ذلك من تمزُّق... أمّا زوجته الرسميّة، دانييل، ذات الوجه القانت، الذي يجعلها كأنّها راهبة تطلّ على العالم من فوق، هي الأخرى دفعها سلوك زوجها فرانسوا إلى أن تغامر خارج نطاق الزوجيّة، وشاع الخبر، ما حدا بأحد الصحفيّين أن يسأل السيّد الرّئيس عن سلوك زوجته، فأجاب: «لا يمكنني أن أمنع عن زوجتي ما أبيحُه لنفسي»! جواب يؤكّد حرصَ ميتران على أن يسيطر على كلّ المواقف، وأن تكون له الكلمة الأخيرة في المسائل التي تثير الجِدال.

هناك، أيضًا، قضّته مع المرض وإخفاء خطورته على الرأي العامّ طوال سنوات، مخالفًا ما يقتضيه العرف من مصارحة المواطنين بوضعه الصحّي. وهو سلوك يكشف جوانب أخرى من شخصيّة ميتران المُعتدّ بنفسه، والذي لم يتردّد في أن يصرّح لأحد الصحفيّين: «سأكون آخر رئيس عظيم، وبعدي ستكون هناك أوروبا»!

شخصيّة ميتران مُتفرّدة في تاريخ فرنسا المعاصر، لأنّه يجمع صفات متناقضة، إلّا أنّ ذكاءه وثقافته وشخصيّته القويّة جعلت منه رئيسًا استثنائيًا حاز على شعبيّة واسعة. ولعلّ علاقته الغراميّة بالسيّدة آن، تكشف من خلال رسائله إليها ذلك الجانب الرُّومانسيّ المتخفّي عنده، والذي يضفي عليه الطابع الإنساني الغائب في حياته السياسيّة والرّئاسيّة.

هل يبقى، فعلًا، في ذاكرتنا جزء من التاريخ الذي عشناه؟ أم أنّ ما يبقى هو مزيج زئبقيّ يُشوّش الصُّورة المُصفّاة التي نختزنها منذ اللّحظات الأولى للقائنا بالأشياء؟

وماذا يتبقّى من علاقة منير بحبيبته وزوجته كاترين، التي قرّرت الانفصال عنه في مارس ١٩٩٨؟

عندما التقى بها في غمرة مظاهرات مايو ٦٨، كان بصدد البحث عن رفيقةٍ تُواكب رحلته على طريق الطموح الثوريّ، وتشاطره القيمَ التي ألهبت حماسه. وكانت تجربة الحبّ بينهما غير مُسيَّجةٍ بالتقاليد وطقوس العائلة، لأنّ فضاء خلوة كاترين أتاح لهما أن يُميّزا، عبر الممارسة، بين علاقات الشّهوة والنزوة وعلاقات الحبّ الباحث عن مصيرٍ ثنائيّ، يدعمه التواطؤ والرّغبة والمراهنة على بناء حياةٍ مشتركة، مفتوحة على

احتمالات استدامة المعاشرة. ثمَّ إنَّ حالة الحبّ لا يمكن أن توصف، لأنَّها داهمة كالعاصفة؛ يلتقي فيها هيجانُ الوجدان بعرامةِ الاشتهاء وبصيرةِ العقل...

ساعات طويلة أمضاها مع كاترين في الحديث والبوح. حكت له عن مدينة بوردو، مسقط رأسها، وعن أسرتها المحافظة، وتمرُّدها على قيم لم تعد تجد فيها ما يستجيب لتطلُّعاتها. لذلك، دبَّرت أمرها لتلتحق بباريس نِشدانًا لحياة مختلفة. لقاؤها مع منير شجَّعها على أن ترسم ملامح المستقبل الذي كانت تتطلَّع إليه.

نذرت كاترين وقتًا طويلًا، مثل زوجها، للعمل السياسي ومساندة الحزب الاشتراكي، إلَّا أنَّ مهنة المحاماة استأثرت بقسطٍ وافر من انشغالاتها. مع ولادة بدر، انصرف اهتمامها أكثر إلى مكتب المحاماة وتربية الطفل. غدت في سباق مع عقارب الساعة، لتجمع بين أعباء البيت والمكتب، وتتابع معارك السياسة وتشاهد الأفلام والمسرحيَّات، وتخصِّص وقتًا للقراءة... شيئًا فشيئًا، وجدت نفسها محشورة ضمن فئة الباريسيَّات اللَّائي يعشنَ وكأنَّهنَّ في سباق محموم، للملاءمة بين أعباء العمل وتدبير شؤون المنزل ومتابعة نشاط الثقافة والفنّ؛ وهو إيقاع في العيش يجعل أفق الانتظار ينفلت بالتدريج من أيدي وإرادة الطامحين والطامحات المنتمين إلى هذه الفئات السوبْر عصريَّة.

في أحيان كثيرة، وهي تدخِّن سيجارة وتشرب فنجان قهوة بمكتبها، يسرح خيالُ كاترين لتتصوَّر نمطًا مختلفًا من العيش، خاليًا من المواعيد المتتالية، ومن وطأة «التسريع» التي تفرض الجري الدائم والأنفاس اللَّاهثة قبل أن تحظى، في نهاية الأسبوع، بساعتين من الخلوة الحميمة مع منير المشدود بدوره إلى مكانيزم التَّسريع ومسابقة عقارب السَّاعة.

صحيح، أنَّ حياتهما الجديدة تنطوي على إشراقات ولحظات مضيئة تفيض بالغبطة والرضا عن النَّفس، لأنَّها ترسم أمامهما معنىً للحياة واحتمالاتِ لمستقبلٍ أفضل؛ إلَّا أنَّ كلّ ذلك يرتبط لديها ب «خسارة» ما، تستشعرها في منطقة العلاقة الحميمة مع الذَّات، ومع منير، بل ومع بدر الذي يخيَّل إليها أنَّه ينمو مُنفلتًا من رعايتها وحَدبِها : فهي، مثلًا، لا تستطيع أن «تؤرِّخ» للكلمات الجديدة التي يتعلَّمها، ولا للحركات التي

يؤكّد بها استقلاله عن الذين يحيطون به. ليس معنى ذلك أنّها تهمل بدر، وإنّما تحسّ أنّ إسهامها في تربيته يغدو، أكثر فأكثر، حصّة زمنيّة تقتطعها من أجندتها اليوميّة، المزدحمة، التي تُساوي بين الأوقات والالتزامات. كل عمل تقوم به يبدو متعلّقًا بفائدةٍ ما، ومن ثمّ افتقادها اللّحظاتِ المجّانيّة ذات النكهة المتفرّدة...

السّباق المحموم مع الوقت، والحرص على استيعاب الأحداث المتلاحقة، لم يُوقفا صيرورة الأشياء وتحوُّلاتها. استمرّ بدر في النموّ والإدراك، سواء في المدرسة أو من خلال ما كان أبوهُ يُلقّنه إيّاه وهو يعلّمه اللّغة العربيّة، ويحكي له، قبل النوم، مقتطفات من قصص ألف ليلة وليلة. العالم واسع، أوسع ممّا تظنّ يا بدر. والناس أشكال وألوان، وأنماطُ العيش متنوّعة والعلاقة بالزّمن لا تخضع دومًا لمقاييس العقل... ومُخيّلة بدر تتّسع وتتسرّب إليها عدوى الشرق الحالم، ولوثة الخيال الجامح الذي يزيد في حجم الأمكنة والأزمنة. ولم يكن حالة استثنائيّة، لأنّ زملاءه في المدرسة ينتمون، أغلبهم، إلى عائلات مختلطة وأصولٍ متباينة... منذ السّابعة من عمره، ظهرت النباهة والولعُ بالعوالم الغرائبيّة لدى بدر، الذي انجذب إلى قراءة القصص ومشاهدة الأفلام المتحرّكة. وكثيرًا ما كان يمزج كلامه بعبارات سرياليّة، ليعلّق على حدث أو يؤوّل ما يشاهده. وما تزال كاترين تذكر حواره مع فنّان تشكيلي كان يعرض لوحاته في قاعة بالمقاطعة السادسة، صحبته معها إلى المعرض، فاستهوته لوحة يبدو فيها رجل عريض الكتفين يحمل سمكة على كفّيهِ الممدودتين، وينظر إلى السّماء. سأل بدر الفنّان عن دلالة اللّوحة، فأجابه بأنّه يرسم وعلى المشاهدين أن يفسّروا إذا أرادوا. فقال بدر إنّ الرجل يحقّق حلمًا للسمكة، رأت فيه نفسها محمولة على يديْ رجلٍ يجوبُ بها الطرقات. وهل السّمك يحلم، سأله الرّسام. طبعًا يحلم ويتكلّم أيضًا، أجاب بدر. وأضاف، وهو ينظر إلى أمّه في زهوٍ: ألم تقرأ أيُّها الفنّان حكاية السمكة مع الصّياد في ألف ليلة وليلة؟

كاترين، هي الأخرى، كبُر حلمها واتّسع مجال عملها المهنيّ، فألحقَت بمكتبها متدرّبة شابّة، لويز، من جزيرة «لارينيون»، لها قوام كأنّه قصبة سُكّر من مسقط رأسها، وسُمرة أنضجتها شمس المحيط الهنديّ، وذكاء تنامى منذ هاجر والداها إلى باريس وهي في مطلع المراهقة. مُتوسّطة الطول، وقَصّة شعَرها الغُلاميّة تضفي حيويّة على حركاتها

وحضورها...والتفاهُم بينهما سهل رحراح، ولويز تجيدُ استقبال الزبائن، وتتقن كتابة المحاضر، ودعم المرافعات بالنُّصوص القانونيَّة المطلوبة...

فضلًا عن علاقة العمل، نشأت بينهما صداقة تلقائيَّة، فأصبحت لويز تتردَّد على البيت بانتظام وترافق أسرة كاترين، أحيانًا، لقضاء عطلة آخر الأسبوع؛ وبدر يستلطفها ويستزيدها من حكاياتها عن جزيرة لارينيون ومكنونات البحر، وغابات قصب السُّكر. كأنَّ مخيِّلة الأطفال خُلقت لتعيش سائحة في الأقاصي بين ربوع الطبيعة الملأى بالعجيب والغريب!

مثلما يحدث في الواقع وعلى صفحات الرِّوايات، فإنَّ لحظة التحوُّل في السُّلوك وردود الفعل والعلاقة بالآخرين، لا يمكن التنبؤ بها أو تفسير دوافعها: تأخذنا على غرَّةٍ فنستسلم للمفاجأة، ونبدأ البحث عن منشأ هذا التحوُّل، لكنَّنا نتآلفُ معه في الآن نفسه. وبين الإقدام والتردُّد، نفسح له مكانًا، ونحاول إقناعَ أنفسنا بصوابه.

هي لا تتذكَّر كيف تدحرجت علاقة العمل والصداقة مع لويز إلى منطقة الاستلطاف والتواطؤ، بل والافتتان. إذا ما غابت يومًا أو بضعة أيَّام، أحسَّت أنَّ شيئًا ينقصها. ووجدت نفسها تتحايلُ لتطيل مدَّة لقائهما خارج المكتب، أو في البيت، وتكثر من دعوتها إلى قاعات السينما بحضور منير أو في غيابه. لِنقُل إنَّ التجاذبَ بينهما اتَّخذ طابع الإدمان، وحديثهما غلبَ عليه استحضارُ الذات المتكلِّمة، فأصبح أقرب إلى البوح والتناجي، وكلّ منهما ممتلئة، مُنتشية بحضور الأخرى... طوال أكثر من سنة، اكتست علاقتهما صفة المعاملة الراقية التي ترفع الكلفة بين المحامية ومساعدتها: تعامُلٌ كالماء المنساب (**coule**)، بحسب التَّعبير الفرنسيّ الشائع. غير أنَّ تحوُّل المشاعر من مستوى إلى آخر، تمّ في لحظة لا أحد يستطيع تحديدها أو التنبؤ بها، كما سبق القول. وها إنَّ كاترين ومنير، الزوج المتحدِّر من انتفاضة مايو ٦٨، الذي يسعى إلى بناء حياة على غير منوال، والذي ربط مصيره بمسار اليسار الفرنسيّ العائد إلى الحكم بعد طولِ غياب، يجدان نفسيهما داخل شرنقة العواطف المعقَّدة، التي لا تخضع للتَّخطيط، ولا تنساقُ للإرادة.

في البدء، قالت كاترين في نفسها لتبرير انجذابها إلى لويز، إنَّ الأمر لا يعدو أن يكون نزوة عابرة. صحيح أنَّ مُساعِدتها تمتلك مقوِّمات جسديَّة وصفات خلقيَّة قادرة على استمالة الرجال والنساء على السَّواء، لكنَّ ذلك

لا يستدعي في نظرها الاحتراز أو الحدّ من الدفق الحميم بينهما... ثمَّ إنَّ كاترين انساقت مع ما تُمليه حرارة الدّماء في عروقها عندما تلتقيان: قبلة تحيَّة الصباح في المكتب، انتقلت من صفحة الخدَّين إلى الشفتين، ومن الملامسة الخفيفة للرِّدفين إلى الضغطة الملحاحة؛ وتبادُل امتداح الملابس امتدَ إلى المقارنة بين الألوان وتقاسيم الجسدين في غزَلٍ مكشوف؛ والضحكات تصاحب هذه المشاهد بينهما، مُولِّدة إحساسًا بالغبطة والاعتبار يُنسّيهما الضيق الناجم عن إيقاع الحياة السَّريع. كأنَّهما وجدتا في هذه العلاقة المُلتبسة، النابتة وسط الأجواء المُرهِقة، المُقبِضة، فسحةً للترويح عن النفس وانفِراجَة تُبدِّد الغمام المتكاثف. عدَّة أشهر مرَّت، والصديقتان عالقتان في دائرة هذا الالتباس الكهربائي المُولِّد للخشيةِ، والحامل في الآن نفسه لمُتعة غير مسبوقة، تُحاصرهما وتريد أن تعلن عن نفسها في واضحة الشمس والنهار...

أحسّ منير، فوق الفراش، أنَّ الكبحَ تسرَّب إلى جسد كاترين المندفع، المشتعل، عادةً، عبر اللَّمسات والقبلات الموقظة لمكامن الشهوة. كأنَّ قوَّة خفيَّة تُلجمه أو تُرحِّله إلى كعبةٍ أخرى! وعندما تكرَّرت التجربة المتعثِّرة أكثر من مرَّة، طرح السؤال المحرج، فجاءه جواب غير مُتوقَّع، يشير إلى أنَّ رصيد التشهِّي لديها، ذلك اللبيدو المحرِّك للاندفاع الجنسيّ في خلايا الجسد، قد انتقل إلى جسد آخر، أنثويّ، تُحسّ شرارتُه مشتعلة كلَّما لامَسته، ومسامُها تتفتَّح مطالبة بالاندماج والذَّوبان في الأنثى، التي أيقظت هذا الإحساس العارم الذي ظلَّ كامنًا، مراوغًا، متلبِّدًا في أعماقها...

لويز؟ وتوالت صور ومشاهد على مخيِّلته لا تخلو من إيحاءات ملتبسة، سجلتها ذاكرته من قبل، كانت مسرفة في الإفصاح والحنان والتولُّه بين لويز وكاترين. غير أنَّه كان يعزو ذلك إلى تحرُّر السُّلوك من الاحتشام المصطنع، عندما يتعلَّق الأمر بالتَّعبير عن الصداقة والعواطف، على نحو ما مارساهُ أيَّام تجربة خلوة كوليت...

مع ذلك، شعر منير بما يشبه الصدمة، لأنَّ الأمر لم يخطر على بالِه، ولأنَّه يمسّ منطقة حساسة، هي من الأعمدة الأساس في صرح حياته. كاترين، بالنسبة إليه، جزء لا يتجزَّأ من هذه المغامرة التي يخوضها في بلاد الأنوار؛ واكتمال الحميميَّة لا يُقاس إلَّا استنادًا إلى التلاحُم والانصهار في كلّ المجالات. والحبّ والتجاوب الجنسي في طليعة العناصر المضيئة

للرّحلة المشتركة بينهما. وابنهما بدر الذي أصبح رمزًا مشرقًا لمغامرتهما التي راهنت على تكسير الحواجز وبلورة قيمٍ تتعدّى الحدود والأحكام المُسبقة، هو الآن في عزّ المراهقة، وقد بدأ يستوعب انتماءه إلى أبٍ من بلادٍ يعرفها بالسماع والصُور، وأمٍ تُلقّنه لغتها، وتحدّثه عن أشياء وأناسٍ وعادات يراها ويُجاوِرها... هل كلّ هذا الصُرح أصبح في مهبّ الرّياح؟

ما يعتبره منير جوهريًا في تجربته هو ذلك التناغم بين مقوّمات الحياة الفرديّة والانتماء إلى المجتمع، وفق مبادئ ترسم أفق مستقبلٍ مُحتمل. وهو ما راهن عليه وحقّقه مع كاترين، استنادًا إلى المكاشفة والبوح الصريح. لماذا هذا التعثُّر، وأين يكمن الخطأ إذن؟

لا يتعلّق الأمر بخطأ، كما أخذ يظن في أوّل الأمر، بل بشيء يفوق الإرادة لم يُدخله في حُسبانه. وزلزال المفاجأة لا يسمح له بأن يستوعب الحدث ويحلّله. عليه أن يتريّث. أن يعيد التفكير في تفاصيل علاقتهما. أن ينتظر. فقد يكون التعثُّر نتيجة توهُّماتٍ استحوذت على خيال كاترين...

أكثر من أسبوع، والتوتُّر مخيّم على البيت؛ وغياب كاترين يطول في فترات المساء. ومنير يقلّب المفاجأة في دماغه ويحلّلها من جوانب متباعدة. يستنجد بمعلوماته في علم النّفس والفلسفة وما قرأه عن خفايا الجنس. هو يعرف أنّ المِثليّة ممارسة قائمة وسارية بين الناس منذ أقدم العصور، وحظيت بالاعتراف في حضارة اليونان القديمة، بل غدتْ جزءًا من السُّلوك البشري المرتبط بالغرائز والمشاعر المستعصية على التقنين والردع. وتحرير المرأة من سطوة الذكورة، في الأزمنة الحديثة، يمرّ عبر الإقرار بحرّيّتها الجنسيّة، وحقّها في التمرّد على وظيفة الإنجاب وتلبية شهوات الرجل... يعرف كلّ ذلك، ويعرف أنّ الاشتهاء الجنسي لا يخضع لتصنيفٍ أبديّ ثابت، إلّا أنّ رجّة الصدمة أفقدته السيطرة على أعصابه.

في ساعات الأرق الطويلة التي تستبدّ به، وهو وحده في غرفة النوم، كان منير يستسلم إلى هواجس واستيهامات شتّى، ويتساءل عن الموقف الذي عليه أن يتّخذه بعد أن طالبت كاترين بحقّها في أن تعاشر لويز وتحبّها جهارًا. يطول التفكير والأرق، وحين يغلبه النّعاس تكون ذاكرته تستعيد بكيفيّة مشوّشة عباراتٍ قرأها قديمًا في رواية مترجمة، على لسان مهندس طالبته زوجته بالطلاق: «الطلاق مستحيل بالنسبة لي؛ ما أزال أحبّها. لكنّني لا أستطيع تفسير ما أشعر به. أحسني مسحوقًا،

موزَّعًا بين ما لا أستطيع قبوله، وما عليّ أن أفعله. حينئذٍ أتحوَّل إلى غبار . نعم، غبار. هذه هي حالتي».

قال راوي الرُّواة:

لعلَّ منير يبالغ في التَّعبير عن حالته، من خلال العبارات التي اختزنتها ذاكرتُه من تلك الرِّواية المترجمة، لأنَّ شخصيَّته في ما نعلم وبحسب ما تلفَّظ به في مواقف أخرى، تتَّسمُ بالقوَّة والتَّصميم، وتسعفه على امتصاص الغضب والفوران أمام الأحداث الحرجة واللَّامتوقعة. غير أنَّه يجب القول بأنَّ طلاقه من كاترين، أو فراقهما لأجلٍ غير معلوم، ليس حدثًا عابرًا، بل رجَّة تُطاول أسسَ حياته، وتزعزع أيضًا مسار ابنه بدر الذي يدنو من سنّ الرشد.

بعد أسبوعين من المكاشفة، طلبت كاترين من منير أن يتناولا العشاء سويَّة في مطعم أثيرٍ لديهما، ليتحدَّثا عن «المستقبل»! كان هو قد استعاد هدوءه، واستكانَ إلى ما فاجأته به المقادير، وبات حريصًا على حلّ يحفظ الودَ ويُراعي مصلحة الابن المشترك... أمَّا هي، فمُتوجِّسة، ساهية، تحسّ أنَّ عقلها شبهُ محايد أمام تجربة تُمليها الأحشاءُ وكيمياء العواطف النابضة في نسوغٍ ملتهبة. هي لا تستطيع أن تُقوِّمَ فوضى العالم ذي المنطق النزواتي.

عشاء ونبيذ. حديث متقطِّع عن عهد الرئيس شيراك، الذي يواجه أوضاعًا تنذر بالانفجار، وعن بدر الذي اختار فرع العلوم لتحضير شهادة البكالوريا... كأنَّهما «الزَّوج» نفسه الذي عاش مواعيد عشاءات كثيرة في ظلّ الزَّوق والانسجام. عندما قاربت السهرة على الانتهاء، قالت كاترين إنَّها تريد أن تنتقل للعيش مع عشيقتها لويز، لكنَّها ستظلّ تتردَّد على البيت، وبدر يمكنه أن يعيش بين المنزلين، وستتكفَّل هي بأن تشرح له دواعي هذا التغيير... ارتاح منير لاقتراحها، ربَّما لأنَّ الصيغة لا تغلِق الباب بالضبّةِ والمفتاح، وإنَّما تتركها مُنفرِجة لتسهُل عودة المياه إلى مجاريها في حالِ تآكَلَ الحبُّ الجديد، أو إذا ما حنَّ جسدُها إلى مَن دشَّنت صُحبتَه مغامرةَ العواطف والإيروس.

قال في نفسه إنَّها طريقة حضاريَّة لمواجهة الخلافات؛ ثمَّ فكَّر قليلًا وتنبَّهَ إلى **«أنَّها تمارس حقَّها الطبيعي، صوابًا أو خطأ. لا أستطيع أن أفرض وصايتي عليها. أعرف أنَّها صادقة في عواطفها، وعليّ أن أحترم**

اختيارها. ليست هناك علاقة امتلاك بيننا؛ ومنذ البدء، كنّا نستظلّ بالخزْياتيّة ورحابة العواطف».

هو الآن، مع هدوء هواجسه وتقبّله لما اقترحته كاترين، يحسّ أنّه منسجم مع أفكاره وتصوُّراته لطبيعة العلائق المتحرِّرة من المواضعات والحسابات الأنانيّة. ومبادئه المجرَّدة تثبت أنّها قادرة على أن تتجسّد في السلوك. حينئذٍ، غمره ما يشبهُ شعورًا بالتفاؤل والرضا على مجاوزة الأزمة.

انصرفت كاترين إلى ترتيب حياتها مع لويز المحبوبة التي غيّرت مسار حياتها. ما يشغلها أكثر هو اختيار فضاء جديد في السكن، يستجيب لهذا المنعرج الذي يزحزح رؤيتها إلى مجرى الحياة اليوميّة. في البدء، قاسمت لويز شقّتها الصّغيرة التي لا تبعد كثيرًا عن حي مونبارناس، لكنّها سرعان ما سعت إلى الحصول على شقّة أرحب تتيح لها أن تستعمل الأثاث القديم الذي ورثته عن العائلة، وتفسح أيضًا مجالًا لعدد من اللّوحات التي اقتنتها ومُلصقات لمعارض رسّامين كبار زارتها، خاصّة ملصقات عن فان غوغ وبول غوغان وماتيس. وذهنها ينصرف الآن، بخاصّةٍ، إلى ملصق معرض غوغان الذي اختصّت لوحاته في رسم نساء تاهيتي. منذ شاهدت ذلك المعرض في أواسط ثمانينيّات القرن الماضي، وأجساد نساء تلك الجزيرة، كما رسمها غوغان، تسكن مخيّلتها: مساحات واسعة من الألوان الزاهية تغمر الأجساد ومناظر الطبيعة؛ والغريُ الورديّ يُعيد للنساء حضورهنّ في سماحةٍ وتناغم، وكأنّهنّ المخلوقات الوحيدات اللّائي أنجبتهنّ الطبيعة في ذلك الفضاء «التوحُّشيّ» الخالي من كلّ ما يشوّش على البصر وضوح الرؤية... منذ زارت معرض غوغان، وهي مشدودة إلى ذلك الانسجام المطلق بين نساء اللّوحات: الرجل غائب أو يكاد، وهُنّ جالسات أو ممدّدات فوق العشب في هناءةٍ واطمئنان، وكأنّهنّ يُجبن على السّؤال الذي طالما حيّرَ الرّسام: من نحنُ؟ **Que sommes-nous?**. يُخيّل إلى كاترين أنّ لوحات غوغان تجيب عن سؤاله: نحن من ضلع الأنثى خرجنا، لا من ضلع الرجل، ولذلك لا يكتمل الوجود من دون الأنثويّة التي تلوّن الدُّنيا وتضفي عليها الرّوق والرحابة وسيرورة الانبعاث. في حضرة تلك الألوان المشعّة، المتناسقة، نجد أنفسنا قد رحلنا إلى أصقاع نائية، مُضادّة للفضاء الرّماديّ الذي يقهر النّفس في باريس، كلّما غيّمت السّماء وخيّمَ الشّتاء. لذلك، تريد كاترين أن تأخذ لوحاتُها ومُلصقاتُها الحيّز الذي تستحقّه.

تغيّرت أشياء في حياة كلّ من كاترين ولويز. زادَ إقبالهما على العمل، واتّسع حجم قضايا الزبائن. ودخل مكتبهما في دوّامة التسابق المهني...اقترحت كاترين أن تكون عُطل الصيف في أقطار لم تزرها من قبل: «لارينيون» في الطليعة، إسبانيا، البرتغال ثمّ المغرب. وكان بدر يصحبهما في معظم الرّحلات. وقد بدأ ينسجمُ مع الوضع العائلي الجديد بعد محاورات عديدة مع الأب والأمّ، وأيضًا من خلال جولاته عبر الفايسبوك وصفحات الويب، وعبر الثقافة السريعة التي تُروّجها الميديا والتلفزيون... لم تعد هناك جدران وطقوس صفيقة تحولُ دون الشفافيّة في مجال الجنس والعواطف ومنعرجات العلائق البشريّة. وسِنهُ الفتيّة شجّعتهُ على فتح كلّ النوافذ لإرضاء الفضول، والتعلّم من خبرات الاخرين، وأيضًا من مغامراته الصغيرة مع تلميذات مراهقات، فتعطّشات إلى اكتساب الخبرة التي تُنمّي الثّقة في النفس والجسد. لا مناص من مرحلة التكوين هذه بالنسبة لبدر. وإذا كانت أمّه لا تفرض عليه الحوار في هذا الموضوع، بل تتركه يأتي عفويًا عندما يطرح بدر أسئلته، فإنّ الأب يحرص من حين لآخر، على استدراج ابنه إلى موضوعات لا تخلو من إحراج واستنطاق، كأنّما منير يستعجل نُضج بدر، ليبادله الرّأي في قضايا تشغله وتجعله يشعر بنوع من الوحدة، بعد أن تباعدَت كاترين عنه.

يقول راوي الرّواة:

لم نسأل منير إذا كان يحسّ بالوحدة بعد انفصاله عن كاترين. غير أنّه، في الظاهر، يبدو مشغولًا بأكثر من نشاط ولقاء، حريصًا على متابعة ما يجدّ من أحداث مجنونة تدفع العالم إلى النزول في سلالم جهنّم. وقد تكون بقيّة من خشاشةِ أملٍ هي ما يشحذ عناد منير، ويجعله يقاوم الفُسولة والخُبوطَ، ويتطلّع إلى استعادة بذور الفكر المقاوم ومبادئ السياسة التي لا تُتاجر بمصائر الناس...

ما أصبح يقضُّ مضجعه، وقد جاوز عتبة الخمسين من عمره، هو ربط علاقات جديدة مع النساء. في مثل هذه السنّ، وبِوضعٍ اجتماعيّ مُلتبس، لا يستطيع أن يُنشئ غشًّا يأوي عواطفه وغرائزه. في الآن نفسه، لا يمكنه أن يفطم الرّوح والجسد، بعد أن ابتعدت عنه كاترين. طبعًا، كانت له مغامرات كثيرة، وأجندتُه العزوبيّة ما تزال تحوي العديد من أرقام الهواتف والعناوين الإلكترونيّة؛ بل له مغازلات بريئة مع أستاذات ومناضلات التقاهُنّ في مجال العمل أو حومة السياسة، وكان الودّ معهن

يُشارف أحيانًا الغزل الصريح والتلميح بالرَّغبة؛ إلَّا أنّه كان يحسّ نفسه ممتلئًا، راضيًا بحياته الزوجيّة وانصرافه إلى التدريس والنضال... الآن، لا يستطيع أن يقاوم لهيبَ الاشتهاء، وقنوطَ الوحدة بالاعتزال والعزوف. من ثمَّ عودته التدريجيّة، المحدودة، إلى اللّقاءات الغراميّة العابرة.

غير أنّ لقاءه مع إيفلين السَّمراء، أستاذة اللُّغة الإنجليزيَّة، المطلَّقة، المُقبلة على الحياة بشراهةٍ واستخفاف، مَنحهُ نوعًا من الفسحة الظليلة، يستعيد في رحابها الشعور بالحيويّة والاستمتاع. كان التيّار الواصل بينهما لا يخلو من تعاطفٍ واستلطاف. وعندما أصبح طليقًا خارج أسوار الزواج، مثلها، زادَ التقارُب، وأفضى إلى علاقةٍ مفتوحة، خالية من أوهام التوطيدِ والاستدامة. كلٌّ منهما يحمل وحدته وجُرحه، ويجد في الآخر ملجأ يسعفه على مُكابدة اجترار تعثُّر الحب وغياب الاستقرار. هي، إيفلين، تجسّد عن حقّ، المرأة المتحرِّرة من الأوهام (**femme désabusée**)، التي فشلت في الزواج مرّتين، وأخذت تستحضر هذا الفشل عند كلّ مغامرة جديدة مع الرجال. شيء ما، تقول في نفسها، يُضيِّقُ مساحة المعاشرة التي تتمّ ضمن تعاقُدٍ يقترن بالإخلاص واحتمال التعايش ليل نهار مع آخر، رغم العواطف المتبادلة. لعلَّها زهرة بَرّيّة، لا تألف الخَجْز والخصخصة ومجاورة من تحبّ في ساعات الابتذال المكرورة! غير أنّ مزاجها المختلف لا يمنعها من توفير ساعات الخلوة والحب لجسدها الفوّار، المتناسق مع حجمها الممتلئ قليلًا، ومع عينيها العسليّتين الضاحكتين دومًا في حضرة اللّذة وعند تكسير الطّوق... معها، يستعيد منير، عبرَ ستائر الذاكرة، طيف «فطّومة» التي صاحبها أيّام مراهقته في «دبدو» مسقط الرأس. شيء في اللّون الأسمر وامتلاء الجسد الملفوف والعينين الضاحكتين، يربط إيفلين بفطّومة، ويجعل منير يتلمَّظ نكهة اللّوز المُقشّر الذي كان يتذوَّقه في دبدو صُحبة فطّومة. تلك النكهة الرَّاسخة في ذاكرته ما تزال، كانت تدفعه إلى تشبيهها مداعبًا، ب «اللّوزة المقشَّرة» التي تذوب ببطءٍ تحت الأضراس.. وحين يسأل إيفلين، وهما عاريان فوق الفراش، هل تسمح له بأن يأكلها ليستعيد طعم اللّوزة المقشّرة الملاحق له منذ أيّام مراهقته، تجيبه بأنّ ما يهمُّها هو أن تحسّ به داخلها ناعظًا، مُنتصبًا، قادرًا على إخراجها عن الطّوق لتتحرَّر من ثقلِ المحيط وعبء المواضعات... هذا الجانب، هو ما يشدّه أكثر إلى إيفلين: رفضُها اللُّطفَ المُتكلَّف، الباهت، المُخاطي، وصفاقتها المُستمدّة من دفق الحياة وتجليّاتها الملموسة. كأنَّما إدراكُها لِقِصر العمر وخواء السُّلوك

المغشوش، يجعلها تعلن رغبتها وأفكارها واشتهاءاتها من دون لفٍّ أو دوران.

معها، يشعر أنَّ تصوُّرها للحياة أبعد ما يكون عن التمويهِ؛ خاصَّةً في نظرتها إلى السِّياسة والسياسيِّين. لا تحتمي وراء مصطلحات فضفاضة، ولا تفترض حسنَ النيَّة عند المستحوذين على السُّلطة والمال. طالما فاجأته بطريقة تعبيرها المفاجئة، التي كان يجد فيها فظاظة وتسرُّعًا في الحكم، لكنَّه أخذ يدرك، مع المعاشرة، أنَّها تنطق عن تجربة وحدسٍ مكين. تلك حقيقتها: امرأة مزَت من مُعاناة قاسية في مضمار العواطف، فاختارت أن تواجه القساوة بردود فعلٍ، تراهن على تغليبِ كلّ ما يُعطي الأسبقيَّة للحياة ويلفظُ التستُّرَ وراء كلمات كبيرة فضفاضة. من ثمَّ تبدو صادمة في رؤيتها إلى الناس، وإلى القيَم الزئبقيَّة التي يتدثَّرون بها... وعندما كان منير يحكي لها عن تجربته السياسيَّة ومراهنته على فكر اليسار، كانت تصدمه بأجوبتها العارية من التحليل والتبرير. هي لا تطمئنّ إلى الصفوة الحاكمة التي تتوزَّع الكراسي وتتحايَل على الناخبين، ليظلّ أعضاء البرلمان والمجالس القرويَّة والبلديَّات شبه موظفين لا يُغيّرون إلَّا بعد أن يقعدهم الوهَنُ والشيخوخة. هي لم تكن من أقصى اليسار المُسرف في الطوبويَّة، وإنما تُحكِّمُ حسّ المُعاينة والمقارنة، رافضة الانخداعَ بالوعود العرقوبيَّة والمشاريع التي تظلّ حِبرًا على شفاه من أعلنوها . وكثيرًا ما كانت تردِّد على مسمعه أنَّ الديمقراطيَّة اهترأت، وأنَّ على الفرنسيِّين أن يصحِّحوا مسارها من خلال احتجاجات عفويَّة على الانحرافات والإهمال، ومن خلال جمعيَّات مدنيَّة تفضح الأخطاء بصوتٍ جهير.

يُميِّز منير بين تحليلاتِ صديقه ألبير المنغرسة في تُربةِ الانتقاد الجِذريّ الحالم بأن تكون السياسة مرآة لما يجب أن يكون، وبين ردود فعلِ إيفلين التلقائيَّة المنبعثة من تعلُّقٍ بالحياة في تجليَّاتها القوِّيَّة، الآنية، التي ترفضُ التيهانَ في دروب النظريَّات والافتراض. وهو يجد نفسه بينهما مُوزَّعًا، كما في حياته، بين الإصغاء لمنطق الحياة المباشر، وبين الموقف المتأنّي الذي يعتبر السياسة حقلًا للتغيير المُمتدّ في جذور الأفعال البشريَّة، والمُعرَّض دومًا للهدم والانصياع لغرائز التسلُّط ومنطق العنف...

استطابَ منير معاشرة إيفلين، على رغم تبايُن وجهة نظرهما في قضايا السياسة والتَّغيير. إلَّا أنَّ صيغة العلاقة المفتوحة بينهما هي التي

حازت رضاه. هي لا تتحرَّج من أن تعتذر عن لقائهما، إذا كان لها موعدٌ مع رجلٍ آخر. تقول له ببساطة إنَّ هناك شخصًا تريد أن تعرف، عن قُرب، ما يخبئه في جِرابه. تضحك في الهاتف، وتضيف بأنَّها تقصد الجِرابَ بمعناه الواسع، جسدًا وروحًا. وكثيرًا ما يكون الصَّيد الذي حال دون لقائهما موضوعًا للتحليل في اللِّقاء التَّالي... لديها شغفٌ متجدِّد بمعرفة الآخرين، وشهيَّة لا تنضب لاقتحام مظانّ الشهوة والمتعة. ذاك ما يُولد ديناميَّة متجدِّدة لمتابعة الرِّحلة، بحسب تعبيرها.

إذا غضضنا الطرف عن بعض التفاصيل، سنجد أنَّ منير كان مرتاحًا في هذه الصيغة التي اتَّخذتها علاقته بإيفلين: ليس هناك التزام مكتوب، وكلّ منهما مُطلق الحرِّيَّة في تصرُّفاته ومغامراته العاطفيَّة والجنسيَّة؛ والحوار بينهما لا يتدثَّر بالاعتبارات والمجاملات الرومانسيَّة، بل يجعل لحظات اللِّقاء والخلوة امتدادًا لسيرورة دُنيويَّة خاضعة للمفاجأة، وبذل الجهد لاكتساب أحلى وأجمل ما تنطوي عليه لقاءاتهما غير المُقترنة بتعاقُدٍ يحدِّد الحقوق والواجبات، ويجعل عبء التواصُل مثقلًا بتفاصيل لا مناص منها.

لا شيء مضمون في علاقته مع إيفلين، ولا شيء محظور. وهي صيغة مُتعبة بعض الشيء، لأنَّ عليه أن يظلّ متيقِّظًا، مراعيًا لمزاج عشيقته، حريصًا على الكلام الصَّريح التِّلقائي، وعلى بذلِ الجهد في كلّ لقاء، ليُقنعها بأنَّه راغب في أن يكون معها، مُقبلٌ على محاورتها، أبعد ما يكون عن حالةِ السأم واجترار الكلام البائت.

أكثر من ذلك، مغامرتُه مع إيفلين، بما هي عليه من التواءات وتعاريج وإثارةٍ مستدامة، أيقظت في أعماقه سؤالًا طالما قضَّ مضجعه: كيف يمكن للتمفصُل بين العاطفيّ والسياسيّ أن يكون عنصرًا مساندًا للرؤية إلى العالم، التي يُربِّيها ويحتضنها كلّ واحدٍ في مساره الحياتيّ؟

يقفز إلى ذهنه، الآن، هذا السُّؤال الذي كان يُلاحِقه بكيفيَّةٍ مُبهمة، وهو يُدشِّنُ حياته في بلاد الأنوار، مزهُوًّا بميعةِ الصبا ومُتهيِّبًا ممَّا يُخبِّئه الغيب. كانت تجربته في خلوة كوليت، ثمَّ مع كاترين، عنصرًا راجحًا باتِّجاه اختيار الزواج من إنسانةٍ تُشاطره حساسيَّة السياسة وتطلُّعاته إلى صورة المستقبل. بعد ثلاثٍ وعشرين سنة من الزواج، وهو يدلفُ الآن إلى سنّ الثالثة والخمسين، يكتشف بالملموس وجهًا آخر مُحتملًا لتمَفصُلِ

العاطفيّ بالسياسيّ، من خلال مُصاحبته لإيفلين. الجنس والعاطفة لهما منطق مُغايِر، لا يمكن إخضاعُه للتنسيق مع مجالات أخرى؟ من قبل، كان الجنس بخاصّةٍ، مُغيَّبًا بسبب ثقل المواضعات الاجتماعيّة؛ وظلّ إلى أمدٍ قريب موضوعًا للقمع أو التجاهُل والكبْت. رغم ذلك، يظلّ حاضرًا بقوّةٍ في كلّ سلوكٍ ومغامرة؛ وعلى مُنير أن يُراجع ما كان يعتقد أنّه الصيغة المتحرِّرة، الفُضلى، في تحقيق التوازن بين الذاتيّ والغيريّ.

ما أدركه منير، في ما يُشبهُ الوَمض المُضيء، أنّ الاهتزاز الذي عاشه منذ معاشرته إيفلين، لا يقتصر على مفهومه للجنس والحبّ، بل يشمل أيضًا تصوُّراته ورهاناته السياسيّة. صحيح، أنّ تكوينه الفلسفيّ جعله ينأى عن التقوقع داخل أنساق فكريّة ومذهبيّة يعانقُها كالصليب، وجعله يأخذ دومًا في الاعتبار تحوُّلات الواقع، التي لا تخضع للرَّغبات والاختيارات الإراديّة بقدرِ ما تستجيب لجدليّةٍ تسري بين عناصر مُركّبة لا غِلابَ لها...ومن ثمّ ميلُه إلى أنّ معنى اليسار هو الإصغاء باستمرار إلى تلك الجدليّة الكامنة وراء تشكُّلِ البنيات ووراءَ تمثيلاتها الذهنيّة والنظريّة. ويُدرك، في الآن نفسه، أنّ هذا الفهم لا يصلح لأن يبني دعائم اتِّجاهٍ سياسيّ مُعارض، له مصداقيّة على المدى البعيد، خاصّة منذ تسعينيّات القرن الماضي، التي أغرقت العالم في بُحور لا ساحل لها من المخترعات والتقنيّات والبضائع المغرية بالاستهلاك المحموم...

يُدرك كلّ ذلك، إلّا أنّه يُغمض عينيه متغاضيًا أمام تناقضاتٍ صارخة، تجعل الوصول إلى «الحقيقة» في منطقة المعدوم. وذاكرتُه لا تنسى حوارًا صاخبًا مع أستاذ زميلٍ له، كان يقول إنّ على من يريد أن يكون مثقّفًا أن يستكمل تكوينه الفلسفيّ والتاريخيّ قبل أن يمارس العمل السياسيّ بوصفه مثقّفًا، وذلك لكي لا يضِلّ السبيل إلى الحقيقة... وهو، منير، يرى في ذلك تعجيزًا وتعطيلًا عن الفعل، لأنّ الحقيقة نسبيّة وتُكتسَبُ أساسًا من خلال الممارسة؛ والأخطاء التي تُرافق مسارنا هي جزء من معرفة الحقيقة المُعقّدة بطبيعتها...

لكنّه، على رغم التأمُّل والتفلسُف، لا ينتهي إلى محطة تُريح البالَ وتُوقِفُ سيل التوجُّسات القلقة. ما دام الأمر مُتّصلًا بسيرورة تاريخيّة، فإنّه لا يملك يقينًا ولا تحليلًا يطمئنّ إليه. والتاريخ ليس مثل العلوم الطبيعيّة والفيزياء، لأنّ «قوانينه» خاضعة أيضًا لأهواءِ الأفراد وجِيناتهم المُتباينة؛

ومن ثمّ انطواءُ التاريخ على المفاجآت واللّامتوقّع. لا أحد يستطيع أن يحدّد مسبقًا حبكته وعُقدة أحداثه المتوالية، الزئبقيّة، ذات المنطق المتناقض غالبًا مع افتراضاتنا.

قال راوي الرُّواة:

مع إهلالِ الألفيّة الثالثة، كان اليمين قد استقرّ من جديد في دواليب الحكم برئاسة جاك شيراك، الذي أمضى أكثر من نصف عمره لاهِثًا وراء المنصب الأعلى. له شعبيّة حين يذهب إلى «حمّامات الجماهير» موزّعًا ابتساماته وقبلاته، إلّا أنّه لا يتميّز بذكاء ميتران وقدرته على اتّخاذ القرارات الجريئة. كان المؤمّل أن يعود اليسار إلى سدّة الحكم في انتخابات ٢٠٠٠ على يد ليونيل جوسبان، الذي أظهر الكفاءة والنزاهة أثناء تولّيه رئاسة الحكومة خلال فترة التعايش بين اليمين واليسار، إلّا أنّه أخفقَ نتيجة انقسام اليسار الذي رشّح منافسين آخرين، وأيضًا لأنّ جوسبان لم يُجِد تدبير حملته الانتخابيّة، فتخلّف عن الدورة الثانية، وخلّفَهُ زعيم أقصى اليمين في جولة الحسم مع شيراك. عندئذٍ، لجأ جوسبان إلى سلوك الشهامة وفُروسيّةِ الخاسِر، فاستقال من ممارسة السياسة، واعتزل في بيته مُنكبًا على قراءة كتب التاريخ ومراقبة ما يجري في ساحة فرنسا وأقطار العالم. ليس سهلًا على المرء أن يتحوّل من رئيس جمهوريّة محتمَل إلى مجرّد مواطن، يمشي في الأسواق ويتابع من الهامش ما يفعله آخرون أقلّ منه كفاءة. لكنّه فاجأ القرّاء في سنة ٢٠١٤ بإصدار كتاب عنوانه «**Le mal napoléonien**» (الشرّ النابوليونيّ)، ينتقد فيه تجربة نابليون بونابرت الذي لم يحترم ثورة ١٧٨٩، واستَهوَتهُ الشهرة والسُلطة، فمضى إلى تأسيس أمبراطوريّة شاسعة، معتمدًا الغزوَ والعنف، وكأنّه امتداد لروبسبيير الذي حوّلَ الثورة إلى مذابح وإعدامات. كأنّ روبسبيير بُعِثَ في جسد نابليون راكبًا حِصانًا. وحين استفسرَهُ أحدُ الصحفيّين عمّا إذا كان كتابُه صكّ اتّهامٍ ضدّ نابليون، أجاب جوسبان بأنّ ما قصده هو تبديد الأوهام التاريخيّة، التي تُحوّلُ الأفعال الشرّيرة إلى بطولات... على هذا النحو، خسرت فرنسا رئيس جمهوريّة نزيهًا، وكسبت مؤرّخًا «مُناضلًا» يدافع عن الديمقراطيّة وينتقد الشعبويّة التي ركِبَ موجتَها بونابرت، وما تزال علاماتها قائمة، متنامية، لدى بعض السياسيّين الفرنسيّين المعاصرين...

في انتخابات ٢٠٠٧ الرّئاسيّة، نجح نيكولا ساركوزي ذو المِزاج الحادّ

والطبع المتوثِّب، الذي هو دائمًا في عجَلةٍ من أمره. وهو رئيس، لم يتورَّع عن أن يتبادل الشتائم علنًا مع مواطن انتقده أمام الملأ أثناء جولاته التفقُّديَّة.. ساركو، كما تسمِّيه الصحافة، جعل من مشاكله الزوجيَّة جزءًا من نشاطه السياسيّ ومنجزاته الباهِرة. غادرتهُ زوجته سيسيليا التي كان قد اختطفها من مُقدِّم برنامج تلفزيونيّ للأطفال، فاستنجد بصديق يخالط الأوساط الباريسيَّة المرموقة، ليعثر له على زوجة أخرى تسند ظهره خلال رئاسته للجمهوريَّة، فجاءت الشبكة بالمغنِّية الإيطاليَّة الفرنسيَّة كارلا بروني، التي كانت لها غزوات عاطفيَّة ومغامرات في رفع السيقان بين صفوف المثقَّفين والسياسيِّين الذين تعرَّفت عليهم خلال إقامتها الطويلة في فرنسا.. لم ينجح ساركو في انتخابات الرئاسة الثانية، لأنَّ الرأي العامّ وجدَ وعوده أكثر من إنجازاته، ووقاحته تتحدَّى منطق القوانين والأناة في مواجهة المشاكل. ولعلَّ مغازلته المكشوفة لأصحاب المال والتحقيقات القضائيَّة معه، هي من أسباب عدم تجديد انتخابه. لذلك، عقد العزم على أن يترشَّح في الانتخابات القادمة، مردِّدًا بأنَّ التجربة علَّمته الرزانة وضبط النَّفس، والتأنِّي عند اتِّخاذ القرار... ومَن يدري؟ فقد تنطلي وعوده الجديدة على الناخبين المدمنين للوعود الكاذبة؟

أما فارس الاشتراكيَّة، فرانسوا هولاند، الذي فاز في رئاسيات ٢٠١٢، فقد استفاد من أخطاء ساركو، واهتدى إلى خطاب مراوغ، مليء بالوعود، متزلِّفًا إلى الشباب، لكنَّه أثناء الممارسة بدا رخوًا، متردِّدًا في اتِّخاذ القرارات، مُتلهِّيًا بعلاقةٍ غراميَّة مع ممثِّلة جميلة، ما أثار حفيظة رفيقته في قصر الإليزيه، فسارعت إلى قطع العلاقة، وبادرت إلى نشر كتاب عن أيَّامها مع الرئيس «العادي»، جانية مبالغ تعوِّضها عن مزايا معايشة الرئيس الذي استمرَّ في علاقة غير رسميَّة مع الممثِّلة، التي تنتظر أن يحزم أمره ويُعطي صيغة لمستقبل علاقتهما. ولا شك أنَّ انتظارها سيطول، ولعلَّه يتَّخذ قرارًا بعد فشله في جولة رئاسة ٢٠١٧، فيختار البقاء في أحضانها، بعد أن يفقد دفء قصر الإليزيه!

مُختصر القول، يضيف راوي الرواة (وهذه معلومة نقدِّمها مجانًا لِهُواةِ التنبؤات) أنَّ فرنسا تعيش الآن وإلى يوم الانتخابات القادمة في ٢٠١٧، حلقة من مسلسل روائيّ، ينبني على مفاجآت مخالفة لما يبدو هو المنطق المسايِر لما تتطلَّبه أوضاع فرنسا وتطوُّرات العالم الخارجيّ. لا اليسار قادر على لمّ الشمل والاتِّفاق على برنامج يتدارك أخطاء الرَّئيس

العادي، ولا اليمين يقدّم تصوُّراتٍ تُخرج البلاد من البلبلة وتبعدها عن هوجة أقصى اليمين، التي تنبّئ بنتائج تهدّد ما تبقّى من توجُّهاتٍ ديمقراطيّة تنعش الأمل في الخروج من الكبوة. وأجواء الإرهاب المتصاعد، المستميت، تُمعِن في إذكاء الخوف والقلق وفُقدان البوصلة...

والأستاذ منير، كيف يُجذِّف وسط تلك الأعاصير المتلاعبة بمَركَبِه؟

يقول راوي الرُّواة:

منذ عودة اليمين إلى الحكم في سنة ٢٠٠٧، تقلَّص اهتمام منير بالنَّشاط السياسيّ، خاصَّة بعد أن تعالى اللَّغط، وتشعَّبت التَّحليلات والمجادلات في صفوف اليسار، وانبرى متطرّفون يدعون إلى جذريَّة أكثر. لكنَّ الخطاب الاقتصاديّ سرعان ما احتلّ الواجهة، ونشطت المناورات البرلمانيّة والحكوميّة، وانصرف المواطنون إلى متابعة المعارك الكلاميّة، وعزَّز أقصى اليمين مواقعه واندمج منتخبوه في المشهد الديمقراطيّ، وتعاظم الإقبالُ على سهرات الفكاهيّين، السَّاخرين، الذين وجدوا في شخص الرَّئيس وأعضاء الحكومة مادَّة خصبة للاستهزاء والضحك عليهم وعلى ذقونِ المتفرّجين... في ساعات الخلوة والتذكُّر، أصبح منير مولعًا بأن يستعرض ما عاشه منذ وصوله إلى فرنسا، من خلال أحداث وأسماء شخصيّات ومواقف كان لها صدًى في الحياة العامَّة. وكان يقفز على تفاصيل الوقائع والمشاهد والمغامرات، كأنَّما يريد أن يُمسك دفعة واحدة بتلك الخمسين سنة التي انقضت سريعًا، عبرَ صورةٍ تجريديَّة تجسّدها تواريخ وأسماءُ تمتُّ إلى التاريخ العامّ لا إلى تاريخه الخاصّ.

إلَّا أنَّ لقاءاته مع إيفلين أعادته بقوَّة إلى ما يشبه معانقة لحظاتٍ مِن كينونته المنسيَّة. بدأ يتذكَّر ما قاله أحد الفلاسفة عن ضرورة «الانفتاح على الكينونة»، والخروج من «الموجود» الذي يكلّس حياتنا. وفي غمرة التأمُّل واستعادة المسار عبر الطفولة والمراهقة واندفاعاتِ الشباب، تنبَّهَ إلى سهوهِ الطويل عن ثقافته الأولى العربيَّة التي وضَعَها على الرَّف منذ تعرَّف على لغة فولتير وآفاقها المُشرَّعة. لكنَّ أسئلة ابنه عن وطنِ الأجداد وتراثهم، أشعَرتهُ بأنَّ عليه أن يتابع التغيُّرات الحاصلة في الوطن الأمّ، والأفكار التي تروِّجُ بين الأجيال المختلفة التي تواجه أسئلة الحداثة في عالم سريع التحوُّل...عندئذٍ، بدأ يقرأ بالعربيَّة، وزار عدَّة أقطار في المشرق، والتقى رجالًا ونساء من أعمار مختلفة، وغاصَ في إشكاليَّةٍ لها جذور في تاريخه الشخصيّ وتاريخ التّربةِ التي استقبَل النور في أرجائها. العالمُ،

حقًّا، أوسَعُ من أن تلخّصه ثورة أو مذهبٌ فكريّ. قد تختلف التفاصيل وسيرورة الصراع، لكنَّ غُيومَ الشكّ واللّايَقين والعنف المُغلَّف بأكثر من قناع، تشملُ الناس في كلّ مكان، وتجعلهم مُوزَّعين بين متطلّعين إلى رفاهيةٍ أكثر، ومُوغلين في بؤسٍ لا اسم يصِفُه.

قد يكون هنا مصدرُ نزوع منير إلى التجريد للإمساكِ بمختلف الخيوطِ التي تخترق العالمَ من حوله، لأنَّ تفاصيل اللّوحة المتشابكة المليئة بالتضاريس، تُفلِتُ من بين أصابعه الدلالة الزئبقيّة التي تَوالدت في ذهنه وذاكرته، طَوالَ العقود التي عاشها هناك في دبدو وبعض المدن المجاورة، وهنا في باريس، وفضاءات أسفاره الكثيرة في أوروبا والمشرق العربيّ... وهو يستعيدُ مسارَه، يتبيَّنُ أنَّ فترة التزامه في صفوف اليسار الفرنسيّ وحماسه للتَّغيير الذي رافق تلك التجربة، هو ما جعله يغضُّ الطرف، أو بالأحرى، يتناسى جذوره الأولى وما يحيطُ بها من شروط مُغايرةٍ لمجتمع فرنسا، الذي اختار الانتماء إليه والنضال على أرضه، متوهِّمًا أنّه بذلك سيُغيّر كلّ العالم، وسيشارك في نشر المبادئ التي ملأت عقله وفؤاده منذ مطلع الشباب...

في محاولته القبضَ على مجموع ما عاشه طوالَ عقود، وما أصبح عليه المجتمع الفرنسيّ وأحوال الدُّنيا الملتهبَة، يُغمِض عينيه ويُفرغ رأسه من كلّ الأصوات، تمامًا كما تفعل إيفلين بعد انتهائهما من رحلة المضاجعة: تُغمِضُ عينيها وتحيط صدرها بذراعيها، ولا تنبسُ بِبنتِ شفَّة لفترة غير قصيرة. وعندما تفتح عينيها، ويسألها عن هذه السهوَة، تجيب بأنّها كانت تُعيد ترتيبَ العالم وترتيبَ الأفكار والأحداث في ذاكرتها، لتتمكّنَ من استئناف معايشة الواقع. الهَوَس نفسه يُلاحقه، خاصَّة بعد أن أدلجَ في التقاعد. ياه! كلّ تلك السّنوات، وكلّ تلك الأحداث والتقلُّبات والمراهنات، ومع ذلك يحسّ كأنّه أصبح قصبة جوفاء، إذ لا يكاد يُمسك شيئًا ملموسًا منبثقًا من رحلة العمر!

شعور بالخواء. غزوف عن لقاء الناس وعن نشاطاته المألوفة. تساؤلات غامضة تناوِشُه باستمرار... لعلَّ ذلك ما دفعه إلى السَّفر إلى دبدو مسقط الرأس، بعد تقاعده؟ وكانت زيارة ضاعفت من بلبَلته، وضاعفت الأسئلة والحيرة. حين عاد من تلك السفرة، ظلّ أيّامًا ملازمًا البيت، دائم التفكير في مسقط الرأس الذي أيقظ ذكريات الطفولة العذبة، والحنين إلى

الأم والأب المُقترنين عنده بالمحبّة والصفاء والطيبوبة المتناهية، والبلدة التي انطوت على نفسها وحافظت على بساطة العيش، وكأنّها خارج الكوكب الأرضي الصاخب... وسؤال يحاصره في كلّ حين: ماذا لو أنّه عاد إلى بلاده بعد أن أحرز على شهادته الجامعيّة؟ ألم يكن الخوف من زمن الرصاص وراء هروبه إلى الأمام، واختيار فرنسا فضاء للنضال بدلًا من المغرب؟

لا يستطيع أن يحسم. دائمًا، يتبدّى له تعلُّقُه بمبادئ الأنوار والقيم الكونيّة أوسع وأشمل وأقرب إلى نفسه. لم يكن يحسّ أنّه تخلّى عن واجبه وهو يعيش في فرنسا. إلّا أنّ السؤال الذي طرحه عليه ابنه بدر، بعد زيارته للمغرب صحبة أمّه، أثارَ قلقه بقوّة. سأله بدر: وجدتُ نفسي قريبًا من أقراني في المغرب، رغم أنّني وُلدتُ في باريس. ألا تظنّ أنّ وجودك هناك كان سيكون أكثر جدوى وانسجامًا مع المبادئ التي ربّيتني عليها؟

ردّ منير متحدّيًا ابنه: وهل تستطيع أنت العيشَ في المغرب؟ أنا مستعدّ أن أصاحبك في رحلتك هذه المرّة!

فوجئ بدر بسؤال أبيه، إلّا أنّه أجاب، بعد صمت قليل، بأنّه لن يستطيع العيش هناك، لأنّ المناخ الاجتماعي أوحى له بنوع من الاختناق، وهو ما يجعل من الصعب على من تربّى في أجواء التحرُّر والاعتراف بالفرد، أن يتلاءمَ معه. وأضاف بأنّ مردّ هذا الشعور يعود، ربّما، إلى طغيان الطابع الجماعي الذي لا يكاد يترك فسحة كافية ليُمارس الناس انطلاقهم ونزواتهم في واضحة النهار. أضاف، بعد صمت قصير، بأنّ ذلك هو ما يرغم الشبّان والشابّات المغاربة على ازدواجيّة السُلوك والتّظاهر بما هم ليسوا مُقتنعين به. لكنّني، ختَمَ جوابه، بعد زيارتي للمغرب أحسّ أنّه أضحى جزءًا من اهتماماتي وأسئلتي.

منذ أنهَى بدر دراسته الجامعيّة، وبدأ يشتغل بإحدى الشركات، وبعد زيارته للمغرب صحبة أمّه، اتّخذت علاقته مع أبيه وجهةً مختلفة لا تخلو من جِدّة ومماحكة، جعلت منير يشعر كأنّما بدر يُلقي عليه تبِعَة المسارِ الهجين لحياته، خاصّة بعد أن أذكت اعتداءاتُ الأصوليّين وتفجيراتُهم جذوة الارتياب والشكّ تجاه من ينحدرون من أصول دينيّة إسلاميّة. وكان لِرواج مصطلح «كراهية الإسلام» في الصحافة ووسائط الإعلام وفي المعاملات اليوميّة تأثير على الرفع من درجة التوتُّر لدى مواطنين ينتمون

جميعًا إلى فرنسا. وبدأ بدر يحسّ أنّ سلوك زملائه في العمل اتّجه إلى نوع من الحذر والتحفُّظ، على رغم أنّهم يعرفون أنّ أمّه فرنسيّة، وأنّه لا يحرص على إعلان انتمائه إلى أيّ دين.

توتُّر علاقة بدر بأبيه، جعلت هذا الأخير يُدرك أنّ مرحلة التقاعد، التي كان يتخايلها فترة استرخاء وتأمُّل وتفكير في تجربة النضال والتدريس، ما هي إلّا قفص من راحةٍ مغشوشة، لأنّ أسئلة بدر أعادتهُ إلى البدايات، إلى حياته الحميمة وإلى علاقته بالمجتمع والغير. حاول أن يستنجد بصديقه ألبير، إلّا أنّ هذا الأخير أوضح له أنّه قرّر ألّا يُنجب، ما دامت شروط المجتمع لا تضمن لذريّته أن تعيش في عدالة ومساواة. وعبء الأبناء، أضاف ألبير، قد يضطرّه إلى التنازل عن مواقفه السياسيّة الجذريّة؛ ولذلك، قرّر ألّا يُنجب وأن يعيش حياته العاطفيّة والجنسيّة موزّعًا بين العشيقات البوهيميّات والمطلّقات والمتزوّجات المغامرات...

لا مناص، إذن، من أن يواجه منير مسؤوليّة اختياراته بمفرده. وكان أوّل ما فعله كتابة رسالة طويلة إلى بدر، نقتطف منها ما قد يكشف ملامح من مسار حياته:

« عزيزي بدر

الآن، وقد أصبحتَ في عزّ الشباب، واعيًا بمُشكلات العالم، باحثًا عن طريق يُضفي المعنى على حياتك ويهبك سعادة يطمح إليها كلّ شخص، أودّ أن أعود إلى تبرير التربية التي رافقت نموّك، وكانت باتّفاق كامل مع أمّك كاترين. لم نرغمك على اختيار دين وأنتَ في مطلع حياتك، وحرصنا على أن نجعلك تنفتح على المجتمع الذي وُلدتَ فيه، لكي لا تحسّ بالغربة أو التباعد عن عاداته وقِيَمه. والتعليم كان حجر الأساس في توجيهك، وهو ما دفعني إلى تشجيعك على الاهتمام بالثقافة العربيّة، التي أنارت لي مسالك فكريّة في مسيرتي. ومن غير مجاملة، أقول لك لقد كنتَ تربة خصبة لما زرعناه فيك من توجُّهات، تتطلّع إلى تحرير الفرد وربطه بأفق مجتمعيّ يُعزّز رهانًا تاريخيًا أفضل. وقد كان موقفك من افتراقنا، أنا وأمّك، مُدركًا لتعقيدات الحياة الزوجيّة، مع أنّك لم تكن قد جاوزت الخامسة عشرة من عمرك.

« لكن، دعني أبدأ من آخر محاورة بيننا، حين قلت لي إنّك لا تفهم التقديس الذي أوليهِ لفكر الأنوار في أوروبا وثورة ١٧٨٩ في

فرنسا، والجري وراء إعادة تجسيدها داخل سياق لم يعد ينتمي إلى تلك الحقبة السهلة قياسًا إلى ما يعيشه عالم اليوم من أزمات معقَّدة... أنا أتفهَّم انتقادك، لأنَّك تعيش قريبًا من واقع الحال بفرنسا، وتعاين المشكلات المتناسلة، وتسجِّل التغيُّرات التي طرأت على السُّلوكات، حيث سادت الأنانيَّة الفردانيَّة والارتياب في العلائق والإعراض عن السياسة... وكلّ هذا أبعدُ ما يكون عن روح الأنوار.

«لكنَّني أنظر إلى المشكلة من زاوية أوسع، لها امتداد في الماضي والحاضر، لذلك أريد أن أعرض عليك وجهة نظري باختصار، لكي يأخذ حوارُنا مجرًى واضحًا.

«تعلمُ أنَّ القرن الثامن عشر شهِدَ صعودَ طبقة جديدة، هي البورجوازيَّة التي استفادت من تطوُّر العلوم والزِّراعة والتجارة، وأنجبت فلاسفة رسموا ملامح مستقبلِ البحبوحة والرفاهِ وتحرير الفكر والجسد من وطأة المعتقدات الدينيَّة الخادمة لمصالح الملوك والنبلاء وطبقة الأرستقراطيَّة. لم تعد نخبُ القرن الثامن عشر تطيق لعبة الملوك «اللويسيِّين» المتعاقبين على العرش، والمُستظلين ببذخِ قصر فرساي وبالزوجات والعشيقات الفاتنات، وبِحفلات الرقص والمسرح في لامبالاةٍ بما يعانيه الفلاحون وعامَّة الشعب بعيدًا من العاصمة... وفي غفلةٍ من الملوك وحاشياتهم وجيوشهم وقُوَّادهم، تسلَّلت قيَمُ الأنوار التي طرحها الفلاسفة والكُتَّاب إلى عقول وأفئدة شباب هذه الطبقة الجديدة، الطموحة، فأشعلت نيرانَ ثورة ١٧٨٩، حاملةً معها أحلامًا طوبويَّة وعُنفًا ثوريًّا متجدِّدًا، وتشريعات جمهوريَّة غير مسبوقة، تُقِرّ حقوق الإنسان وتحمي حرِّيَّة الفكر والاعتقاد، وتُنصِّبُ المواطن عنصرًا أساسيًّا في تدبير شؤون المجتمع. لم يكن إقرارُ مثل هذه القيم التي هي بمثابة حُلم إنسانيّ أمرًا سهلًا. وهذا ما جعل الصراعات تمتد ناشرةً الرعبَ ومُمهِّدة الطريق أمام أمبراطور مزهُوٍّ بما حقَّقه من فتوحات في المشرق، وبخاصَّة في مصر.

«عاشت فرنسا من مطلع القرن التاسع عشر إلى نهايته تقريبًا، تجربة المراوحة بين الثورة والأمبراطوريَّة، بين قيَم الحرِّيَّة وسلطة دكتاتورٍ أوهَمَ فرنسا أنَّها الأقوى والأعظم بين جيرانها. منذ ذاك، وأفكار التَّنوير والتَّغيير تعيش بين مدّ وجزر: من الملَكيَّة إلى الجمهوريَّة ثمَّ إلى

الملكيّة من جديد، ثمّ إلى ثورة الكومونات (مارس ١٨٧١)، ثمّ عودة النظام الجمهوريّ البرلمانيّ الذي سيتعزّز بالمصادقة على تشريع اللائكيّة في ١٩٠٥، وانطلاق مرحلةٍ جديدة من الصراع، هذه المرّة، بين بورجوازيّة شرِهَة وطبقة العمّال التي تعاني من استغلال قوى الرأسمال المتصاعدة...

«لكنّ مبادئ ثورة ١٧٨٩ ظلّت باستمرار عُرضة للهجوم والانتكاس، خاصّة في ثلاثينيّات القرن الماضي، إذ على رغم تأسيس الجبهة الشعبيّة سنة ١٩٣٦ بقيادة ليون بلوم لحماية تلك القيم، فإنّ المَدّ النازيّ في ألمانيا تعاظمَ وخرج من جحره ليكتسح ما بناه عصر الأنوار في أوروبا.

«لا مناصَ، عزيزي بدر، من أن أستعرض معك جميع المِحن والاختبارات التي تعرّضت لها مبادئ المراهنة على مجتمع إنسانيّ يكون سيّدَ نفسه فوق الأرض. وإذا كنتُ قد أكثرتُ من الحديث عن ثورة الطلاب في ١٩٦٨، فلأنّني أعتبرها حلقة ضمن حلقات التّصحيح، وإعادة النّظر في التّصوُّر السياسيّ الهادف إلى تحرير الفرد وتحصين المجتمع ضدّ الوحشيّة والتسلُّط والعنف. لقد عشتُ تجربة مايو ٦٨، بعد وصولي إلى فرنسا، بوصفها رفضًا للانحراف، وإعلانًا عن ضرورة البحث عن إمكاناتٍ مُضادّة للرأسماليّة الجشعة التي بدأت تستوطن فرنسا بسرعة متناهية. وكان الشعور السائد عند زملائي الطلّاب، أنّ هناك نيّة لتصفية مبادئ ثورة ١٧٨٩، التي تعرّضت للانتهاك على يد النازيّة والفاشيّة، وأنّ سياسة اليمين ستؤدّي إلى حزفِ السيرورة التاريخيّة التنويريّة، وستفتح الطريق أمام العنصريّة واللاساميّة ورفض الآخر... من ثمّ برزت ضرورة استكمال التحرُّر من خلال المناقشة الحرّة، بعيدًا عن سطوةِ الإيديولوجيّات التي كانت تحجب الرؤية الواضحة عن عيون المواطنين.

«من حقّك أن تتشكّك أنت أيضًا، عزيزي بدر، في قدرة فكر الأنوار على مواجهة الزوبعة الراهنة التي تجتاح أوروبا، بل العالم كلّه. ويغدو الشك مبرّرًا، عندما نواجهُ الماضي بأسئلة المستقبل: ما الذي يستطيع ذلك الفكر التنويريّ، الذي ينتمي إلى ماضٍ مزدهر، أن يفعله الآن في مواجهة أعاصير المستقبل العنيفة؟

«ليس لي جواب حاسم على مثل هذا التساؤل؛ لكنَّني أظلّ مقتنعًا أنَّ هناك، داخل الإنسان، ما يجعله قادرًا على مجاوزة الأخطاء والتعثُّرات. لذلك أغبطك على أنَّك ما تزال في مطلع العمر، أي في بداية تجربة الوجود الكثيفة، الممتدة، التي ستمنحك حبّ الحياة بما هي عليه من وضاءةٍ وتعتيم، وستحثُّكَ على تقويم الانحراف ونِشدان الأفضل...»

كان منير يكتب الرسالة، ويده تتلكّأ، والكلمات لا تكاد تقترب من مقاصده، لأنَّ وضع العالم المتدهور، الغارق في العنف والأزمات والإرهاب بكلّ أشكاله، باتَ مُمعنًا في الالتباس وانسداد الآفاق لدرجةٍ تبدو فيها الكلمات أشبهَ بالصدى الباهت لِما أصبح عليه واقع الحال الكابوسيّ. دخيلةُ نفسهِ تمُورُ، وخوف مُلفَّعٌ بتساؤلات لا تنتهي، وكأنَّ مسار حياته أشرفَ على نهايةٍ فاجعة... يُضاعِفُ توتُّرَه أنَّ تعلُّقه ببذر، القائم على اعتبارهِ امتدادًا للقيم التي راهَنَ عليها منذ شبابه الباكر، قد أضحى مُعرَّضًا لِسوءِ تفاهُمٍ، لا يكفّ عن التزايُد كلّما تواترت اعتداءات الإرهابيّين المجنونة.

قال راوي الرُّواة:

طوالَ سنوات، توقَّف منير عن ممارسة نشاطه السياسيّ, بعد مجيء ساركوزي إلى الحُكم، واستمرار الاشتراكيّين في مُعارضةٍ رخوَة، إن لم نقل مُهادنة. غير أنَّ مجموعات من شباب الحزب بدأت تتجمَّع حول فرانسوا هولاند, الذي اكتسب الخبرة خلال تحمُّله مسؤوليّة الكاتب العامّ، واستطاع أن يقترح أطروحات «معقولة» استعدادًا للانتخابات الرئاسيّة لسنة ٢٠١٢، فاجتذب إليه فئة واسعة من المناضلين الحريصين على أن يعيدوا للحزب الاشتراكيّ ول «شعب اليسار» الألق المتلاشي...

بعد أن تقاعَد منير عن التدريس سنة ٢٠١١، قرَّر استئناف نشاطه في الحزب, لأنَّ الوقوف على الهامش لن يؤدّي إلى شيء، ولأنَّ اختيار هولاند لمواجهة ساركوزي استجاب لما كان يتطلَّع إليه من تقويم الأوضاع. وكانت مفاجأة فوز هولاند باعثًا على تجديد الأمل لدى منير, الذي زاد اقتناعُه بأنَّ السياسة واجِهةٌ شاسعة تحتاج دومًا إلى حضور إيجابيّ، منتظم، لا يكُفّ عن توجيه الضربات للخصم المُستشري مثل الإخطبوط، إذ لا أحد يعرف مسبقًا الضَّربةَ القاضية.

عاد الاشتراكيُّون إلى الحكم؛ ولم تنقض بضعة أشهرٍ، حتى بدأت

التواءاتٌ وتعرُّجات يقودها رئيس الأوركسترا فرانسوا ببراعةٍ فائقة في المراوغة والتسويف. لكنْ، علينا أن نشير أيضًا إلى الانقسامات العديدة داخل الحزب الاشتراكيّ وفي صفوف اليساريّين وأنصار البيئة، فضلًا عن كوارث الطبيعة، واتِّساع الإرهاب الإسلامويّ ضمن إستراتيجيَّة تتوخّى التَّرويع وبثّ الفُرقة والتباغُض. كلّ ذلك، جعل الدولة والحكومة تتراجعان إلى موقع الدفاع عن مبادئ الجمهوريَّة، والتمَتْرُس وراء شعارات وإجراءات الأمن والأمان. أمّا الآمال المعقودة على النموّ الاقتصاديّ ومحاربة البِطالة، فقد تبخَّرت أو تكاد. والرأي العامّ في حيرةٍ وضياع أمام ما يلغط به اليمين واليسار وأقصى اليمين، من خطابات وتصريحات لا تنطوي على معالم تنير طريق الاطمئنان.

ما زاد من قلق منير وتخوُّفاته، أنَّ صفوة المثقَّفين في فرنسا أضحت هي بدورها، فاقدة البوصلة، إذ خلَت الساحة من أصواتِ فلاسفة ومفكِّرين يجيدون التَّحليل والتَّأويل، ويجهرون بالنقد الجريء... بدلًا من ذلك، انتشرت ظاهرةُ مفكِّري الشاشة الصَّغيرة، يُطلُّون على الجمهور ليُصدروا أحكامًا تعميميَّة، ويتناولوا جميع الموضوعات بدون استثناء، ويُردِّدوا آراء مُبتسَرَة واستشهادات مفصولة عن سياقها لفلاسفة كبار عاشوا في زمن مُغاير لهذا الزمان الكابوسيّ. وسرعان ما نشبت المعارك داخل الحقل الثقافيّ، وتكوَّنت الأحلاف، وبدأت الاتِّهامات بخيانة المثقَّفين، وسادَ رأيُ من قالوا، من داخل فرنسا وخارجها، إنَّ أحفاد عصر الأنوار يعيشون مرحلة كسوفٍ تجعلهم غير قادرين على تخطّي الخرائب التي أحاطت بالثقافة الفرنسيَّة، منذ غياب فلاسفتها الفُرسان ومثقَّفيها الكُلّيِّين...

قال راوي الرُّواة:

طبعًا، بالنسبة لمنير، أزمة الثقافة تكتسي أهمِّيَّة قصوى، لأنَّه كما حكينا من قبل راهن لتشييد مستقبله، على اختيار العناصر الديناميَّة الكونيَّة التي بلورها عصرُ الأنوار، وارتبط تاريخ فرنسا بالدِّفاع عنها وتجديدها. وهو، عن إيمان واقتناع، انخرط ضمن قوى يساريَّة مؤهَّلة لأن تحمي تلك القيم، وتضفي عليها صفة التفاعل والاستمرار. لذلك، أحسّ بنفسه كئيبًا، فاقِد البوصلة، كما يتَّضح لنا من بعض ما كتبه في يوميَّاته:

«٥ يناير ٢٠١٣

كلّ هذا العُمر، كلّ هذه السنوات، وأنا لا أملك بعدُ حقيقة أفعالي. أفعال تصدر عنّي وأنا لا أتحكّم في مرماها، ولا أعرف مصَبّها. طوال حياتي، راهنتُ على قيَم إنسانيّة تحمل الخلاصَ بحسبِ ظنّي، لكنّها تكشّفت عن خدعةٍ وأواليّاتٍ تفوق إرادتي. كنتُ أخوض صراعًا من أجل الأفضل، إلّا أنّني وجدتني على الرّصيف وحيدًا، شبهَ ملفوظ. هل تلك الأفعال والمواقف التي دافعتُ عنها، وأقنعتُ نفسي أنّني أعيش من أجلها، إنما كانت صراعًا مغلوطًا قادتني إلى عكس ما ظننتُ أنّه كان يخدمها؟

لم أكن وحدي. وإذن، هل هو غولُ الاستلاب الذي يمدّ زَعانِفَه ومِجسّاته، ليُحكِمَ الخناق ويعوق التغيير ويطمس عيونَ الملايين؟ أم هو الوحش السّاكن بالأعماق يطفو بانتظام، ليُذكّرنا أنّ قوى الشرّ لها عيونٌ لا تنام، قادرة دومًا على تفريخ الكوابيس السّوداء؟

ماذا أصنع بحياتي الآن؟

ماذا أصنع بها، وأنا لم أعد أراهِنُ على فجرٍ أو قِيامة؟

هل أحلّلها في كوبِ حليبٍ ساخن وأشربها في هذا الشتاء البارد، الحامل مزيدًا من الضباب والزُّكام؟ هل أنشرها فوق سبّورةٍ سوداء، ثمّ أمحوها بِخِرقة قماش بالية، علّها تُمحَى أيضًا من ذاكرتي وتغوص في أصقاع النسيان؟...».

إلّا أنّ مثل هذه النغمة الرّماديّة في يوميّات منير لم تكن متواتِرة، عاكسةً لِيأسٍ نهائيّ. هي بمثابة تعبير عن «اختفاء» قصدي يلجأ إليه، ليضعَ مسافة بينه وبين العالم الخارجي، تتيح له أن يتأمّل في مسارِه ويُراجع أحلامه وتطلُّعاته. خلال فترات اختفائه تلك، يُحسّ بنوع من العذاب، لأنّ الانقطاع عن لقاء الناس في مناسبات اجتماعيّة أو سياسيّة كان يُشعرُه بوحدة عازلة، لا يستطيع احتمالها أمدًا طويلًا. لم يكن يحتمل الانقطاع عن التردُّد إلى مطعمه المفضّل في حيّ مونبارناس، أو التوقُّف عن ارتياد ذلك المقهى المكسوَّة جدرانُه بالمرايا، حيث تتلألأ وجوه نساء ورجال من الروّاد، وتلعلعُ أصواتهم وضحكاتهم. وحدها لقاءاته الغراميّة مع إيفلين كانت تعيده إلى الحَلَبة، تُخرجه من «اختفائه»، وتشدّ حِبالَه إلى فضاءِ تجلّيّاتِ الحياة اليوميّة العادية ذات النكهة اللّاتُعوّض. عندئذٍ، يعود إلى قراءة الصحف والاستماع إلى الراديو، ويعود إلى التردُّد على مقهى

المرايا، ليسرحَ عبر وجوه الزبائن ناسجًا علائق وقصصًا محتملة تربط بعضهم ببعض. وإذا كان الوقت صيفًا، يحلو لَهُ أن يتطلَّع من شرفة شقَّته إلى السَّماء اللَّيليَّة ليَعُدَ النجوم، مُترصِّدًا نيزكًا يهوي من بناتِ نعش الصغرى، ليُتمتِمَ بأمنيةٍ يتمنَّى تحقُّقَها...

المراوحة بين العيش في «وضوح» أو في «اختفاء»، التي يلجأ إليها منير كلَّما اشتدت وطأة القلق وثقُلَ حملُ الكابوس، اتَّخذت لديه طابَع الجدليَّة المبهمة بين كينونةِ الذَّات وتلك الغيريَّة المتناسخة الألوان. ومع الأيَّام، عظُمَ اقتناعُه بأن لا فكاكَ بين قُطبَي المُراوحة هذه: بين ذاتٍ قلِقة وغيريَّة تكتسي ألفَ لبُوس.

قال راوي الرُّواة:

منذ وُلوجِه إلى التقاعد، تنبَّه منير إلى أنَّ محاولة فهم السياسة وممارستها اعتمادًا على تحليل الأحداث والمواقف الآنية، أو استنادًا إلى خلفيَّة إيديولوجيَّة وسوسيولوجيَّة تنتمي إلى عقودٍ مضت، لا تستطيع أن تفتح أمامه آفاقًا أوسع للفهم والتأويل. مِن ثمَّ الحاجة إلى فكرٍ يتجدَّد أيضًا من خلال المقولات الفلسفيَّة المتباعدة عن طزاجة الأحداث وسخونتها. لذلك، أقبل على توسيع قراءاته في المجال الذي يتناول الحاضر استنادًا إلى أنساق فكريَّة تتيح التباعُد المطلوبَ، وتجرؤ في الآن نفسه على أن تجهَر بما تعتبره «انحرافًا» أو خللًا في سيرورة الدِّفاع عن القيم الإنسانيَّة... انكبَّ على كُتب جديدة، وأخرى أثبتت بُعدَ نظر مؤلِّفيها.

توقَّف كثيرًا عند دراسةٍ كتبها الفيلسوف الأميركيّ رشارد رورتي في مجلة «ديوجين» (١٩٩٦) ، يُجيب فيها على سؤال: مَن نحن؟ أوضح رورتي، من خلال أمثلة تاريخيَّة وتحليلات سوسيولوجيَّة، أنَّ الإجابة على هذا السؤال تحتِّمُ الأخذ في الاعتبار «قانون الفَرز» الكامن وراء جميع القرارات السياسيَّة والمؤسَّساتيَّة في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة. وهذا الفرز (**le tri**) المفروض، المُطبَق عن قصدٍ، يؤدِّي إلى تفاوت دائم بين الطبقات والفئات، ويُزعزع اعتقادنا في قيَمٍ إنسانيَّة كونيَّة، بسبب استحالة الفعل الملموس الذي يُضفي مصداقيَّة على «نحن» التي تؤشِّرُ على طبقة أو مجتمع. يقول رورتي: «الكونيَّة الأخلاقيَّة هي اختراع من لدُنِ الأغنياء (...) والتطابُق الأخلاقيّ يكون فارغًا من المعنى، بمجرَّد أن يكفَّ عن ارتباطه بعاداتٍ في الفعل (...) وكلّ جوابٍ على سؤال مَن نحن، يتطلَّع إلى دلالةٍ أخلاقيَّة، عليه أن يأخذ في الاعتبار الجانبَ الماليّ والفرز

الاقتصادي...».

يقرأ منير، ويعيد. ولا يملك إلّا أن يُوافق الفيلسوف على تحليله؛ خاصّة عندما يؤكّد أنّ «الكونيّة الأخلاقيّة هي من اختراع الأغنياء». يُوافقه، وهو يستحضر ليلةً مشهودة حضرها في باريس بمناسبة زواج ابنةِ وزير اشتراكي في عهد ميتران، اشتهر ضمن أسماء قادة ثورة الطلّاب في ١٩٦٨. أقامَ الحفل في فيلّا فخمة بالمقاطعة السادسة عشرة. يشتمل البيت الكبير على حديقة شاسعة وغُرف فسيحة تسع مئات المدعوّين، والموائد المبثوثة في كلّ مكان تحتوي ما لذّ وطاب، والشامبانيا تفيض عن الكؤوس من غير حساب، والرّقص والغناء وأشبال الاشتراكيّين مُنتشون، فرحونَ بما وهَبَه الله لآبالهم، الذين سبقَ أن ناضلوا من أجل رفع مستوى كلّ الطبقات! لم يصدُق أنّ البيت الفخم هو في مِلك الوزير، لكنّ صديقًا عارفًا بأسرار العائلات والقيادات، أكّد له أنّ الوزير سليل ثورة الطلّاب، تزوّج من مناضلة ذات أصول أرستقراطيّة، لها شركة إنتاج سينمائيّة تُموّل أفلامًا «مُلتزمة» تخدم قضية المستضعفين... «أنت تعلم، أضاف الصّديق، أنّ حزبنا تقوده صفوة تنتمي إلى عائلات لها جذور أيضًا في الطبقات العليا، التي تؤمن بالمساواة والفكر التنويري. والاشتراكيّة لا تعني الفقر، بل تدافع عن الرّخاء والرّفاهية لمجموع الشعب». قال منير في سِرّه: إذن الاشتراكيّة هي أيضًا من اختراع الأغنياء!

شاءت الصدفة أن يقرأ منير في الفترة نفسها، نصًا قصيرًا، عميق الدلالة للفيلسوف دولوز بعنوان «مجتمعاتُ المراقبة»، يَنظُرُ فيه للميكانيزمات التي تلجأ إليها الدولة «الديمقراطيّة» لضبط أنفاس المواطنين، بطريقة ذكيّة تستفيد من منجزات التكنولوجيا الحديثة. وقد أشار إلى ما سبق أنّ درسه ميشيل فوكو من قبل، والذي صنّف المجتمعات إلى مجتمعات سياديّة وأخرى تأديبيّة؛ وهو، دولوز، يصفُ الراهنة بـ «مجتمعات المراقبة» المتولدة عن انتقال الرأسماليّة من الإنتاج إلى تصريف المنتوج؛ ولذلك هي رأسماليّة للبيع أو التسويق. ولأجل هذا الغرض، أوجدت نظامًا للمراقبة الاجتماعيّة مخالفًا لنظام التأديب الذي سادَ إلى بداية القرن العشرين. يقول الفيلسوف:

«لم يعد الإنسان هو الإنسانَ المحتجز، بل المدين. صحيح أنّ الرأسماليّة احتفظت بخاصّةٍ ثابتة تتمثّل في البؤس المُدقع لثلاثة أرباع

الإنسانيَّة، التي كانت، لِشدَّةِ فقرها، لا تتحمَّل الدين، ولِوَفرةِ عددها تستعصي على الاحتجاز . أمَا المراقبة، فلن يكون عليها فقط أن تواجِهَ تلاشي الحدود، وإنَّما عليها أن تواجِه انفجارات مُدنِ الصفيح، أو حارات المُهمَّشين».

تبدَّت لِمنير خيوط اللُّعبة الأبديَّة التي يمارسها الرأسمال العالميّ منذ قرون: أن يُخضِع المجتمعات إلى أواليَّاتٍ تضبط إيقاعها واستجابتها لأشكالِ الاستغلال الظاهر والمُستتر. إن لم يكن بالتأديب المتنوّع الطرائق، والذي يبدأ من العائلة والمدرسة وصولًا إلى السجن، فَمِن خلال المراقبة الذكيَّة عبر الأرقام والحاسوب والأنترنيت... على هذا النحو، يبدو النَّسق اللّيبراليّ الرأسماليّ في تمظهُراته المختلفة، حتميًا لا غنىً عنه.

وعندما نشر الباحث الاقتصاديّ توماس بيكيتي كتابه «الرأسمال في القرن الواحد والعشرين» (٢٠١٤)، انكشف القناع عن استفحال التفاوت والفوارق الاقتصاديَّة داخل المجتمعات «الحديثة»، لأنَّ الباحث اعتمد على الإحصائيَّات والمقارنات والتَّحليل الناطق، الجريء... وما جعَلَ تشخيصه مقنعًا، أنَّ النموّ، في هذه الظروف الراهنة، بطيء أو مُتلاشٍ في مجموع مراكز الرأسماليَّة المستفيدة من العولمة. وحين دعا الدولة إلى تطبيق نوع من «الأتوبيا المفيدة» من خلال فرض ضرائب على الممتلكات العائليَّة المُوَرَّثة، وعلى الرأسمال بصفةٍ عامَّة، للحدّ من الفوارق الاقتصاديَّة، هبّ المفكِّرون اللّيبراليُّون لِمهاجمته معتبرين تحليله ذا طَابَعٍ عِقابيّ يقودُ، عند تطبيقه، إلى انهيار الاقتصاد العالميّ!!

لم تعد أسباب الأزمة وعواقبها خافية على الدارسين والمفكِّرين؛ غير أنَّ سطوة الميديا وأرخبيل الشبكات الخادمة لمصالح القابضين على المال، تخلط الأوراق وتُبلبل الرؤية وتبثُّ في عقول البسطاء أنَّ النظام اللّيبراليّ، بما هو عليه، هو المخرج من المأزق. مع ذلك، يحدث من حين لآخر أن تُفشَى أسرار من داخل الأجهزة الحاكمة، أو حين يجرؤ مفكِّرٌ على أن يصدَع بقسطٍ من الحقيقة عبر الشاشة.

يقول راوي الرُّواة:

في مطلع ٢٠١٦، تفرَّغ منير لقراءة كتاب أصدرهُ فيلسوف فرنسيّ لم يسبق أن قرأ له؛ عنوانه: «مع التمزيق:كيف لا نصيرُ مجانين؟»، واسمه برنارد ستيكلير (B. Stiegler). أثار انتباهه في هذا الكتاب، الجمعُ بين

التَّحليل العميق للأحداث السياسيَّة والاجتماعيَّة والإرهابيَّة التي عرفتها فرنسا وبعض دول أوروبا منذ مطلع الألفيَّة الثالثة. وهو ينطلق في تحليله من ظاهرة التَّمزيق، التي يلجأ إليها سادةُ الحرب الاقتصاديَّة من أجل تسريع تجديد الاستهلاك، مُتوخِّين أن يكون أسرعَ مِن إيقاع حركة المجتمعات، لكي يفرضوا عليها نماذج أخرى تُحطِّم البنيَات الاجتماعيَّة القائمة، وتجعل القوَّة العموميَّة في حالة عجز عن المقاومة... استند المؤلِّف، لتحليل أزمة الغرب الراهنة، على دراسات فلسفيَّة كثيرة، في مقدِّمها دراستا ميشيل فوكو ودريدا عن الجنون وتحوُّلاته عبر التاريخ. وقد استنتج أنَّ هذه المجتمعات باتت مُهدَّدة بالجنون وفقدان البوصلة، لأنَّ الأنساق الاجتماعيَّة لم تعد تتحكَّم في ضبط وَتمثُّلِ التَّطوُّرات التقانيَّة الصاعقة، المواكبة للثورة الرقميَّة. وغذَّت الرأسماليَّة الجُنوحَ إلى «إزالةِ الكبح»، وفتحت الباب أمام «لا أخلاقيَّة» شاملة، خاصَّة لدى الصفوة السياسيَّة. وفي هذا السِّياق، يستدلّ الكاتب بما أسماه «جيلُ دومنيك ستروس خان»، نسبة إلى الاشتراكيّ الفرنسيّ الذي كان سيرشِّح نفسه لرئاسيَّات بلاده في ٢٠١٢، لولا شبقه الجنسيّ الذي قاده إلى فضيحة مُدوِّية في أحد فنادق نيويورك... هذه الأسباب وغيرها التي ذكرها الفيلسوف، أحدثت «تمَزُّقًا» في الكيان المجتمعيّ الأوروبيّ، وجعلته فريسة للجنون والعنف؛ والإرهاب العالميّ المجنون هو بدورِه فريسة لهذا التمزيق والتمزُّق، وهو ما يدفعه إلى تحطيم «الآخر». لا يقترح ستيكلير حلولًا عمليَّة لمقاومة هذا الجنون المُحدِق بالغرب، إلَّا أنَّه يُلحّ على تقوية الرَّغبة باتِّجاه الكينونة من أجل الحياة. والسياسة التي قد تُسعِفُ على الحدّ من اندفاعات الجنون واللَّاأخلاقيَّة هي السياسة التي تنبني على الحلم بالتَّغيير...

قال منير:

على الأقلّ هذا مفكِّر يضع يده على أصول الدَّاء، إذ إنَّ أزمة فرنسا والغرب حاليًا، لا تنحصر في موجة الإرهاب المُرتدي جِلبابًا إسلامويًّا مزيَّفًا، بل هي أزمة حضاريَّة واقتصاديَّة بعيدة الغور. غير أنَّ ما أعيشه الآن، يُحوِّلُ فترة التقاعد إلى كابوس مُقيم. أحسّ في الهواء كهرباءَ معادية، مع أنَّني لم أخفِ أبدًا لائكيَّتي واحترامي لجميع الأديان. لكنَّ البلبلة السياسيَّة تفتح الطريق أمام اتِّهاماتٍ سهلة تُساقُ جزافًا، وتذكي عداء مستفزًّا...

يقول راوي الرُّواة:

تمكَّنَ منير، بعد قراءاته وتأمُّلاته المسترسلة في المناخ الكابوسيّ الرائن على فرنسا منذ سنوات، أن يتخفَّف قليلًا من وطأة خطاب الميديا وتهويلات الصحف، وأن يُعيد صلته بالديمومة المُتخطِّية لراهنيّة الزمن الظرفيّ. استعاد تلك الدِّيمومة التي تنقش بِمبضعها اللَّامرئيّ رغباتٍ متجدِّدةً ونزواتٍ طائشةً، وميلًا عارمًا إلى الكينونة الملتحمة بأشياء الحياة التي لا يستطيع أحدٌ أن يصدَها. وزادَ من تجديد رغبات منير الحياتيّة، أن بدر أخبره أنَّ كاترين سافرت إلى بوردو لإسعاف أمّها التي ألمّت بها أزمة نفسيَّة، جعلتها تمتنع عن الأكل وتتمنَّى الموت ليُخلِّصها من رحلةٍ قاربت تسعين عامًا. وبعد عودة كاترين إلى باريس، زارها ليواسيها ويطمئنّ على حال أمّها، إلَّا أنَّه تفاجأ أنَّها أقبلت عليه مُرحِّبة وهي تقول بسرورٍ طفوليّ: يا عزيزي، علينا أن نستمتع بالحياة قبل فوات الأوان. تصوَّر، أمّي في كامل عقلها وصحَّتها جيِّدة، ومع ذلك تستعجل الموت! ما رأيك أن تصاحبنا اللَّيلة إلى مرقص جديد في المقاطعة العشرين؟ أنا أعزمكم أنت وبدر ولويز، ويمكنك أن تعزم عشيقتك، فقد قال لي بدر إنَّها جميلة...

لم يكن منير يتوقَّع تلك الفرحة البادية على وجه كاترين رغم مرض أمّها. لا مانع لديها أن تبحث عن النشوة والتسلية، وأن تتعرَّف على صديقته إيفلين، ما دامت السَّهرة ستمنحها فرصة لتناسي مرض الأمّ وقضاء ساعات ممتعة.

هو ليس هكذا في علاقته بأصدقائه المرضى، أو الذين غادروا الدُّنيا.ما تزال ذكرى غياب أمّه وأبيه تحفر جروحًا عميقة في وجدانه. غالبًا ما تُحاصره ملامح الأهل والأحبَّة الذين رحلوا، في لحظة مُشرقة تكون فيها نفسه صافية، ظامئة إلى ما ينتشلهُ من وهدةِ السأم. لا يدري لماذا يستحضر ساعتئذٍ الأحبَّة الغائبين. هل لأنَّهم يقترنون في ذاكرته بزمنِ الفرح الذي يعلو على الوقت الكئيب؟ كأنَّما جميع أيَّام وسنوات العِشرة معهم كانت خالية من الكدَر والزعَل وفُتور العواطف! يتذكَّرهم فيستحضر الصفاء المطلق المصاحبَ لاستعادة ذكرى الأحبَّة الراحلين؛ لكنَّ في الآن نفسه تغمُره مشاعر مُلتبسة، كثيرًا ما تنجرف نحو غضب أهوج تجاههم، لأنَّهم تركوه وحيدًا على طريق الرِّحلة الدنيويَّة، وكأنَّهم هُم مَن اختاروا الرحيل! يحارُ في تفسير شعوره بالغُبن والترك كلَّما تذكَّرهم؟ هُم سعداء حيث هم الآن، فيما يُخيَّل إليه. لقد نجوا من تلك المنغِّصات التي

كانت تجعلهم يقرفون ويسخطون ويلعنون الصدفة التي جعلتهم يولدون في فضاء مضطرب وزمن مجنون. لكنَّ تواطأهم معه على المحبَّة غير المشروطة، خاصَّة من لدُنِ أمّه، يزرع بين حناياه أحاسيس تُعزِّز إنسانيَّته، بحسب ما يتصوَّر. تلك الأمّ الجميلة، الأمِّيَّة، التي رافقت سنوات طفولته ومُراهقته، كانت تخاطبه بلغةٍ بسيطة، نافذة، لا يحتاج معها إلى منطق أو دليل.

مع الحبيبات والأصدقاء الذين رحلوا، لم يكن التواطؤ معهم يخلو من فترات توتُّر وسوء تفاهُم أحيانًا. غير أنَّه كان يواجه غضبهم وفُسولتهم بتحليلات مُتفلسفة ليهدِّئ سخطهم. كان يقول لهم: هناك يأسان لا يأس واحد، أيُّها الأحبّة. يأس متفائل، ينتابُنا عندما يستحيل تحقيق الأحلام التي تملأ نفوسنا ونحن في أوَّل المشوار؛ وهناك تفاؤل يائس، يتبلور في دخيلتنا كلَّما تقدَّم العمر، يحُثُّنا على الإصرار وملاحقة الأماني والرَّغائب المنفلتة من بين أصابعنا. وهذا التفاؤل اليائس يمنحنا التعلُّق الكلّيَ بالحياة، ويُروِّضنا على متابعة الرِّحلة، رغم الشُّعور المُلازم بأنَّ أحلامنا مُمعنة في الهرَب والتلاشي...

الآن، عندما يتصفَّح ألبومَ صُور الصديقات والأصدقاء، يتوقَّف خاصَّة عند الذين رحلوا إلى العالم الآخر. تستفزُّهُ ابتساماتهم، وكأنَّهم راضونَ عن مُغادرتهم الدُّنيا التي تزداد، في نظره، ضجيجًا وكآبة وابتذالًا. هو لا يستطيع أن يتنبَّأ بمشاعرهم وأوضاعهم حيث يوجدون في فضاء مجهول بين تُرابٍ وسماء، بين جنَّةٍ ونار. ذاكرتُه وحدها تستعيد الهُنيهات المشرقات. تستعيد أيَّام الشباب والعنفوان. أيَّام القُنوط والبؤس النفسي... لكنَّهم كانوا موجودين على قيدِ الحياة، يمكنهم أن يستمعوا إلى شكواه واحتجاجه؛ وقد يسخرون من غضبه، فيحكون له نُكتا تبدِّد الشجنَ واليأس المتفائل... في حضور الأحبَّة الذين رحلوا، كان الشجن والأسى، يقول في نفسه، يتبدَّدانِ لأنَّهم كانوا يقنعونه بِضرورة إنقاذِ ما يتبقَّى من قوَّةٍ في الوردة السائرةِ إلى أفُول.

يقول راوي الرُّواة:

يبدو منير مرتاحًا بعد انكبابه على القراءة والتأمُّل في ظاهرة الكابوس المتعدِّد الوجوه، والذي أصبح يُساكِن الناس صباح مساء في فرنسا. هو لم يعد يعتبره بلاءً واردًا من خارج الجمهوريَّة، بل ظاهرة نبتت في الداخل، ولها جذور متَّصلة بأزمة مُركَّبة، تعود إلى التهميش والميز

وإهمال تطبيق العلمانيّة، والسكوت على استفحال الرأسماليّة المتوحّشة... والذين التحقوا بالجمهوريّة واستوطنوها، وهم يعتنقون الإسلام، لم تُوفِّر لهم الشروط للخروج من مفهوم ضيّق للدّين، ليَرتادوا أفق اللّائكيّة الرّحب. هذا ما أتاح للمتطرّفين الأصوليّين أن يتسلّلوا إلى الحلقة الضعيفة في المجتمع. والآن لا مناص، بحسب رأي المحلّلين ودارسيّ علم الاجتماع، من إعادة النظر كلّيًا في برامج التعليم، وفي الفوارق الاجتماعيّة التي تسهِم في إذكاء العنصريّة والكراهية، وتزيد من وتيرة التفقير داخل بلاد غنيّة بمواردها وذكاء أبنائها.

أضحى منير مقتنعًا بأنّ هذا الوضع يُحتّم عليه أن يُجدّد النّضال من موقعه الخاصّ، بوصفه مثقّفًا فرنسيًا، سليل أسرةٍ مسلمة، له وعي ناضج، يرفض استغلال الدين لأغراض سياسيّة أو لتبرير الإرهاب. أدرك أنّ المرحلة تقتضي ربطَ السياسة بالأسئلة الملموسة، المتّصلة بتكوينه وجذوره، لكي تكتسب مقاومتُه للكابوس أبعادًا تمتدّ من وطنه الأصليّ إلى الأرض التي استوطنها، وتعلّق من خلالها بمبادئ عصر الأنوار. والتاريخ كما هو معلوم له، رغم خصوصيّة تجلّياته، امتدادات وتفاعلات مشتركة بين مختلف الأقطار...

لكنّ هذا التّحليل الذي بَنى عليه منير قناعته الجديدة بدا ناقصًا، مهتزًّا، كلّما استحضر علاقته المتوتّرة مع ابنه بدر. لا يستطيع أن يحدّد بالضبط عناصر التوتُّر بينهما، وفي الآن نفسه، لا يعرف كيف يجعل الحوار معه منتظمًا كما كان إلى حدود بلوغه سِنّ العشرين. وهو يعلم أنّ هذه السنّ تبعث على التمرُّد ورفض وصاية الأب، والسّعي إلى الاستقلال عن مؤسّسة الأسرة. إلّا أنّ العنف الذي اصطبغت به العلاقة مع بدر، بث القلق والخيبة في نفسه. واتّصل بزوجته السّابقة كاترين يستعين بها على إرجاع المياه إلى مجاريها؛ غير أنّها تنصّلت من كلّ مسؤوليّة، قائلة بأنّ أزمة المجتمع العامّة زعزعت تصوُّراتِ ابنهما عن المستقبل؛ وما دام منير هو الذي زرعَ لديه رؤية يساريّة، طوبويّة، عن مجتمع الغد، فعليه أن يواجهه ويُنصت إليه، ويُقنعه بالعودة إلى الواقع وتعقيداته...

اقتنع منير بضرورة حوار صريح مع بدر، وعمل على إقناعه بأن يلتقيا في سهرة طويلة بشقّته، ليتبادلا الرأي في أوضاع فرنسا والتحوُّلات المتسارعة وانعكاساتها على علاقتهما. وحين وافق بدر، تعهّد منير بأن

يطبخ له طجين الدجاج بالزَّيتون واللَّيمون المرقَّد، كما كان يفعل من حين لآخر أيَّام التئام أسرتهما الصغيرة، مؤمِّلًا أن يجعله يصيح كما كان يفعل: برافو بابا، أنت بطل الطبخ في هذا البيت.

قبلَ موعد اللِّقاء مع بدر، انشغل ذهنُه بتلك العلاقة الملتبسة، الفاعلة، بين الذَّات والغير. جميع اختيارات الذَّات وتصوُّراتها تُمسي في مهبّ الرياح إذا ما تعارضت مع مواقف وإرادات غيريَّة لا يمكن القفزُ عليها. وهو يحبّ ابنه بدر، وراهنَ على استمرار قيم الأنوار من خلاله هو، والجيل الذي ينتمي إليه. ولم يكن يخطر ببالِهِ أنَّ الكابوس المباغت سيزعزع الحلم ويبثّ الارتياب في المبادئ والعلاقات الحميمة. كلّ ذلك يحدث، وقد ارتاد مسالك الشيخوخة والوحدة، ولا طاقة له بأن يتحمَّل أيضًا خيبة الآمال. في مرَّاتٍ عديدة، يشلُّه الحزن واليأس، ويحسُّ أنَّ الحلم الذي عاش من أجله ينفرط في زوايا نفسه المعتمة. وفي مرَّاتٍ عديدة، يصحو مفزوعًا وسط اللَّيل، لأنَّ فكرة تلازمه كالوسواس: ما مصير الحلم إذا انطفأ الحالم؟ لكنَّه سرعان ما يستعيد الثِّقة في أنَّ حلمه باقٍ، لأنَّه يعيش في قلوب الكثيرين وأنَّه بطبيعته يتخطَّى الذَّات المحدودة ليستمرّ ويُعاود البروز والتحقُّق من خلال آخرين.

قال منير، واليقظة تتراجع تحت هجمة النعاس، إنَّ أجمل الأحلام هي أحلام لها روحٌ وثنيَّة، لا تتكرَّر ولا تنسجنُ داخل أقانيم ثابتة. لذلك هو يعشق الأشكال التي تتبدَّى بها أحلامُه كلَّما استحضرها. هي هي نفسها، إلَّا أنَّها متغيِّرة في تفاصيلها. وقال إنَّ علاقته بالحلم ذات سيولة متجدِّدة، لا تكاد تستقرّ عند نقطة معيَّنة. وأضاف، قبل أن يغادر الضَّحوَ، بأنَّ الشيخوخة، لحسن الحظّ، لا تحولُ دون استمرار تدفُّق الأحلام على أصقاعِ النوم الفسيحة...

في عالم الكرى، توالت أصوات تحاصره، تسائله وتتطوَّع بالجواب في الآن نفسه: أنت تبحث عن حقيقة مُحرَّمة، مُتمنِّعة، دونها ألف حجاب. هل تريد أن تتشبَّه ب «هاملت» الباحث عن أخلاق مناهضة للظلاميَّة المتوحِّشة في العصور الوسطى؟ عليك إذن أن تستعير الأقنعة لتقترب من تلك الحقيقة. وقِناعُ الجنون أكثر فعاليَّة في هذا المضمار...

وصوت آخر، كأنَّه صادر من اللَّاوعي، يقول: كيف تستطيع أن تكون داخل هذا العالم، داخل هذه الشبكة الشاسعة من العلائق والمصالح، وأن

ترفضها في الآن نفسه؟ لا يكفي الرّفض. الرّفض لا يكتسب معنًى إلّا بعد الانتماء إلى ما يُحيط بك. وعليك ألّا تتناسى أنّ هذا العالم الذي ننتمي إليه يبدو أقوى من رفضنا، لأنّه قائم ، موجود، ملموس، مؤثّر في كلّ شيء، وله قدرة على الاستمرار والدوام... متى يكون الرفض ممكنًا؟ وهل كلّ رفض يجب أن يقترن بأخلاق بديلة؟ مع تقدُّم العمر وتراكُم السنين، ستدرك أنّ الحقيقة معقّدة، مراوغة، لا يمكن أن نقبض عليها دفعة واحدة، على افتراض أنّنا نستطيع اقتناصَ جوهرها. لأجل ذلك، ننصحك بالبحث عن أقنعةٍ تقول من خلالها ما لا يتحمّله آخرون سادرونَ في غفلتهم واطمئنانهم إلى الموروث، مُتآلفون مع كوابيس تتحكّم في الفضاء الممزّق...

وكان آخر صوتٍ رافقه، وهو في خلسة الكرى، صوتَ شاعر لم يتبيّن ملامحه:

أخيرًا وقد انفصلتَ
عن شجرة التُّفاح البرّيّة
عن مشاغلك اليوميّة
مكسُوًّا بالأزرق الرقراق
مُحاطًا بِجبالٍ جرداء
أنصت إلى كلّ هذا الصمت المُطبِق...

«آه! ردَّ سانتشو لا تمت يا سيّدي واعمل بِنصيحتي، وعش طويلًا، لأنَّ أكبر جنون يمكن أن يرتكبه إنسان في هذه الحياة هو أن يترك نفسه تموت هكذا، دون مبرّرات ودون أن يقتله أحد أو تقضي عليه أيدٍ أخرى غير أيدي الكلاب (...) وإذا كنت تموت من حزن رؤيتك لنفسك مهزومًا، فحمّلني المسؤوليّة، وقُل إنَّهم أسقطوك لأنَّني أسأتُ إسراجَ روثينانتِ، خاصّة وأنَّك رأيت في كتب فروسيّتك أنَّه شيء عادي أن يُسقِط بعض الفرسان بعضهم الآخر؛ ومَن يُهزم اليوم ينتصر غدًا».

«دون كيخوتِ دِ
لامانشا»:
سرفانتيس
ترجمة: رفعت
عطفة

«سنتبيَّنُ عندئذ أنَّ العالم, منذ القديم، يمتلك حُلمًا بشيءٍ، ويفتقد الوعيَ من أجل أن يتملَّكه فعلًا. سيتَّضح لنا أنَّ الأمر لا يتعلَّق بأن نضع خطًّا كبيرًا فاصلًا بين الماضي والمستقبل، وإنما علينا أن نتمّم أفكار الماضي.

وسنتبيَّن في آخر الأمر، أنَّ الإنسانيَّة لا تبدأ عملًا جديدًا، بل تحقّق عملها القديم, وقد غدت على معرفة جيّدة به».

كارل ماركس :
Lettres à Ruge,
١٨٤٣ septembre

كابوس مُقيم بين ظهرانينا يُطالعنا صباح مساء، مُجسّدًا عبر الشاشات الصغيرة والأفلام الوثائقيّة وتعليقات الصحفيّين، وبكاء ضحايا المذابح اليوميّة هناك في العراق وسوريا وأفغانستان وفلسطين واليمن وليبيا...، وهنا في فرنسا بإيقاع مُتزايد, أضحى منظر الدّماء وأشلاء الأجساد البشريّة وانفجار القنابل, وتهاوي جدران المنازل والعمارات والمستشفيّات، وتقطيع أوصال الأشجار، جزءًا من زادِنا اليومي. ترساناتُ الأسلحة المتقدّمة الرابضة في مخازن قوى الحِلف الأطلسي، وبقيّة ثكناتِ المعسكر الدّيمقراطي، باتت عاجزة عن وضع حدّ لهذا الكابوس اليومي. بدلًا من تصريحات الرُّؤساء التي كانت تؤكّد قُرب إنهاء رعب الكوابيس، طالعتنا خطب وتحليلات تدعو المواطنين إلى التعوُّد على العيش في ظلّها، لتفويت الفرصة على الإرهابيّين الذين يقصدون إلى زرع الخوف واللااطمئنان.

صانعو الكوابيس لا يتستّرون فقط بِأرديةٍ دينيّة مزعومة، بل منهم من ينتمي إلى كراهية عنصريّة، أو حِقدٍ إثنيّ يمارسه على مواطنيه في الولايات المتّحدة الأميركيّة أو الدانمرك... غير أنّ كابوس المُنضوين تحت ألوية دمويّة مُتأسلمة، هو ما يأخذ طابع الظاهرة البارزة منذ مطلع الألفيّة الثالثة. منذ تفجير ناطحتي السحاب في قلب نيويورك سنة ٢٠٠١، تنبّه الرأي العامّ العالمي إلى أنّ غولًا جديدًا قد خرج من أحشاء حضارة إنسانيّة شيّدت دعائم العلم والتكنولوجيا المتقدّمة والحكومات الدّيمقراطيّة... ومن قلب هذه الحضارة نفسها، اندلعت حربان عالميّتان خلّفتا ملايين الضحايا؛ ومنها هي نفسها تبرز الآن سلوكيّات وأفعال وحشيّة تجعل الكابوس عنصرًا ملموسًا في الحياة اليوميّة عبر أنحاء العالم، لأنّ البرابرة الجُدد نجحوا في أن يجعلوه دوليًا يمارس العولمة على طريقته، ولا أحد يجرؤ على الزّعم أنّه كابوس عابر، سيدخل منطقة النسيان عمّا قريب.

قال راوي الرُّواة:

كلمة كابوس، منذ ظهورها في القاموس الفرنسي خلال القرن السّابع عشر، اقترنت باستعارةٍ تُحيل على الحلم المُقلِق، المزعج، وعلى كلّ ما يبعث الحيرة. ثمّ تمدّدت الكلمة مع تقدُّم العقود، لتشمل الوسواسَ والاستحواذ وتسلُّط الأفكار الوهميّة على الفرد العائش في بُحرانِ الأمراض النفسيّة... من ثمّ ارتبط الكابوس بالشعور بالانحدار، وفقدانِ أفق للاستمرار في الوجود. والكابوس لصيق بتلك القوى المجهولة التي لا تنطوي على منطق، ما يجعل الكائن البشريّ يتقمّص، يتحوّل، إلى حشرةٍ

على نحو ما تخيَّل فرانز كافكا في إحدى رواياته. من ثمّ انفتح الباب في عالم التخييل للمسخ والاستنساخ والتماهي بين مخلوقات لا رابط بينها. وَغدا مألوفًا أن يتحوَّل الإنسان، تحت تأثير الكابوس، إلى نبتةٍ زائدة، أو ذرّةٍ سابحة في السديم...

جميع تلك التَّحليلات كانت تجعل الكابوس «مُحتملًا» في وصفه استعارة للتعبير عن عيِّناتٍ من الكوارث، تخترق الكائن البشريّ في شكل اكتئابٍ أو انهيار عصبيّ أو استحواذ فكرةٍ حَصريّة...

إلَّا أنَّ ذلك الكابوس «المحتمل»، المألوف، اكتسبَ منذ الحرب العالميَّة الأولى دلالة وحضورًا مُرعبين، غير مسبوقين. أصبح الكابوس صورًا ووثائق وأرقامًا، تُجسِّد الرُّعب والوحشيَّة عبر جرائم الفاشية والنازيَّة. وعاشت أوروبا، هذه المرَّة، الكابوس الدمويّ في الواقع لا في الحلم، ولا تزال آثاره مرسومة في ذاكرة من عاشوا ويلات الحربين العالميَّتين، وفي سجلَّات التاريخ المرئيّ والمكتوب. منذ ذاك، لم تعد الكوابيس محصورة في حالات فرديَّة، أو استيهامات وتخييلات روائيَّة، بل غدت قسطًا من أقساط حياة الناس حيثما كانوا، إن لم يكن عن طريق القنابل والبراميل المتفجِّرة والاحتلال الاستيطانيّ، فعن طريق الكوارث الطبيعيَّة أو الإرهاب الدينيّ أو جرائم العنصريَّة واقتتال الطوائف... بات الكابوس رمزًا ملموسًا للقوى الهادمة، المتحدِّرة من صلب حضارة زائغة، وكُتلًا مُتراصَّة تكوِّن جسمًا عضويًّا، يُزعزع التطابُقَ المحلومَ به بين قيمٍ إنسانيَّة كونيَّة وتطبيقاتها على الأرض.

أضحى الكابوس وسيلة لترويج الإنتاج والمخترعات التكنولوجيَّة المتناسلة، المتسابقة، الحريصة على البيع والتسويق. ما دفع بعض الجامعات الأميركيَّة إلى تدريس مادة **la disruption**، أي تسريع وتيرة الابتكارات والترويج لها، لدرجةِ أنَّ الإنتاج الجديد المتسارع يشلّ البنيات الاجتماعيَّة القائمة، فلا تستطيع مقاومة ما يفرضه عليها اقتصادُ الرقميَّات؛ ومن ثمّ يشعر الناس أنَّهم متخلِّفون عن العصر، ويحدث «تمزُّق» في المسار **disruption**)) يؤدّي إلى كابوس الجنون في شكل انهيارٍ عصبيّ واكتئابٍ وفقدان للبوصلة... ضحايا الكابوس المُمَزَّق، الرقميّ، ينقسمون إلى فئاتٍ وعيِّنات: منهم من يفجِّر نفسه وسط جموع من الرجال والنساء والأطفال، متوهِّمًا أنَّه يدافع عن مبادئ سماويَّة ستضمن له الجنَّة؛ ومنهم من يدمنُ المخدرات القويَّة هربًا من شبح الكابوس المقيم على الدوام؛ ومنهم من يتجرَّع الكحول لينفصل عمَّا حوله من سوداويَّة وانحباس...

جميعهم يهربون من واقع بات يزرع اليأس، ويُفرغ العقول والأفئدة من حبّ الحياة.

منير يُدرك كلّ ذلك من خلال المعاينة والقراءة، وتجربة النِّضال التي خاضها ضدّ كلّ ما يُمهِّد لظهور الكوابيس الماسخة. وهو يعي أنَّ التاريخ لا ينقادُ لقوى العنف والإبادة. التاريخ ساحة لصراع دائم بين قوى التخريب ونقيضها المؤمن بذكاء الإنسان، وقدرته على تشييد السَّلام والتسامح والاهتداء بقيم الخير والحق والجمال.

لكنّ ما يشغله الآن هو علاقته بابنه بدر، التي غيَّرت نظرته إلى العالم، وجعلته يكتسب نُضجًا في تحليل الأشياء، آخذًا في الاعتبار حداثة سنّ بدر المتطلّع إلى النجاح والحبّ وتأمين مستقبله، في سياقِ الهشاشة القابلة للانفجار. وبقدر ما يقترب موعد الحوار بينهما، كما اتَّفقا، بقدر ما يزداد إحساس منير بمسؤوليَّة الأب الذي يحرص على استعادة الثِّقة وتوطيد التفاهم.

في صباح الأحد ٣١ يوليو ٢٠١٦، استيقظ منير في شقَّته القريبة من ضاحية باريس الغربيَّة، متحفِّزًا على غير عادته، لأنَّ هذا اليوم هو موعد العشاء والحوار مع ابنه بدر، هنا في هذا البيت الذي شهِدَ ميلاده منذ أربع وثلاثين سنة. لا يكاد يُصدِّق أنَّ السنين مرّت بهذه السُّرعة، لتجعل من ابنه الطفل والولد الذي كان يستدرجه إلى النوم، وهو يحكي له قصصًا من ألف ليلة وَكليلة ودمنة وقصَّة «معزة السيِّد سوغان»، قد تحوَّل إلى شابّ بهيّ الطلعة، يعمل في إحدى شركات الاتِّصال العالميَّة، ويسكن في شقَّة وسط باريس، ويواجه مشكلات تقلُّبات المجتمع المتواترة والأخطارَ المحدقة بفرنسا...لم تعد علاقتهما، منذ سنوات، صافية صريحةً كما كانت؛ على الأقلّ منذ سنتين. نعم، يتحدَّثان باستمرار في الهاتف، إلَّا أنَّه يحسُّه مُراوغًا، زئبقيًّا في كلامه. وحين يسأله عن «روز» صديقته التي عرَّفَهُ عليها منذ شهور، يجيب بأنَّهما لم يعودا حميمين كما كانا، وأنَّ لقاءاتهما غالبًا ما تخضع للصُّدفة...

اليوم، سيلتقي بدر على انفراد، وسيطبخ له طجين الدَّجاج باللَّيمون المرقَّد، وسيسقيه نبيذًا أحمر من قصر ماركو سنة ١٩٨٢، وستكون اللَّحظة مناسبة ليتحدَّثا عن الموضوعات المؤجَّلة، وعن مسارهما في الحياة، علّ السُّحب التي تراكمت بينهما تتبدَّد.

قال راوي الرُّواة:

في السَّاعة السَّابعة مساء، كان منير واقفًا في شُرفتِه المطلَّة على

حديقة العمارة المشتركة، مترصّدًا وصول بدر. كان يرتدي تيشورت أصفر وشورتًا أبيض، وشعره الأسود القصير يتخلّله الشَّيبُ عند الفودين، والنظّارة الطُّبّيّة تُضفي عليه طابعَ بروفسور متقاعد... من داخل الصالون، تنبعث أغنيات شجية ل «باربارا»، تُخلّد الحبّ والحزن ولحظاتِ الشوق المُلتاع.

بعد قليل، ظهر بدر يخطو بسرعة ناظرًا إلى الشُّرفة، رافعًا يده تحيةً لأبيه. جسم رياضيّ ولباس شبابيّ يلائم ملامحه السَّمراء. بعد أن عانق أباه، التفت مُتفحّصًا الصالون، فوجَد أنَّ الصُّور على الرفوف وفوق الجدران هي ذاتها لم تتغيَّر: كاترين وهي في أوَّل الشباب، والِدُ منير وأمّه، وصورته هو في الخامسة من عمره... تسلَّلَ إلى غرفة المكتب، حيث الجدران مكسُوَّة برفوفِ كتبٍ فرنسيَّة وعربيَّة وإنجليزيَّة، والحاسوب على الطاولة، وبارٌ صغير تطلّ منه زجاجاتُ الأنبذة وبعض المشروبات الرُّوحيَّة. كأنَّ الفضاء ثابت وسُكّانه هم الذين تغيَّروا؟

على المائدة، تناول حديثهما ذيول مأساة مدينة نيس يوم ١٤ يوليو، التي نفَّذها إرهابي ادّعى أنَّه ينتمي إلى «داعش»، وعرَّجا على الأوضاع السياسيَّة الداخليَّة المحمومة في سياق الاستعداد للانتخابات الرِّئاسيَّة القادمة. عدد لا بأس به من قادة الأحزاب اليمينيَّة واليساريَّة ترشَّحوا للتصويت التَّمهيديّ، ووسائط الإعلام تُشعِل فتائل التحميس وتُذَكي المنافسة، والناس في حيرة ممَّا يشاهدون ويسمعون، بعضهم يجدها فرصة للسُّخريَّة والتَّعليقات اللّاذعة، وآخرون يعتبرونها فرصة للضحك، مُمَنّين النَّفس بِفُرجةٍ ممتعة تُنسيهم كآبةَ الوقت.

تذكَّر بدر جارَهُم مسيو آرثر، الذي كان يسكن في الطابق السابع من العمارة نفسها، ويَلَذُّ له بعد غروب شمس كلّ يوم، أن يخاطب سكّان العِمارة عبر ميكروفون صغير، مُقلِّدًا الجنرال شارل ديغول في خُطبه، مؤكّدًا لهم أنَّه قد تفهَّم مطالبهم، وأنَّه يستعدّ للعودة إلى الحياة، لينفِّذ ما أوكَله إلى الأتباع وعجزوا عن تنفيذه! سأل بدر أباه هل آرثر ما يزال على عادته، فأخبره أنَّه ماتَ منذ سنتين، وإلّا كان رشَح نفسه هو الآخر.

بالتدريج، انتقل الكلام بينهما من حديث مفتوح يجري على عواهِنه، إلى محادثة تشبه **الحوار الذي يدور فوق خشبة المسرح**:

الأب: منذ سنتين على الأقل، أحسّك متغيِّرًا، قلقًا، تتباعدُ، وعلاقتنا فقدت حميميَّتها. أنت تعرف أنَّك الأعزّ عليّ في هذه الدُّنيا، وأنَّني أكون دائمًا سعيدًا بلقياك والحديث معك. لكنَّك تتحضن داخل صمتٍ غاضب،

أحارُ في تخمينه.

الابن: معك حقّ. أحسّ أن تغيُّر الأشياء من حولي يجري بوتيرةٍ أفقدتني العثور على الكلمات المناسبة. كلّ ما حولي يسير بسرعةٍ فائقة، وما من خِطاب يُطمئن النّفس.

الأب: لكنّ وضعيّتك لا تجعلك في مهبّ الرّياح. أنت حاصل على دبلوم تخصُّص في الإعلاميّات، وتتقن أربع لغاتٍ؛ تحبّ عملك، وأنا وأمّك مُتعلّقان بك، وشبابك يفتح الطريق أمامك إلى قلوب الجميلات. ما الذي يؤرّقك إذن؟

الابن: تتجاهل ما يؤرّقني، وأنت أدرى به في ما أظنّ.

الأب: لستُ نبيًّا ولا وسيط وخيٍ، بحسب علمي. لماذا تفترض أنّني على علم بما تعانيه؟

الابن: ألستَ أنت من علّمني التشبُّث بمبادئ عصر الأنوار، واتّخاذها أفقًا للمستقبل؟

الأب: بلى. أنا وأمّك لم نرد أن نفرض عليك تعاليم دينيّة معيّنة، لنترك لك حرّيّة الاختيار في الاعتقاد. لكنّنا لقنّاك مبادئ نعتبرها إنسانيّة، كونيّة، تعطي لحياتك معنًى. أين الخطأ في ذلك؟

الابن: لا يتعلّق الأمر بخطإٍ أو صواب. بل بوضعي أنا الآن، بعد الأحداث المروّعة المتتالية التي زعزعت فرنسا، وانعكست على سلوك الناس وعلاقتهم بالقيم وبالذين ليسوا من «أرومةٍ» فرنسيّة «أصيلة». أحسّ بذلك في دائرة عملي، في علاقاتي الاجتماعيّة، ومن خلال الأسئلة المكبوتة التي تطفو على السطح في تدفُّقٍ يثير الخوف...

الأب: هذا جزء من مسارك في هذا العصر الذي وُلدتَ فيه، وأنا لا ذنب لي فيه. غير أنّنا جميعًا نركب السفينة نفسها، والأحداث تتجاوزنا جميعًا، لأنّها متّصلة بسيرورةٍ عميقة تمسّ التاريخ والبنيات ونفوس البشر؛ ونحن لا نملك سوى التشبُّث بالمبادئ التي تسعفنا على رفض منطق الوحشيّة والقتل.

الابن: أنت تقول ذلك، لأنّك راهنتَ منذ البدء على هذه القيم، وكأنّك تمارس عقيدة دينيّة. أمّا أنا، فما أزال في بداية الطريق، وعلى رغم مشاطرتك الاختيار، أشعر أنّ خطرًا يتهدّدني عند المنعطف. هل تلومني لأنّني أكشف خوفي وحيرتي؟

الأب: لا. أبدًا.. إنما لا أريدك أن تسجن نفسك داخل تابوتٍ من التوجُسات والتوقُّعات السَّوداويَّة. لذلك، أنا حريص على دوام الحوار بيننا. لعلَّك تذكر الرِّسالة الإلكترونيَّة التي أرسلتها إليك يوم ٢٤ ١١ ٢٠١٥، بعد الاعتداء الدَّمويّ على روَّادِ مرقص «لوبَتاكلان»؟

الابن: أذكرُها جيِّدًا. قلتَ لي فيها : «لا شكَ أنَّ الشرّ الذي يتفجَّر هنا في باريس، هو أمارة كاشفة للمسكوت عنه الذي يُنهِكُ العالم. لنستفِد إذن من هذه الثغرة، لنقول كلّ ما نحن بحاجةٍ إلى قوله. لكنْ، لِنعجّل بذلك قبل أن تنغلق الجُدران علينا جميعًا من جديد...».

الأب: عند كلّ اعتداء على الأبرياء بدافعٍ من الجهل والتعصُّب، أحسّ فعلًا أنَّ الجدران انفتحت لترينا بشاعة الغولِ المنبعث من أحشاء المجتمع، ثمَّ سرعان ما تعود إلى الانغلاق لتطفُو الثرثرة والإشاعات المغرضة والمزايدات... كان يمكن أن تكون أنت أيضًا من بين ضحايا روَّاد المرقص ذلك المساء؛ وهذا لا علاقة له بموقفك الشخصيّ ومبادئك؟

الابن: نعم. أعرف.. غير أنَّني لا أستطيع أن أتجاهل رغبة مُلحَّة بأعماقي: أن أعيش في باريس التي عرفتُها أيَّام الطفولة والمراهقة، فضاءً للفرجة والثقافة والاستمتاع بمباهج الحياة. أيَّام كان الوئام سائدًا بينك وبين أمِّي كاترين؛ وكانت علاقاتي بالمحيط مفتوحة من دون أن أحسّ بالميز أو التوجُّس لدى الآخرين. الآن، وأنا في عزّ الشباب، يُخيَّل إليَّ أنَّ العالم أصبح يواجهني بشراسةٍ غير مسبوقة: أمِّي تهرب إلى الأمام مُنساقة إلى وَهمِ اغتنام لذائذ العيش والجسد، مُتستِّرة على خيبتها في المبادئ التي راهنت عليها أيَّام الشباب؛ وأنت الذي فتَّحتَ عينيّ على رحابة الكون والمعرفة، تغوص رويدًا رويدًا في متاهة الشكّ والحيرة، والبحث عمَّا يُعيد العنفوان لمبادئ عصر الأنوار... وأنا ؟ عليَّ وسط هذا السديم أن أبحث عن مستقبل يُقنعني باستئناف الرحلة...

الأب: تعودُ يا بدر إلى نكء الجُرح. لا بأس. أنا فعلًا أتألَّم، لأنَّني بدأت أفقد إيماني القديم بأنَّ هناك معنًى للعالم باتِّجاه التَّطوُّر والتَّقدُّم. سبَق أن قلت لك ذلك، لأنَّني أعتبرك ضوءًا وامتدادًا لأحلامي. لكن، حتى لو امتلكتُ تصوُّرًا يُضفي دلالة على هذا العالم الكابوسيّ، هل سيكون بإمكاني أن أورِّثهُ لك؟ أنا أعتبر الشكّ ملازمًا للبحث عن رؤية متوازنة. ما حرصتُ عليه في مجال نقلِ الأفكار والمعرفة التي تستحقّ النقلَ والتوريث، بالنسبة إليك وإلى تلامذتي حين كنت أستاذًا، هو إبراز آليَّات التفكير وحُجج العقل والوِجدان التي تسعفك على أن تفكِّر بنفسك، وتستحضر

تجربتك وأنت تواجه العالم. لا فائدة من الاجترار ونقل العقائد الصمّاء المسكونة بالماضويّة...

الابن: أعترف أنّك نجحت في هذا المِضمار. غير أنّني لا أخفيك وجودَ شكوكٍ هوسيّة تلاحقني. مع إحساسي بانسداد الأبواب وتراجُع المبادئ الكونيّة الإنسانيّة، لم أعد أحسّ استعدادًا لديّ للمراهنة على تلك القيم. تستولي عليّ الرّغبة الآن، في أن أعانق حياة عاديّة، بسيطة، خالية من الأوهام الطوبويّة. ما يشغلني هو أن ألتقي إنسانة تبادلني الحبّ بما أنا عليه، دون تشريح لأصولي وهوّيّتي. أشعر أنّ قلبي يتّسع لاحتواء كلّ البشر، وكلّ الثقافات والأديان من دون أسيجةٍ أو حدود. غير أنّه، منذ اندلاع الاعتداءات المتتالية، يُخيّل إليّ أنّني أعيش في يوم الحشر، حيث تُعرَض هويّاتٌ كثيرة، متوازية، متقاطعة، وعليّ أن أختار من بينها هويّة تحميني من عداء الهويّات الأحاديّة . كأنّما هناك مُصادرة لحقّي في المزج بين هويّات متعدّدة، تمنحني الانفتاح والتوازن من خلال التهجين المُخصّب الذي علّمتَني إيّاه.

الأب: كان هذا طموحي أيضًا: أن أنعتِق من سياج هُويّةٍ موروثة مُنغلقة، لأرتادَ رحابَ هويّةٍ مشرّعةٍ على قارّاتِ الدُّنيا، تعزّز حرّيّتي وتحميني من التعصُّب... لكنّ منطق واقع الأحوال يسير باتّجاهٍ معاكس لما أطمح إليه. أرجو ألّا تُحاسبني انطلاقًا ممّا آلت إليه طموحاتي، لأنّ في ذلك اختزالًا شديدًا، إن لم يكن ظلمًا. ما راهنتُ عليه منذ استوطنتُ فرنسا، هو الانضمام إلى من يريدون تجسيد قيم عصر الأنوار في سياق راهن، يُناهض الاستغلال والاستعباد والتعصُّبَ وكمَ الأفواه.. اعتقدتُ أنّ النّضال الذي أخوضه هنا، مع حفدَة فولتير وروسو ومونتيسكيو وجويس، سيفيض إشعاعُه على أقطار بعيدة تتحرّق شوقًا إلى العدالة والحداثة... لم يكن مسقط الرأس غائبًا عن اهتمامي، إلّا أنّه ظلّ كامنًا في خلفيّة المشهد، كأنّه معركة مؤجّلة. أقرّ أنّني أخطأتُ التّقدير. أصبحتُ أدرك أنّ عصر الأنوار ليس وصفة جاهزة، وإنّما مبادئ إنسانيّة تتطلّب أن نناضل باستمرار من أجل تعميقها، دون أن نصبح ضحايا لصورتها المثاليّة، أو نعتبر ما سطّره الفلاسفة السّابقون كتابًا مقدّسًا لا يأتيه الباطل من قُدامٍ أو من خلف. من ثنايا كلّ واقع ملموس، تنبثق حقيقة كلّ مجتمع حاملةً خصوصيّتها وتركيبها المعقّد وأبعادها الكونيّة...

الابن: هذا استخلاص تقوله لي الآن. في أيّ شيء يُفيدني وأنا أختنق في عنق الزجاجة؟ لا أملك ثقافتك وقدرتك على التفلسُف وتجديد

الأمل؛ ولا أنتمي إلى زمنك الذي كان يوهِم البسطاء أنّ الإنسان لم يمت بعد، خاصّة بعد أن أكّد الفلاسفة موتَ الإله...

الأب: لكنّ كلّ ذلك لا يعفيك من أن تجيب على سؤالٍ جوهريّ: أيّ عالم تريد أن تسكنه؟

الابن: تخاطبني كأنّني أملك حرّيّة الاختيار! أو كما يقول المثل: أنا أشكو من الفقر والفقم وأنت تدعو لي بالبنين والبنات. يا أبي العزيز، هل أذكّرك بما كنتَ تقوله لي منذ أمدٍ قريب؟ كنتَ تردّد أنّ التاريخ لم يعد يتناغم مع أملٍ ما، وأنّ الانفتاح الكبير بين بؤاباتِ العالم أسفرَ عن عولمةٍ غير سعيدة، تهدف إلى حماية الاستهلاك والترويج له، وتحطيم النّظام البيئيّ وإبادة الزّراعة، وتهميش اللّغات المحلّيّة، والعجز أمام كوارث الطبيعة...أليس هذا ما كنتَ تفكّر به بصوتٍ مسموع؟

الأب: بلى. لكنّني لم ألغِ أبدًا قوّة الأمل والاختيار؛ وإلّا لكنتُ مناقضًا لمسار حياتي التي بدأت في دبدو، المعزولة، الغارقة في أمجادٍ ماضٍ متوهَّمة، لتنتهي بي إلى باريس، الشرفة التي أطلّ منها على ما يجري في العالم، والتي تعلّمت من تاريخها كيف أقاوم الوحشيّة وأعانق ضوء الأنوار...لكنّ ذلك لا يمنع الشكّ من أن ينبت حولنا وداخل أنفسنا. الأمل مُتجذّر فينا، لا فكاك منه، ما دمنا نتابع الحياة ولم نُقدم على وضع حدّ لها. الأمل جزء من ذلك العنصر المُسيطر على مجرى الأمور، أيّ اللّامُتوقّع. وأنا لا أقصد، يا عزيزي بدر، انبثاق مُعجزاتٍ تُحوّل الأسود أبيض، وإنّما أعني ذلك الجهد اللّامرئيّ الذي يبذله الكثيرون للإبقاء على معنى مُضيء للحياة. هو جُهد منبثق من طاقةٍ كأنّها مُحدِثة لِنفسها.

الابن: لا اعتراض لي على ما تقوله، إلّا أنّني بحاجةٍ إلى استعادة تلك القوّة الخفيّة التي تمنحني الجهد العجيب الذي نشير إليه. ثمّ إنّني لم أقل لك إنّه منذ زيارتي للمغرب وَدبدو مع أمّي، أخذت أسئلة مقلقة تحاصرني. لا أفهم لماذا امتنعتَ عن زيارة موطنك، وانتظرت عقودًا إلى أن تقاعدتَ عن التدريس؟

حين ذهبت مع أمّي سنة ٢٠٠١، لا أخفيك أنّني فُتِنت بالاختلاف البادي في كلّ شيء: في السحنات، في الألوان، في الطبيعة، في الملابس...وانجذبتُ إلى إيقاع الزمن البطيء، وإلى طيبوبة الناس وانشدادهم إلى نمط العيش الجماعيّ. ووجدتُ «صادق» ابن عمّك، غارقًا في السّعادة بعد أن تزوّج من ممرّضة في أحد المستوصفات. دبدو كأنّها فضاء يسبح خارج الزّمن. إنّما، لأكون صريحًا، لا أستطيع أن أتخلّى عن

حياتي هنا في باريس لأعيش في المغرب. لاحظتُ هناك تناقضًا كبيرًا بين تطلُّع الشباب إلى المعرفة والانخراط في عالم الغد، وبين قوّة عاتية تُلجم اندفاعهم وتشدُّهم إلى صخرة الماضي، وترغمهم على الهويّة «الأصيلة» الأحاديّة التي تريد أن تختزل شساعة العالم في كتاب مقدّس واحد، تريد لصدقيّته أن تكون مُطلقة...

الأب: أفهم ردود فعلك، لأنّ التربية التي تلقيتَها هنا تنطلق من تصوُّرٍ مختلف عن تلك التي تدعو إلى تجاهل الفرد وحقوق المواطنة، وتتشبّث بتقاليد متقوقعة. أنا الآن، أكثر من أيّ وقت مضى، مستعدّ لمحاربة الدّعوة إلى الارتداد إلى ما هو مظلم في الماضي. وإذا كنت أفكّر باستمرار في مسقط رأسي بعد تقاعدي، وأتطلّع إلى العودة، فلأنّني أبحث عن بصيص أمل قد ينبتُ بين الصُخور أو في خلاء القفار ومضارب الصّمت. أقاوم اليأس، كي لا أغدو حيًا/ ميتًا في ظلّ هذا الكابوس المقيم. لديّ بقية من اشتهاء ورغبة وفضول. أريد أن أعرف إلى أين ستؤول هذه القيامة التي يشعل نيرانها قتلة متعصّبون مربوطون إلى ماضٍ ولّى. شهوتي إلى الحياة لم تنضب، على رغم هزائم صغيرة حاصرت طموحي، لكنّني أملك ما يكفي من التّحدّي لأبحث من جديد عن مُثل تنتسب إلى تلك التي ألهبت حماسي في مطلع الشباب. أنا أتذكّر دومًا ما قاله باسكال: «الإنسان يُجاوز الإنسانَ إلى ما لانهاية».

تلفّظ منير هذه الكلمات الأخيرة (الإنسان يجاوز الإنس...) وهو يستسلم إلى جلسة الكرى مُغمضًا عينيه. تنبّه بدر إلى ذلك، فذهب إلى غرفة النوم وأتى بملاءةٍ بسطها على جسد أبيه، فيما أنغام من كونسرتو لشوبان تنبعث من إحدى زوايا الصالون. كان راضيًا عن حواره مع أبيه الذي رافق خطواته منذ مطلع طفولته. لقد أدرك، بعد هذا اللّقاء، أنّه لم يكن يُحاور رجلًا مطمئنًا إلى أفكاره واختياراته؛ بل مع إنسان تحوم حوله الهشاشة نفسها التي تحيط به هو أيضًا، على رغم تباين المسالك وتفاصيل التجربة... قال بدر في نفسه وهو يغلق باب الشقّة، ويخطو متّجهًا إلى المصعد، بعد منتصف اللّيل بقليل: سيستيقظ بعد قليل، بعد أن يتوقّف شريط الموسيقى، وسيشرب ما تبقّى في قرارة الكأس قبل أن يعاود النوم. أضاف: عليّ ألا أتركه وجهًا لوجه مع الوحدة واجترار أفكار عصر الأنوار. هو عنيد، أعرفه، حين يتعلّق الأمر بمستقبل الإنسان.

يقول مُنير:

بعد السهرة التي أمضيتُها مع ابني بدر، نمتُ نومة عميقة مليئة

بأحلام كثيفة، موغلة في أزمنتي الأولى. لعلَّه الشُعور بالارتياح ما جعلني أستعيد مشاهد حلميَّة كامنة في الأعماق؟ كنتُ مذهولًا، وأنا أراني طفلًا ومراهقًا وشابًا ثمَّ كهلًا يدلف إلى ليلِ الشيخوخة البهيم.. لعلَّ ما رأيته في تلك الأحلام الطويلة هو استجابة لرغبة لاحقتني باستمرار: أن أضع مختلف أطوار عمري على صفحات متوازية، لكي أقارن وأستخلص وأتذكَّر وأتأكَّد من أنَّني أمسك دفَّة حياتي من مفصلها الأساس. أوهام. تأويل مُغرض لأضغاث أحلام تعبث بمخيِّلتي. لِمَ لا أقول إنَّها تدقّ ناقوس النِّهاية، التي يُصوِّب الموتُ باتِّجاهها بُندقيَّته ليُحيلني إلى رماد أو تراب؟

كثيرًا ما أتناسى الموت. أزحف نحو السبعين من عمري، لكنَّني عندما أستيقظ صباحًا وأستمع إلى الأخبار، وأرحل إلى سماواتٍ عُليا مع مقاطع موسيقيَّة تطردُ كلّ الأصوات ما عدا نغماتها، أحسّني في مُنتهى الحيويَّة والعنفوان، مُقبلًا على تلك اللّذاذات الصغيرة التي تنسج، في حذاقةٍ وتكتُّم، انجذابًا إلى الحياة ونسيانًا للموت.

أثناء لقاءاتي بإيفلين، على نُدرتِها وصُدفويَّتها، يختزن جسدي وحواسي طاقة خارقة، تستطيع أن تشيِّد جدارًا سميكًا يفصل بيني وبين جنود عزرائيل، ويحميني من سهامه. يخيَّل إليَّ في تلك اللَّحظات المُميَّزة، أنَّ الأبديَّة قد حلَّت بيننا، وأنَّ لا شيء سيتغيَّر ما دمتُ في منتهى الغبطة والتماهي معها ومع الكون... غير أنَّني عندما أعاوِدُ الاندماجَ في العالم، يُطالعني شبحُ الكابوس المقيم، فأستعيد صلابتي وشراستي، وأقول في نفسي إنَّ هذا هو ما يهدِّد حياتي ويُنغِّص عليَّ ساعات المسرَّة، وليس الموت الموعود به «ولو كنتُ في بروج مُشيَّدة». ذلك أنَّ الكابوس يُشوِّه ويهدم كلّ المراحل واللَّحظات، التي أحسستُ خلالها أنَّني كائن يبارز العدم ويتحدَّى منطق المتوحِّشين. معه، أمامه، أحسّ بالعجز والضآلة، وأتخيَّله تنِّينًا ضاحكًا يُخرج لسانه ليهزأ من كلّ ذلك التراث المضيء الذي علَّمني وعلَّمَ ملايين البشر، أنَّ الحياة ممكنة، فاتنة، على رغم أنَّ رحلتنا الدنيويَّة قصيرة، خاضعة لأولويَّات تنِدّ عن الفهم والمعقوليَّة. أتمتم سهوًا: «أينما كنتم يُدرككم الكابوس...».

أحيانًا، في لحظات الانكسار والفسولة، يبدو لي أنَّ حرصي على مقاومة الكابوس ومشتقَّاته، إنَّما هو نوع من الهرب من شبح الموت، الذي لا ينفكّ يُعلن عن نفسه عبر الفذفَدة المتسلِّلة من بين الأشجار، أو من خلال نوباتِ الألم الذي يشُكّ الضلوع...

ذاكرتي قلَّما تخلدُ إلى استراحة. تفاجئني باستحضار أسماء

وأحداث علقت بذهني من قراءات ومشاهدات. لماذا يرِدُ إلى ذهني اسم «الهِكسوس»، القبيلة الساميَّة التي اجتاحت مصرَ، وظلَّت بها إلى عام ١٥٨٠ قبل الميلاد؟ أحرق جنودها الأخضر واليابس، وقطعوا الرؤوس ودمَّروا الحصون وعاملوا البشر كحيوانات سائمة... عقود عديدة مرَّت قبل أن يتمكَّن أمراءُ طيبة من النهوض لطرد الهكسوس.

الكابوس، من قديم، جزء من حياة البشر. حتى عندما لمَع نجم الإسكندر الأكبر المقدوني، تلميذ المعلم الفيلسوف أرسطو، لم يتورَّع عن استعمال العنف والتقتيل، خاصَّة في غزواته لبلاد الفرس. عاش مُوزعًا بين رغبته الجامحة في بناء أمبراطوريَّةٍ تشمل العالم، وبين تطبيق قيم العقل والسياسة الرشيدة التي لقَّنه إيَّاها أستاذه أرسطو. بعد احتلاله بابِل، فكَّر في أن يشيِّد مجتمعًا مختلفًا؛ فسعى إلى تأليف قلوب المنتصرين والمهزومين من أبناء شعب بابل، استعدادًا لبناء حضارة تخلِّد اسمه، لكنَّ الموت عاجَله وهو في عزِّ الشباب؛ وسرعان ما اقتسمَ قُوَّادُ جيشه مملكته الشاسعة، وعادوا إلى منطق النار والبطش.

حدث ذلك قبل التاريخ الميلادي؛ لكنَّ الكوابيس فيما بعد صارت أكثر عنفًا ووحشيَّة: بين المؤمنين المدافعين عن أديانٍ سماويَّة وبين «الكفَّار» الرافضين دعوتهم، بل بين معتنقي ديانات سماويَّة مختلفة، كما في سجلاتِ الحروب الصليبيَّة التي دامت قرونًا... وحركات الاستعمار التي صدَّرها الغربُ الرأسماليّ المُدجَّج بأحدث الأسلحة، اعتمدت العنف والتسلُّط في آسيا وإفريقيا وأميركا: من إبادة الهنود الحُمر إلى مذابح الفيتنام وتفجير القنبلة الذريَّة في هيروشيما... كلّ ذلك تمّ تحت غطاء مزاعم التمدين الحضاريّ، وتعميم نتائج التقدُّم العلميّ على البلدان المتأخِّرة. إلَّا أنَّ الحربين العالميَّتين أزاحتا الستار عن التمويهات الاستعماريَّة، وانكشفت نوايا التسلُّط ودوسِ قيم العقل والتسامح في سبيل بسط السيطرة وتطهير الأرض من الأقليَّات، ونصب أفران المحرقة اللَّاساميَّة...

ألا يُجسِّد هذا التاريخ القريب الكوابيسَ التي رافقت إنسانَ الأزمنة الحديثة، صباح مساء؟

لا فرق بين الكابوس الذي يقضّ مضجع الفرد، والكابوس الذي يُطارد مجتمعات بأكملها: كلاهما ينبعثان من الرَّغبة نفسها العمياء في ممارسة العنف والإقصاء والاستعباد والتقتيل.

أذكر جيِّدًا حوارًا بيني وبين صديقي ألبير عن مناخ الخوف

الكابوسيّ، الذي نشر ألويته القاتمة بعد مذبحة شارلي إبدو، يوم ٧ يناير ٢٠١٥، داخل مقرّ الصحيفة الساخرة. قال لي إنَّ تنفيذ الإعدام في حقّ فنانين وصحفيّين في قلب باريس، يعني أنَّ صانعي الكوابيس الجُدد يُحرّمون الضحك الذي هو تعبير طبيعيّ عن الانفعالات التلقائيّة، التي تجعلنا نعيش لحظات سعادةٍ خالصة. مصادرةُ الضحك تعني فرضَ التجهُّم والعبوس، لكي نقطع الصلة بكلّ ما يجذبنا إلى تفاصيل الحياة... وقلتُ له كلامًا بالمعنى نفسه عن المتزمّتين المتطرّفين الذين يحاربون باسم الإسلام، الفكاهة والسُخريّة، ويلحُّون على أنَّ التقشُّف في الضحك والإعراض عن ملاذ الدُنيا، ضروريان لارتياد أبواب الجنّة! كنّا مُرتبكين، عاجزين عن الوصول إلى كلماتٍ تعبّر عن موقفنا من تلك الجريمة السَّوداء. بعد قليل، سألني ألبير إن كنتُ قرأتُ ملاحظات الرّوائيّ وكاتب المسرح الفرنسيّ جان جونيه، عن روايات فرانز كافكا. أجبتُه أنّني لم أطّلع عليها، فقال لي بأنّه يستحضرها في تلك اللّحظة، لأنّها تساعد على فهم طبيعة ما تعيشه فرنسا من كوابيس. نظرتُ إليه مستفسرًا، فقال إنَّ جونيه، في رسالة بعثها إلى مترجم نصوصه إلى الإنجليزيّة، المعجَب بكافكا، لاحظ أنّه على رغم الشكل الفنّيّ المتميّز والجديد لروايات كافكا، فإنّها لا تنفذ إلى أعماقه، لأنَّ صاحب رواية «المحاكمة» مهووس بنوعٍ من التعالي (ترانساندانس) غيرِ المحدَّد، وبمحكمةٍ تتابع ذنبًا لا نتعرّف عليه؛ بينما جونيه يجد نفسه مسؤولًا عن كلّ ما يحدث له، وأيضًا عمّا يحدث للآخرين، بعيدًا عنه. لعلّها قراءة شخصيّة لروايات كافكا، يستحضر فيها جونيه حياته الخاصّة ليقول: كنتُ داخل العالم مجرمًا حقيقيًا أمام محكمةٍ حقيقيّة، ولم أكن مثل كافكا الذي يتعايش لديه المتّهمُ والمحكمة، وأحيانًا يتماهيان. ويضيف جونيه بأنَّ الصّدمة الكهربائيّة التي شكّلتها الأحكامُ الصادرة ضدّه، هي التي وَقَتْهُ من كلّ ما يشبه ذلك القلق الناجم عن التبعية لِمحكمةٍ جِدٍّ عالية وجِدّ لامرئيّة، كما هو الشأن عند كافكا.

قال ألبير مُستخلصًا: ما استوقفني في ملاحظات جونيه الذكيّة، ليس الحكم على تأثير روايات كافكا في القارئ، وإنّما المقارنة بين الإحالة على المحكمة في الواقع الملموس، وعليها كرمزٍ له مرجعيّة في منطقة التعالي الميتافيزيقيّ الذي يُفرّخ الوساوس والقلق من دون مبرّر. نحن نعيش منذ عقودٍ تحت وطأة تلك الكوابيس الكافكاويّة التي تجعل البريء يتّهم نفسه، فيما الكابوس الواقعيّ، الملموس، ينمو ويتقوّى ليسحق كل من لا يخضع لنواميسه. المحاكمة التي تستحقّ أن ننفّذها في سياقنا الكابوسيّ، يجب أن تتمّ على أساس واضح: من هم الذين يدعُونَ إلى

إعدام الحياة، ومَنْ هم الذين يناصرونها على الأرض، لا في سماءٍ يفترض المُتوهِّمون أنّها ستستقبلنا بعد الموت!

قاطعتُ ألبير مشاكسًا إيّاه: وكم محكمة سنحتاج إليها لإتمام الفرز بين أنصار الحياة وأعدائها؟

ردَّ عليّ محتدًا: لا يتعلّق الأمر بِنصبِ المحاكم وتجييش القُضاة، بل بمواجهة الذين هم وراء الفوارق والتّمييز والتعصُّب والاستغلال، أولئك الذين يمهِّدون لنشوء التطرُّف، ويجعلون من الدين ذريعة لمحاربة أنصار العقل ومُحبّي الحياة. هي معركة لن تحلّها المحاكم، بل الصراع المستمرّ ضدّ أعداء واقعيّين، ملموسين، يُعادون فكرَ الأنوار. هذا هو الكابوس الواقعيّ الذي يُلاحقنا. إرهابيُّو اليوم ليسوا فقط صنيعة حركات خارجيّة متطرِّفة، وإنّما هم أيضًا ثمرة فشلِ الدولة في أن تصنع منهم مواطنين مُقتنعين بمبادئ الجمهوريّة...

وجدتُ ألبير محقًّا في مقارنته واستنتاجه، لكنّني كنت في الوقت ذاته أفكّر في شساعةِ المسافة الفاصلة بين هولِ الكابوس الماثل في أحشاء المجتمع، وبين أفق الوعي الإنسانيّ المطلوب لِمُقاومته.

في مطلع صيفِ هذه السنة، غادرتْ إيفلين باريس إلى أوستراليا، مع مخرج سينمائيّ يبحث عن فضاء يناسب أجواء فيلمٍ تجري أحداثه في قرية قريبة من البحر، وتحكي عن رجلٍ غنيّ فقَدَ زوجته في حادثة سير، وقرّر الهجرة بعيدًا ليعيش منقطعًا عن العالم، مستعيدًا ذكرياته مع الزوجة الحبيبة، مستحضرًا طيفها، وكأنّها تزوره بانتظامٍ في غربته...

قلتُ لها ممازحًا: هذه قفزة نوعية في مغامراتك، لأنّك ستعيشين بين أحضان الطبيعة، وستُراعين شروط المحافظة على البيئة؟ قالت إنّها، كعادتها، تقبل العروض التي تخمّن أنّها ستكسر إيقاع الرتابة، وتجعل الجسدَ والمشاعر في حالة يقَظةٍ واستئناس. وبما أنّها جولة عبر أرجاء قارّة بكاملها، فلا شك أنّها ستنطوي على مفاجآتٍ سارّة؛ وإذا لم تكن سارّة، فهي قد تعوّدت على أن يُجاوِرَ القبحُ الجمالَ في الفضاء نفسه... غيابُ إيفلين يحرمني من تلك اللّقاءات التي تُخرجني من حالات التأمُّل والشرود، وتُبعدني عن التفكير في الموت. لها قدرة على استنطاق جسدي وبثّ الكهرباء في ثناياه، لينطلق نحو قمة الشهوة، ناسيًا كلّ ما يشدُّه إلى الأسفل. الآن، في غيابها، سيكون عليّ أن أتعلّم الانتظار، وكأنّني عاشق لأوّل مرّة.

طالت غيبة إيفلين، وبدأت وطأة الوحدة تثقل عليّ، وأنا لا أرغب في استعادة الاختلاط بالناس والتردُّد على المطاعم والمقاهي. غير أنَّ حنيني إلى المرأة وحضورها يلاحِقني، فالاشتهاء لم يختف من جسدي الكهل، وحبّ المرأة جزء أساس في حبّي للحياة. عليّ أن أقول إنَّ مغامراتي مع نساء من مختلف الأعمار، قوّت لديّ التعلُّق بالحضور الأنثويّ الذي يضيء جوانب مجهولة في ذاتي، ويوهمني بأنَّ ما أعرفه عن الغِبطة والمتعة في حضرة النساء، هو نزرٌ يسير، لأنَّ كلّ معاشرة للمرأة تحمل معها المزيد من المسرَّة والمعرفة. وإلّا كيف أفسّرُ انجذابي، منذ التقاعد، صوبَ منطقة النساء الكهلات، المشرفات على عتبة الستّين أو المُجاوزات لها قليلًا؟ وهنَّ يحتفظن بنوع من الجاذبيّة، وبعضهن يُفصحن عن رغبةٍ في متابعة اكتشاف مكنونات جسدهن، حتى وهو يرتاد أرذل العمر؟ هل لقراءاتي عن استمرار حيويّة الغريزة الجنسيّة في سِنّ الكهولة والشيخوخة، أثر في انتعاش هذا الميلِ الإيروسيّ لديّ؟ أم أنَّ تجربتي المتنوّعة نسبيًا، هي التي أقنعتني أنَّ امرأة كهلة على الفِراش، تقدّمُ عطاءً له مذاقُ النضج والتلهُّفِ والتفاني في استثارة الشهوة الغافية في جسد مَن يشاركها الفراش؟ لكنْ، ليس هناك «جنس خالص»، كما تشترط نساءٌ باحثات عن شريكٍ عبر الشبكة العنكبوتيّة المخصّصة للتعارف بين الجنسين. أو على الأقلّ، هذا ما استخلصتُه من تجربتي. لا مناص من تلك الهالة الوهميّة التي توقظ الشهوة الغافية من خلال الغِرابة والإفصاح عن عواطف تعطي للجنس رونقه وسحره، وتبعده عن الجفاف الذي يميت الشهوة ويُفقدها البهجة.

لأمدٍ طويل، كنت كلّما قابلت السيّدة «ل.ن» التي أشرفت على السبعين، أيقظت في نظراتها وشفتاها الشهوانيّتان وكلامها المُموسَق، رغبة في ملامستها ومسح تعاريج جسدها بقبلات صغيرة متقطّعة، والبحث بأصابعي عن الأغوار البركانيّة الغافية. كان الحديث في الثقافة والسياسة يأخذ الحيّز الأكبر من وقت اللّقاء، وعندما ألمح لها برغبتي في خلوةٍ، تتجاهل أوّل الأمر، وعندما ألحّ ثانية تنبّهني إلى أن سِنّها يفرض عليها التنسّك والزهد في ملذّات لم يعد جسدها يستجيب لها، منذ فقدت زوجها. أحاول أن أقنعها بأنَّ كلّ عُمرٍ يبتدع ممارسة جنسيّة ملائمة، لكنّها تمعن في التمنُّع. حكيتُ لصديقي (ع . ك) عن فشلي في إقناع «ل.ن» بخوض تجربةٍ حميمة، فضحك عاليًا وهو يقول: يجب أن تنتبه، فسلوكك هذا علامة على مسارك نحو الأفول. المفروض في كهلٍ مثلك أن ينجذب إلى فتياتٍ في مَيعة الصبا، يُحيينَ عظامك قبلَ أن تصير رميمًا!

ظللتُ طوال أسبوع في شقَّتي لا أبرحها، مُحاصرًا بأسئلةٍ ملحَّة تطلب قرارًا بالنسبة للأيَّام المتبقية لي في ضيافة الدُّنيا. اكتفيتُ في تغذيتي بما خزَّنتُه في الثلاجة من أطباق «بيكارد» المطبوخة، وفي بعض الوجبات أطلب بيتزا بالهاتف. لا أجيب على المكالمات الهاتفيَّة، إلَّا إذا كانت من كاترين أو بدر، وأنصت دون انقطاع إلى أنواع متباينة من الموسيقى والأغاني... كأنَّما أريد أن أبقى وجهًا لوجه مع ما سأتَّخذه من قرارات. وكثيرًا ما أضحك من حالة التأهُّب والاستنفار التي لجأت إليها، لأحدِّد الطريق المختلف الذي سأسلكه خلال ما تبقَّى من عمري. (أصحِّح العبارة الأخيرة بيني وبين نفسي فأقول: لأبحث عن موتٍ مختلف).

ليس وضعًا مريحًا على كلّ حال، أن أتحفَّز وأضفي مظاهر الاهتمام، وأنا بصددِ التفكير في ما آلت إليه حصيلة مساري المُتخطّي لسبعين سنة، مُتطلِّعًا إلى استئناف مُغايِر يأخذ في الحُسبان ما أصبح يُكوِّن ماضيّ. من هنا، تبدأ متاهة الاستعادة والتأمُّل وربط المراحل بعضها ببعض، والبحث عن خيطٍ ينتظمُها. أنا في الواقع، عشتُ كلّ هذه العقود معتمدًا على الغريزة والحدس، واللُّجوء إلى المقارنة كلَّما تراكمَت لديّ خبرة بما نُسمِّيه، تعميمًا، بالحياة. غير أنَّ التناقضات والمفارقات ومضارب الأهواء كثيرًا ما كانت تجرِفُ ما كنتُ أظنّه خبرة تحميني من المزالق. ربما مغامرتي بالمجيء إلى فرنسا، ودراستي للفلسفة، هما وراء ما أسمِّيه الآن حِكمة العقل والبصيرة، التي لا أنفكّ أقنع نفسي بأنَّني استهديتُ بها في هذه المرحلة الأخيرة من حياتي! غير أنَّني أتناسى عاملي الصدفة واللَّامُتوقَّع اللذين يكمنان وراء منعرجاتٍ، أصبحتُ أؤرِّخ بها لرحلتي الطويلة التي لا تكاد تُسفر عن حقائق مُطمئِنة.

ماذا كانت ستكون عليه حياتي لو لم أعش أحداثَ ثورة الطلَّاب في فرنسا في مايو ١٩٦٨ ؟ لو لم ألتقِ ألبير الصديق المُحاور، وكوليت الفاتنة، رمز الحُرِّيَاتيَّة والتمرُّد على المواضعات؟ لو لم أحبّ كاترين وأتزوَّجها وأنجِب بدر الذي ملأ حيِّزًا كبيرًا من وجودي؟

وتتسَلسَلُ الأسئلة إلى أن تصل إلى أغوَص سؤال: ماذا لو أنَّني رجعتُ إلى المغرب بعد إنهاء دراستي الجامعيَّة، وانخرطتُ في سيرورة الحياة بما هيَ عليه؟

في غمرة هذه التساؤلات، تذكَّرتُ حادثًا عابرًا سكَنَ مُخيِّلتي أمدًا طويلًا. كنتُ في السنة الأخيرة من دراستي في الجامعة. وأنا عائد من مشاهدة فيلم عن الحرب العالميَّة الثانية، وجدتُ صفًّا طويلًا أمام مخبزة

في المقاطعة السادسة، اشتهرت بجودة صُنع خبز القمح الخالص وهلاليّات الفطور وحلويات «ألف ورقة»... دون تفكير، أخذتُ مكاني في الصفّ الطويل. أمامي امرأة في عزّ الشباب، لها مُحيّا وضّاء، لا تكفّ عن الحركة لتسخين جسمها أمام هبّات ريح المساء الباردة. ابتسمتُ لها دون أن أنبس بكلمة. الصفّ ما يزال مُمتدًّا، والأقدام تتململ ببطء. كلّما استدارت نحوي ابتسمتُ. فجأة، هجمت عليّ وطبعت على شفتيّ قُبلة ساخنة. لم أجرؤ على معانقتها في انتظار أن تعاود العناق؛ لكنّها خرجت من الصفّ، وسارت بخطوات متسارعة دون أن تلتفِت... كلّما تذكّرتُ تلك القبلة على شفتيّ، قبل المغيب عند باب المخبزة، تساءلتُ عمّا كان سيؤول إليه مساري لو أنّ العلاقة تطوّرت مع صاحبة المُحيّا الوضاء، ولم تبقَ في حدود نزوةِ القبلة المحمومة العابِرة؟

أظنّ أنّ صوت الطلّاب خلال مظاهرات مايو ٦٨، هو الذي نبّهني إلى أهمّيّة الإفصاح عن الرّغبات، بما فيها النزوة العابرة التي تكشف ما هو كامِن في الأعماق. منطق العلائق الاجتماعيّة الموروثة يفرض قضْمَ وتجاهُلَ حزّيّات ورغائب الفرد، سواء كانت ذاتيّة أو لها طابع جماعي...وأنا أسمع شعاراتهم الجريئة، وانتقادهم للحكومة ورئيس الجمهوريّة والشرطة ومؤسّسات الأسرة والجامعة والأحزاب، أدركتُ أنّ الأوضاع القائمة ليست ناتجة عن صدفة يمكن أن تتغيّر من تلقاء نفسها، وإنّما هي قائمة وفق مصالح واختيارات متشابكة، مُتدثّرةٍ بأردِيةٍ لا يُطابق مظهرُها جوهَرَها المتخفّي. كنتُ كلّما ردّدتُ شعارًا، أقيسُه بوضعي، أنا الوافد من بلادٍ تسودها قيَمُ الوصاية والحِجر، وتُحنّطُها تقاليدُ كاتمة للأنفاس. شيئًا فشيئًا، بدأتُ أشعر وسط الهتافات بِكِياني المُتواري، المتضائل، يتنامَى ويُبرز تقاسيمَه عبر نداءات الحرّيّة والانعتاق. أدركتُ، وقد اختلط صوتي بصوت الطلّاب الآخرين، أنّ وضعيّتي يمكن أن تتغيّر، وأنّ هناك قضايا كثيرة مشتركة، إذا تحقّقت ستخلّصنا من سطوة الآليّات المتستّرة التي تعوق طموحنا إلى المعرفة والحبّ والمساواة... ما قالته لي تجربة ٦٨، هو أنّ كلّ فرد مسؤول عن حماية حريّته وحرّيّة الآخرين داخل مجتمع، يتربّص به دومًا ماسكو السُلطة وأصحابُ الامتيازات...

كانت تجربتي داخل الحزب الاشتراكي الفرنسي مُضيئة لجوانب أخرى، تتّصل بتغيير البنيات والحفاظ على الحقوق، عبر صراع ملموس تتجابَهُ فيه الاختيارات، وتعلو خلاله السُلطةُ على ما سطّرَته المبادئ. وفي الوقت نفسه، كانت فرصةً لِمعاينة فضائل الصراع الديمقراطيّ المنظّم

داخل دولة الحقوق: لا شيء مُعطىً بكيفيَّة نهائيَّة؛ وتطوُّر الأوضاع داخل المجتمع وفي أرجاء العالم يقتضي تجديد الخِطاب ومناهج التفكير، والجرأة على الانتقاد. عندما قرَّرتُ العيش في فرنسا، بدأتُ أحسّ أنَّ فيضًا من الحرِّيَّة يغمرني، لدرجة أنَّني كنتُ أحيانًا لا أعرف ما أفعله بحرِّيَّتي. لعلَّ انتمائي إلى رجال التعليم، ووضعي الاعتباري كمثقَّفٍ ينتمي إلى حزبٍ يساريّ، هو ما فتح الأبوابَ في وجهي قياسًا إلى ما يُعانيه شبَّان وفتيات الضواحي، الذين هم مثلي ليسوا من أصلٍ فرنسيّ خالص. تلامذتي في اللِّيسيه كانوا يحكون لي عن الميز والتهميش، ما جعلني أشعر كأنَّني فرنسيّ من أصحاب الامتيازات. حاولتُ إقناع شباب الضواحي بالانخراط في أحزاب اليسار، ليتمكَّنوا من إسماع صوتهم والإسهام مباشرة في تغيير الأوضاع، إلَّا أنَّهم كانوا يردِّدون بأنْ لا فائدة من وراء ذلك، لأنَّهم ينتمون إلى دين أصبح مشبوهًا ومتَّهمًا بالعنف، وآباؤهم من شعوبٍ كانت بالأمس، مستعمراتٍ ضمن الأمبراطوريَّة الفرنسيَّة... تراكمت الأسباب وتضخَّمَ سوء التفاهُم، وتسرَّبت الثقوبُ إلى صرح الديمقراطيَّة، وأصبح العنف مُكرَّسًا لدى شباب الضواحي، يعبِّرون من خلاله عن شعورهم بالظلم، وتمادت الأحزاب في لعبة «الديمقراطيَّة التمثيليَّة»، مُستهينة بغضب المُهمَّشين، وتنامي العنصريَّة والكراهية...

كما هو مُعتاد، نشأت ظاهرةُ التهميش والعنصريَّة والميز بأنواعه، تحت أعيُن المؤسَّسات والسياسيِّين منذ عقود؛ ولعلَّ الصحافة كانت أوَّل من نبَّهَ إلى تفشيها، لكنَّ أصحاب القرار لم يتصدُّوا في الوقت المناسب لمحاصرتها ومعالجة أسبابها. والأمر نفسه تكرَّر مع ظاهرة التطرُّف والجهاديِّين الأصوليِّين، الذين وجدوا المجال للاستشراء والاستقطاب...بل هو ما تكرَّر منذ فترة، إذ نزل آلافُ الصينيِّين المولودين في فرنسا، ومعهم آسيويُّون آخرون لهم الوضعيَّة نفسها؛ نزلوا إلى الشوارع في مظاهرةٍ تطالب بالأمانِ، بعد أن قُتِلَ شابّ صينيّ على يدِ مُتعصِّبين، يُضايقهم وجودُ جاليةٍ صينيَّة نشيطة تعتبر نفسها جزءًا من المجتمع الفرنسيّ. تذكّرنا مظاهرة الآسيويِّين بالمظاهرات الأولى لأبناءِ المغاربيين (البُوز: **les Beurs**) في سنة ١٩٨٠، حين نزلوا إلى الشارع مُطالبين بإنصافهم كمواطنين فرنسيِّين: هي دائمًا مهزلة رفضِ أبناءِ «الأرومة» الفرنسيَّة للوافدين من ثقافاتٍ وديانات مختلفة، لأنَّهم لا يمتلكون مُقوِّمات الهُويَّة «الأصيلة» التي تبدأ بالانتماء إلى الأجداد «الكُولوا» ! لذلك أصبحتُ مُقتنعًا بأنَّ تشخيص أدواء المجتمع يكون أقرب إلى الدقَّة، عندما نضع في الواجهة حقيقة تساكُنِنا يوميًا مع الكابوس المتولِّد عن أسباب مُتشابكة،

قادت المجتمع إلى هذا الوضع الهشّ، المُوزَّع بين شراهةِ الاستهلاك والفُرجة، وبين الخوف من عواقب الفوارق والفزز ووحشيَّة سُجناء الماضويَّة.

لِحُسن الحظ، أقول في نفسي، إنَّ هذا الهلع الكابوسيّ في فرنسا، يجد مَنْ يقاومه ويسعى إلى معالجته من الجذور. وإذا كانت وسائط الإعلام تُعلي دقَّاتِ الطبول مُنذرة بالويْل والثبور، والمرشَّحون للرِّئاسيَّات يتبارون في نسج الوعود المعسولة، فإنَّ آلاف المواطنين يظلُّون ماسكين بِخيوطِ الوعي المُتيَقظ، رافضين حلول الانغلاق والخِطابَ الهُويّاتي الجامد. لمستُ ذلك خلال تردُّدي على سهراتِ حوارٍ في ساحة الجمهوريَّة، يتوافدُ عليها كلّ مساء آلافُ المواطنين من كلّ الأعمار، لإحياء ما أسموه «ليلة واقفة» (**Nuit debout**)، يخوضون خلالها نقاشًا مفتوحًا، متنوّعًا، ساخنًا، يتناول العلاقة التي تربط المواطنين ببلادهم فرنسا، التي تمرّ في فترة حرجة، وتتعرَّض لهجمات الإرهاب الإسلامويّ المتطرّف. لكنَّ الحوار يضع المستقبل نصب عينيه، ويترك حرِّيَّة القول لمن شاء أن يتكلَّم. الأصوات المتحدِّثة تتدفَّق في حرارة وسرعة وانفعال، لِتقولَ الجِراح التي تقضّ مضجعها وتجعلها غريبة في وطن الثورات وحقوق الإنسان: شابّ أسمر، اشتكى من البطالة التي تستمرّ منذ ثلاث سنوات، بعد تخرُّجه من كلِّيَّة الاقتصاد؛ لم يستطع مساعدة أبويه المحتاجين إلى العونِ، ولا يتمكَّن من الزواج والاستقرار. كلَّما أنهى حديثًا اختباريًّا مع شركة أو مقاولة، ظنَّ أنَّه سيظفر بالعمل، لكنَّه يُفاجأ بالاعتذار عن توظيفه. يتساءل هل سبب فشله في الحصول على عمل يعود إلى الاسم الذي يحمله، أم إلى لونِ بَشَرَته؟ كأنَّما العمل في فرنسا أصبح خاضعًا لرموزٍ سرِّيَّة، تمارس الفرزَ لإبعادِ الفرنسيِّين المشكوك في هويَّتهم؟

امرأة في الأربعين تتحدَّث بِلوعةٍ عن ظاهرة الانتحار التي تستشري بين الشباب وبعض قطاعات العمل، وتحكي قصَّة أختها الصغرى التي أخبرتها بِعزمها على الانتحار، فحاولت هي أن تقنعها بالعُدول عن قرارها، لكنَّها لم تُفلح. منذ انتحار أختها، وهي تعيش تحت وطأة كابوس الذنب والشعور بالعجز، لأنَّها فشلت في تزيين الحياة لأختها اليائسة...

تتدخل بعض الأصوات لتحضّ المتكلِّمين على إيلاء الأولويَّة للقضايا العامَّة، واقتراح الحلول العادلة الممكنة. يعترض آخرون بأنَّ من حقّ الجميع أن يتكلَّموا عمَّا يشاؤون، لا فرق بين عامّ وخاصّ، وأنَّ طرح جميع المشاكل والأفكار هو ما قد يؤدّي إلى اكتشاف مكامن الداء المُغيَّبة

وراءَ خطب السياسيِّين وتمويهات الوزراء. لا نريد، يقول آخرون، أنساقًا وأطروحات تحلِّق بعيدًا من واقع الناس الذين هم، فعلًا، معرَّضون لعواقب التحوُّلات والقرارات الفوقيَّة. أصوات أخرى ترفض أن تناقش «اللَّيالي الواقفة» أوراقًا مكتوبة أو برامج بديلة؛ نحن بحاجةٍ إلى حوار مفتوح لنستمع إلى ما تحذفه الرقابة المتحايلة. لا أحد يمكنه ادّعاء القدرة على التفكير بدلَ الآخرين. هنا نفضِّل التفكير الجماعي الذي قد يُفرز طرقًا غير مسبوقة...

شعرتُ بنشوةٍ منعشة، وأنا أتردَّد على «اللَّيالي الواقفة» لأسمع أصواتًا جريئة، تمتح من نسوغِ الثورة الفرنسيَّة، ومن عذاباتٍ قلَّما نلتفتُ إليها في حياتنا اليوميَّة.

قلت في نفسي، لن يذهب الاحتيال والشعبويَة والكابوس الأصوليّ بعيدًا، ما دامت بذور هذا الوعي الكامن قادرة على القول الصَّريح من غير ادّعاءِ امتلاكِ «حلٍّ ناجع». وقد لا تُفضي هذه الحوارات المُتدفِّقة إلى استخلاص طريق ملموس يُعيد الأمل إلى اليائسين، لكنَّ المساهمين في سهرات «اللَّيالي الواقفة» سيكونون قد أسمعوا صوتهم طوال شهور قابلة للتجديد...

في لحظات التأمُّل، وأنا جالس في شرفةِ غرفتي بعد منتصف اللَّيل، وقد أشرف الصيف على الانسحاب، تعاودني حلقات من حوارات المواطنين في ساحة الجمهوريَّة، فأقِرّ بأنَّها لحظات مشرقة في هذا الصيف المفجع. معهم حقّ أصحاب تلك الأصوات الذين خرجوا من الهامش، ليجهروا بمشاعرهم ويعرضوا جراحاتهم. ليس الحلّ، كما ردَّدوا، هو أن نسطِّر تشريعات لحماية المواطن، فهي غير كافية، لأنَّ ما يتطلَّع إليه الناس هو تحقيق طريقةٍ للعيش، تجعلهم يحبُّون الحياة ويتقاسمُونها مع من حولهم، لا أن يعيشوا في أمانٍ داخل أقفاصٍ متقاطعة، يُراقبون مِن جوفها أشباحَ الأحياء/الأموات.

ما داريتُه زمنًا طويلًا، ولم أفلح في محوِه من الذاكرة وخلايا الجسد، هو شعور مُبهَم، كاسِح، بأنَّ تغيُّرًا في أعماقي يتكاثفُ ويطفو، دون أن يبينَ عن ذاته، ودون أن أمسك بجوهره: كالتيَّار الجارف، كالموج الصاعق، أو التسينامو المتصاعد هديرُه من بعيد، وأنا أترصَّده ولا أعرف من أيّ موقع عليّ أن أستقبله. إنَّه شعور لازمني منذ سنوات، لكنَّني كنتُ مستسلمًا لدوَّامةِ العمل والجري وراء أحلامٍ ينسخُ جديدها قديمها، من غير أن تتلاشى حواشيها الطوبويَّة، المتطلِّعة إلى الآتي.

بعد التقاعد، أو قبله بقليل، تعاظم هذا الشعور، وأرغمني على مراجعة المسارِ والدخول إلى منطقة اللّايَقين. بدأت استعادة ما عشته، مستعينًا بما اختزنته ذاكرتي وَسجّلته ذاكراتٌ متباينة ترسَّبت أصداؤها في مجال المكتوب والمسموع والمتخيَّل. وأعترف أنَّ الرحلة كانت مُجتزأة، تصطاد الشظايا أكثر ممَّا تنساق للأحداث الطوليَّة المتعاقبة. شيء طبيعيّ في نهاية التَّحليل، لأنَّ ما يتبقَّى لدينا من حياتنا هي اللَّحظاتُ البارزة، المؤثّرة، والأسئلة التي رافقت الانعطافاتِ والتجارب التي خلخلت الجسد والاعتقاد.

أشياء كثيرة عشتها منذ ولادتي في دبدو إلى أن غادرتُها في سنّ العشرين، لم أتوقَّف عندها، ربما لأنَّ إقامتي الطويلة في فرنسا حجبت عنّي ما قبلها، أو جعلت تلك البدايات تتوارى أمام تعلُّقي بمستقبل مختلف، وبِنمطٍ من العيش مثير للحواس والتفكير. في منطلق شبابي، عانقتُ قيمًا يشهد لها الجميع بالكونيَّة ومساندة مفهوم الإنسانيَّة الذي بلوَرَه فلاسفة ومفكّرون في القرن الثامن عشر، وجعلوا منه محجَّة بيضاء، سرعان ما أصبحت نبراسًا للثورات التي تصبو إلى تحرير البشر من الرّق والاستعباد والظلم واللامُساواة... وأنا وجدتُ في دراسة الفلسفة ما رسَّخ لديّ ضرورة التشبُّع بالمذاهب، التي انطلقت من مفهوم الأنوار وعملت على تطويره. وكانت انتفاضة مايو ٦٨ لحظة واعدة على طريق الأحلام الطوبويَّة، راهنتُ عليها بقوَّة. ثمَّ أطلَّ الأمل الاشتراكي على فرنسا في ثمانينيَّات القرن الماضي، فدخلتُ إلى دوَّامةِ النضال التي كشفت لي الغطاءَ عن تعثُّر الحلم حين يرتادُ مجال الفعل.

ما تبقَّى لي من خلال هذه التجربة، هو أنَّها ربطتني بِعَيِّناتٍ من الناس لهم سجايا وسلوكيّات، أقنعتني بأهمّيَّة الزفقة والحوار والصداقة. تعلَّمت، بالتدريج، أن أعطي الأسبقيَّة لتجسيد المبادئ في السلوك، ولو كان تجسيدًا نسبيًا، مُتعثّرًا. إلاَّ أنَّ إيقاع التحوُّلات داخل فرنسا، منذ مطلع الألفيَّة الثالثة، عرفَ تسارعًا مُربكًا يحارُ المحلّلون في الإحاطة بتجلّيَاته وعواقبه. وما قوَّى قلقي هو صعود أقصى اليمين في الانتخابات البلديَّة والتشريعيَّة، وانتشار قيم الانغلاق والعنصريَّة، إلى جانب عمليّات الاغتيال والتخريب التي يمارسها تنظيم إسلامويّ يستغل الدّين، لتثبيت خطّة عالميَّة تخدم أغراضًا وحشيَّة معادية للإنسان... يكون من الطبيعيّ، حينئذٍ، أن يتفشَّى الخوف وتتناسل الكوابيس، وتختلّ العلاقات بين المواطنين، ويعمّ الارتياب في قدرة الدولة ودور القوى السياسيَّة...

في هذه الفترة التي تسبق عودتي إلى دبدو لترتيبِ إقامتي المزدوجة بين المغرب وفرنسا، تزورني أمّي في معظم أحلامي. هي كما رسخت صورتُها في ذاكرتي منذ الطفولة وإلى أن غادرتُ المغرب: هي هي بوجهها المُدوَّر وعينيها السوداوين، وشعرها الملموم في «روميّة» زاهية الألوان، لها جدائل تتدلّى فوق الجبهة والقفا؛ وابتسامة لا تكاد تُفارق محيّاها. لا تفتأ تردّد، وهي تعانقني: «على سلامتك يا وْليدي طوْلت الغيبة. أنا عاقلة عليك منايَنْ جيتِ لدبدو ديك المرّة وْزرتني ف الفقبرة... ديما تندعي معك ومع وْليدَك بدر...». وأحيانًا تنساق إلى محادثتي بالأمازيغيّة التي لم أعد أتذكّر مُعجمَها؛ كأنما هي تغتنم فرصة غياب والدي، فتلجأ إلى لغة الأم الثاوية في أعماقها؟

حضورها في أحلامي أيقظ في الحشا تلك المحبة المُستعصية على التّحديد، المُتوغّلة في ذاتي جُرحًا لا شفاء له. كنتُ أعرف أنّها أُمّيّة، لم تتردّد على المدرسة، غير أنّ حديثها معي على قِلّة كلماته، كان يقنعني، يفتنُني بمنطقه الفِطري. وكم كنت أستحضر في لحظات القلق وساعات الشك، اطمئنانها وروقَها وثقتها في القَدَرِ، خيرِهِ وشرّه.

بعد طولِ تفكير واستعادةٍ لِمسار حياتي في أكثر من صيغة، وبعد لفلَفَة الذكريات وطرح الأسئلة، استقرّ رأيي على أن أوزّع إقامتي، خلال الفترة المُتبقّية من عمري، بين باريس ودبدو مسقط الرأس. كان حوارُ المكاشفة مع ابني بدر في شقّتي، من أهمّ الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذه الصيغة. إلى جانب ذلك، تبدو الأوضاع في فرنسا قابلة لاحتمالاتٍ تسفِرُ عن فوز اليمين وأقصى اليمين؛ بينما اليسار يتلمّس طريقًا إلى تجميع الصفوف واستعادة ثقة الناخبين... أنا لم أعد أحتمل العمل في صفوف حزبٍ فاقد البوصلة. أحسني ممتلئًا باختيارات أكثر جذريّة، تأخذ في الحسبان مطالب الفئات الواسعة التي يُحاصرها التفقير والخوفُ والكوابيس المتناسلة. هذا ما سأجهر به خارج الحزب، في فضاءات عموميّة تتشكّل بتلقائيّةٍ من لدُنِ مواطنين راغبين في الحوار وتجلية الحقيقة...

أمّا علاقتي بالمغرب، فستأخذ صيغة ملموسة تتمثّل في إقامتي نصف السنة في دبدو، حيث سأسعى إلى فتح فندق ومطعم صغيرين، أموّلهما من مُدخّراتي، وأيضًا بِشراكةٍ مع صديقي «رابح» الذي وافق بعد أن كاتبتُه في الموضوع. قلتُ له إنّك دعوتني إلى العودة، وها أنا ألبّي الدّعوة، لكنّني سأستقرّ في دبدو لا في الدار البيضاء. طبعًا، سآتي إلى

زيارتك أنت وجماعتك «الماسونيَّة»، لأستحمّ في البحر وأتنشَّق العِطرَ الأنثويّ الذي يضمّخ سهراتكم الحميمة...

منذ اتَّخذتُ هذا القرار، أصبحت دبدو تشغل حيّزًا من أحلامي. في غالب الأحيان، أراني في المنام مُمتطيًا مُنطادًا مُحلِّقًا فوق عين تافرنث، وفي الأسفلِ أشجار اللَّوز والزيتون والبرتقال، ومقابر اليهود القديمة، وصوامع المساجد الثلاثة، وأنا مُنتشٍ بالهواء النقيّ والبيوت المطليّة بالجير، والتلال المتناثرة عند خطّ الأفق. هذه ليست مدينة تعمُرها البناياتُ الشامخة ومداخن المصانع وضجيج السيَّارات؛ هي فضاء بِكرٌ، يتخايل لي أنَّه يصلح نموذجًا للحفاظ على البيئة.

أضحت دبدو عندي في الكرى واليقظة، فضاء للبدء والتَّكوين، ونيزكًا يشعّ ليضيء لي السبيلَ إلى الانطلاق في مسارٍ يُرمِّمُ ثقوب حياتي، ويستدرك ما لم أنتبه إليه في حينه. لا أكفّ، في ساعات الأرق، عن التساؤل عن معقوليَّة ما سأقدم عليه وأنا في عزّ الشيخوخة. حينئذٍ تُعاوِدُني فكرةٌ هوسيّة، أقلّبُها منذ سنواتٍ: ماذا لو أنَّ الخالق منحنا فترة نقضيها مُتنقِّلين بين الموت والحياة؟ لنُجرِّب العيش في ذلك العالم الأخروي، ونتمكَّن من المقارنة، لنكتشف فضائل الموت، فقد تكون له فضائل تفوق مُتعَ الدُّنيا العابرة؟

لو تحقَّقت هذه الأمنية لأخرجتني، أقول مع نفسي، من ورطةِ التأويلات الفلسفيَّة المتَّصلة بميتافيزيقا الوجود والعدم، التي تجعل الاختيار موزَّعًا بين احتمالين: «وجودٌ للموت» يتَّخذ حياتنا معبرًا نحو الفناء؛ وفي المقابل، «الموتُ برهان على وجود الحياة» الذي يلخِّصه كوجيتو ديكارت مقلوبًا: «أنا أموتُ وإذن فأنا موجود».

في أيّ شيء يُفيدني اختيارُ أحد التأويلين؟ كلاهما يُقرّ بحتميَّة الموت، أيّ أنَّهما يُضفيان الشَّرعيَّة على عميد الملائكة، عزرائيل، الذي يُمارس القتل، على حدّ قول الشاعر القديم. أسترسل في خواطري، فأقول إنَّ الحياة والموت يتقاسمان عالم الأرض وملكوت السَّماء، والعلاقة بينهما تتقمَّص صراعًا أبديًّا، الغلَبَة فيه دومًا للموت، أو بتعبير آخر، للدّهر قاهِر اللَّذات ومُفرِّق الأحباب. والمنية ليس لها منطق، بل تخبط خبط عشواء، مُستجيبة لنزواتٍ تخلِّف الألم والحزن لدى مَن فقدوا أحبتهم، وما يزالون مُنتظرين نوبَتَهم في الرحيل... ماذا لو أنَّهما اتَّفقا على التعايُش، ومنحا الإنسانَ حقَّ العيش في الأرض والسَّماء بالتناوُب، ليتمكَّن من تحقيق الكمال الذي ظلّ يصبو إليه، منذ طُرِد آدم وحوّاء من جنَّة السَّماء، بسبب

تطلُعهما إلى جنَّةٍ تكون أكثر اكتمالًا فوق الأرض؟ لن يُضير ذلك في شيء: أن يُقسم عُمر الإنسان إلى إقامتين: واحدة في أحضان الحياة، وأخرى في ضيافة الموت، ثمَّ يترَكُ له بعد ذلك، أن يختار إقامة أبديَّة هنا أو هناك؟

في نهاية الأسبوع الأوَّل من سبتمبر الماضي، قرَّرتُ أن أخرج من عزلتي وتأمُّلاتي المتناسلة. قصدتُ ساحة الباستيل، لأبحث عن بارٍ ومطعم في شارع سانت أنطوان، قرأتُ أنَّه يقدِّم وجبات متنوِّعة وأطباقًا من المزَّة تحتوي على السردين والسلطعون والأجبان وأنبذة من كلّ أنحاء العالم، لها أريج مُتدثِّر بنكهة تتسلَّل إلى المسام والعروق... حين وصلتُ في الثامنة مساء من ذاك السبت، كان المطعم ممتلئًا، وبعض رُوَّاده واقفون عند الباب، يتحلَّقون حول براميل من خشب فوقها زجاجات وكؤوس، وهم يتحدَّثون بصوت مرتفع، ويضحكون بتلقائيَّة وانشراح، مُستمتعين بدفء الصيف المتلكئ عن الرحيل. وجدت كرسيًّا متاحًا عند كونتوار البارِ، اقتعدتُه وطلبت زجاجة نبيذ أحمر إيطالي، وأطباقًا من المزَّة التي يعبِقُ أريجها بفضاء المطعم. أشرب متلذِّذًا، متجوِّلًا بنظراتي على الزبائن المُلتئمين حول الموائد، يتبادلون الكلام ويشربون الأنخابَ، والفرح بادٍ عل مُعظم الوجوه. في الوهلة الأولى، فوجئتُ بهذا المناخ الاحتفالي، مع أنَّ باريس عرضة للهجمات الغادرة التي كانت مسرحًا لها قبل أشهر، والتي حصدت في نيس يوم ١٤ يوليو الماضي أطفالًا ونساء وشيوخًا يُعَدُّون بالعشرات...قلت في نفسي: الإقبال على الحياة هو أيضًا شكلٌ من المقاومة. وتذكَّرتُ قولًا قرأته في مجلة، أو سمعته في حوارٍ أحد الأفلام (لم أعد أذكر)، يقول: «أنتَ تتناول عشاءك في هدوء، مع علمك أنَّ عاصفة على وشك أن تُخرِّب سِماطَ مائدتك: ذلك هو تعريف صحيح للحياة».

أحتسي النبيذ وأمَزْمِز ما في الأطباق، وأجيلُ النَّظر في وجوه الزبائن المنتشين بوجودهم، وأتناسى الكوابيس وثِقَلَ السنين التي أرزح تحتها، مُعرضًا عن مشاكل العالم، التي طالما شغلتُ نفسي بالبحث عن حلّ لها، مركِّزًا اهتمامي على تذوُّق الأطباق الشهيَّة، ومَزِّ الخمرة المتلألئة في كأسي، ومتابعة الفرح الذي يعلو محيَّا جميع هؤلاء الرواد الذين تناسوا ما قد يُكدِّر صفوَ المِزاج. كنتُ آخر زبونٍ يُغادر المطعم؛ ووجدتُني أسير على قدميّ فترة طويلة باتِّجاه ساحة الجمهوريَّة، قبل أن أركب سيارة أجرة.

أثناء سيري في آخر اللَّيل مُنتشيًا، أحسستُ أنَّ كلّ شيء يُغري بالاستمرار في هذه الحياة، ووجدتُني أستطيبُ الشيخوخة التي كنت بدأت أشكو من وطأتها. قلت: عليّ أن أتعلَّم تمجيدَ الشيخوخة على غرار

ما فعله بطلُ رواية غابرييل ماركيز في «تذكارُ عاهراتي الحزينات» الذي يحلم، وقد تجاوز التسعين، بأن يغادر الحياة عن طيب خاطر حين يبلغ مائة سنة!

عندما صحوتُ متأخّرًا في الصباح، بعد تلك اللّيلة الجميلة التي صنعتها الصدفة، كان قراري جاهزًا بالنسبة لما سأفعله في ما تبقّى من العمر: إعادة توطيد الصلة بمسقط الرأس، وقضاء الأيّام المتبقّيّة بين فرنسا والمغرب، ممارسًا الحضور نفسه في الدُّنيا، متّخذًا المواقف ذاتها، جاهزًا بالرأي وحريصًا على مُحاورة مَنْ حولي...

لم يكن قرارًا سهلًا، لأنّ جذوري في فرنسا أحسّها أكثر صلابة وتأثيرًا في وعيي ورؤيتي إلى العالم. قد أكون قد أخطأت حين انسَقتُ إلى تناسي مسقط رأسي، واعتبرتُ بلد النزوح والتجنُّس موطنًا خالصًا لفكر الأنوار والثورات المتجدّدة، متغاضيًا عن كونها أيضًا بلدًا للمستعمرين وأرباب الأموال الذين حكموا بلادي طوال نصف قرن... هل يعود الخطأ إلى فورة الشباب وسحر الثقافة الفرنسيّة، اللذين جعلاني أظنّ أنّ تحقيق الذات وبناء مجتمع الحداثة هما ساريتانِ أساسيّتان في سفينة المستقبل، التي جوازها المراهنة على القيم المضيئة لِعصر الأنوار؟

أذكر أنّني، في سنتي الأولى بشعبة الفلسفة، انبهَرتُ بالأستاذ الذي كان يلقي محاضراته عن علاقة نيتشه بالفلسفة الإغريقيّة، من خلال كتابه «مِيلادُ التراجيديا»، مُعرِّجًا على مقولته الشهيرة» صِز ما أنتَ» **(Deviens ce que tu es)**، التي فتحتْ أمامي دفقًا من التساؤلات لم تتوقّف إلى اليوم.

فكّرتُ: هناك إذن، جوهر يحدّدني، وعليّ أن أستجليَه، وأغذّ السير لأصل إليه وأعانقه، لتكتمل الذّاتُ وتصبح على بيّنةٍ من رغباتها وأهدافها في الحياة. إلّا أنّني لستُ مطلق الحرّيّة والقوّة. لستُ وحدي في العالم. قد يكون جوهر ذاتيّ محاطًا بمُعوّقاتٍ تحولُ دون وصولي إليه. نيتشه يهمس بأنّ ذلك يقضي أن نترك لِلكينونة أن تكونَ؛ ألا ننشغل بالتوافهِ والأمور الثانويّة، والجوهر ليس ثابتًا، مكتملًا، وليس مُعطىً دفعة واحدة؛ بل هو مشدود إلى الصيرورة والتحوُّل. والتجربة هي التي تبلورُه بالتقسيط وتعمل على إنضاجه. لاحظ الأستاذ، في محاضرته، أنّ نيتشه جرُؤ على الشك في كلّ شيء، واتّخذه مِقفزًا إلى الاقتراب من الحقيقة المتغيّرة باستمرار. إنّه لا يُغفل أنّ الذّات عنصر من بين ما لا يُحصى من العناصر الأخرى المُكوِّنة للمجتمع. ومن ثمّ، لا تستطيع أن تصل وحدها إلى جوهر

كينونتها عبر الصيرورة. لا نستطيع أن نصل إلى تحقيق ذواتنا إذا لم نتعامل مع الآخرين، إذا لم نتعاون معهم ونتَّكئ عليهم لمُعانقة صيرورتنا. لكنْ، في جميع الحالات، ومهما كان اتِّجاهنا الفكريّ، يظلّ كل فردٍ وحيدًا، تعود إليه وحده مهمَّة أن يصير ما هُوَ... يضيف الأستاذ: الفرد والمجتمع صيرورتاهُما مرتبطتان، إلَّا أنَّ على الفرد أن يحميَ الرَّغبة بوصفها عاملًا محرِّكًا لوجوده، تحميه من الانقياد والجمود والاستسلام لِما هو قائم. وجود الرغبة بمعناها الشاسع، يحمي الفردَ من الآلام وعوارض الأمراض النفسيَّة، ويقود الإنسان إلى تلك الصيرورة المطلوبة...

لا أزعمُ، وأنا مُشرف على نهاية رحلتي الدُّنيويَّة، أنِّني اهتديتُ بما سطَّرَهُ نيتشه في كتاباته الممتعة التي تمزج نفاذ البصيرة بنفحات الحدس الشعريّ وإشراقات الإلهِ ديونيزوس. لكنَّني وجدتُ عنده ذلك الحبّ المطلق للحياة، التي يعتبرها معينًا للإحساس ورفض وطأةِ الموروثات المحنِّطة.

أتساءل في نفسي: ألا يعود شغفي بعصر الأنوار، إلى ذلك السياق الحُرِّيَّاتي الذي واكبَ ولادتَهُ وألهَمَ فلاسفته وكُتَّابه إلى رصد الحياة وإبراز صيرورة القيم وتبدُّلِ علاقات الرجل بالمرأة؟ أتذكَّر قراءتي لرواية «العلائق الخطيرة» (**Les liaisons dangereuses**) التي كتبها بيير دو لاكلو في شكل رسائل(١٧٨٢)، فتنتصبُ أمامي صيرورة الحياة التي جعلت العواطف والأخلاق والرَّغبات تتغيَّر، فظهر نزوع سافِر إلى الشرّ والإباحيَّة والاستمتاع، تلك الخصال التي كانت الكاثوليكيَّة ونِفاقُ الطبقة الأرستقراطيَّة يحرصان على ردعها وكتمانها؛ غير أنَّ تدفُّق حياة جديدة في القرن الثامن عشر، كسَرَ الحواجز وسمحَ للرَّغبة الشهوانيَّة أن تبدو في عرامتها وصيرورتها إلى التحقُّق عبر الأجساد المتمرِّدة على الحجر والكبت.

أقول، مُسترسلًا في التأمُّل والتذكُّر: لا مناص من انتهاكِ جمود الطاعة والتقاليد الموروثة، لكي تواصل الصيرورة طريقها. لولا الاختلال/ الانتهاك الذي فجَّرته الممارسة المتحرِّرة من قيود الأخلاق الطهرانيَّة طوالَ عصر الأنوار، متفاعلة مع أفكار الفلاسفة والروائيِّين، لَمَا استطاعت فرنسا أن تغادر شرنقة التزمُّتِ الدينيّ، لتنطلق نحو مغامرة تحرير العقل والجسد والعواطف.

«صِز ما أنتَ»، صرخة تختصر مشروع كلّ واحد في هذه الدُّنيا. ما من إنسان إلَّا ويسعى إلى إثبات وجوده ضدّ الجميع، وبتعاونٍ مع الآخرين. صراع لا مَناصَ منه، إلَّا أنَّه يُفضي إلى التكامل. والرِّهان هو على إدراك ما

تحقّق به ذاتك، وسط عالمٍ يموجُ بالمنافسة والمثبطات وأسباب القلق والاكتئاب والخوف من السُقوط في أوّل الطريق أو في وسطه...

أنا وجدتُ أفق صيرورتي في تلك المبادئ التي اعتبرتها كونيّة، تحرّرُ الفردَ والمجتمع. لم يكن وعيي متبلورًا أوّلَ الأمر، بل استغرق عقودًا من التجربة والمغامرات. ما زادَ من صعوبة اكتمال الوعي، ذلك التحوُّل السريع للعالم منذ منتصف القرن الماضي؛ ولا أزعُم أنّ صيرورتي لم تتأثّر بالتحوُّلات، خاصّة في مجال السياسة وصراع الإيديولوجيّات والعقائد. اهتزاز المنطق والقيم تلوّن بالإفرازات السلبيّة، فأصبح العنف مُبرّرًا لدى أقوياء العالم وعند مجانين الإيمان الدّيني الأعمى.

أرجّحُ أنّ ما دفعني إلى تغيير مجرى حياتي في هذه السّنّ المتقدّمة، هو شعوري بأنّ طريق الصيرورة الذي سلكته، يظلّ بحاجة إلى أن يختبر قيمَ الأنوار والحداثة في سياق متصلٍ بوطني الأوّل، لأتأكّد أنّ تحقيق ذاتي له مصداقيّة أيضًا في مجتمعٍ خضعَ لاستعمارٍ فرضته عليه بلادُ الأنوار نفسها. طوال العقود التي عشتها في فرنسا، كنتُ أؤجّل هذه المواجهة متعلّلًا بحجج تبرّر في الواقع، هروبي إلى الأمام. من ثمّ، شعوري الدّائم بنقصان عنصر حيويّ في «صيرورتي إلى ذاتي». أتبيّن الآن، أنّ حوارًا سرّيًا ظلّ يدور في أعماقي، وأنا أتجاهله مفضّلًا التمسُّك بالحاضر المتحرّك، والتطلُّع إلى أفقٍ توَهَّمته على مرمى حجر. إلّا أن ما عشتُه منذ التقاعُد الذي حكيتُ بعض فصوله في سرديّةٍ لولبيّة، هو ما انتهى بي إلى اتّخاذ قرار العيش بين ضفتين، بين فضاءين متباينين قد يلتقيان عند أفق مشترك؟

أتخيّلُني، منذ الآن، جالسًا في صالون الفندق الصغير الذي سأفتحه في دبدو، ومجموعة من الشبّان والشابّات تحيط بي، وأنا أستمع إلى حديثهم وتعليقاتهم، وأسألهم عن مشاريعهم وهِواياتهم. سأنصتُ إليهم أكثر ممّا سأتحدّث. لكنّهم إن سألوني عن تجربتي ورأيي في قضايا تهمّهم، فلن أتردّد في الجهر بما أعتقد. سأحثّهم على أن يطرحوا جميع الأسئلة التي تشغل بالهُم، أو أحجموا عن طرحها خوفًا من ردّ فعلِ سدنةِ المعابد، أو لأنّها أسئلة سابقة لأوانها؛ ليقولوا كلّ شيء، لأنّ الوقت الذي أضعناه في الطاعة العمياء، والقبول بما هو بعيد عن رغبات الشباب وطموحهم، قد فوّتَ علينا الانخراط في صيرورة التغيُّر، وبعث الحماس. سأقول لهم إنّ أهمّ شيء، احترامُ حقّ المواطنة وحرّيّة الفرد في التعبير والاعتقاد. من دون حرّيّة، لن نستطيع أن نتنفّس ونكبُر. سأحكي لهم كيف أنّ شغفي

بالحرّيّة التي افتقدتُها وأنا في دبدو، هو ما دفعني إلى السفر إلى موطن الحرّيّة. بل إنّ عشرات الدبدوبيّين الذين قابلتهم في فرنسا وأوروبا، أخبروني أنّ ما دفعهم إلى البحث عن فضاء آخر للعيش هو افتقادهم للحرّيّة في مسقط رأسهم، الذي ظلّ منغلقًا على أسواره العتيقة، المتهدّمة...

سأتساءل معهم: ما الذي يمنع هذه البلدة التي عرفت ازدهارًا، منذ قرون، من أن تستعيد أسبابَ التجدّد والانخراط في سيرورة التحوُّل؟ أنتم شباب متعلّم ولكم طموح إلى المعرفة، ويمكنكم أن تدافعوا عن القيم التي تحتاجها دبدو ويحتاجها الوطن؛ والقناعة وممالأة التقاليد المهترئة ستزيد من طمس حاضر هذه البلدة بعد أن طُمِسَ ماضيها. قد تحلمون بالهجرة، لكنّها ليست دائمًا هي الحلّ. أظنّ أنّكم تستطيعون، هنا، أن تستكملوا صيرورتكم باتّجاه الانفتاح على الهُويّات المتباينة التي يتكوّن منها عالمُ اليوم لتتفاعلوا معها، لأنّ هويّتكم تتأكّد بمعانقتكم التعدُّدَ والانفتاح...

وإذا سألوني عن مسألة الدّين، سأقول لهم إنّ اللّائكيّة هي العنصر الأساس في الوصول إلى تفكيك فتيل القنابل المتفجّرة والموقوتة التي يفخّخ بها مُتعصّبون، جَهَلة، أجواءَ السّلام والتسامح في بلادنا وخارجَها. أكثر من ذلك، سأقول إنّ حماية الإسلام هي في تطبيق اللّائكيّة التي تقطع الطريق على الإرهاب، وتضمن ممارسة واعية لشعائر الدّين؛ وسأذكّرُهم بالقولِ الشهير: كادَ الفقر أن يكون كفرًا. من ثمّ، ضرورة توفير كرامة العيش لحماية دينِ الناس...

سأقول لهم أشياء كثيرة، تعلّمتُها وعِشتها، عن الحبّ والجنس والسياسة، عن ضرورة أن يحموا دبدو من جشع المتاجرين في العقار والمُضاربين الذين يُبيّضون الأموال في بناء عماراتٍ تُناطح السحاب. سأحكي لهم عن هفوَتي الكبيرة أثناء زيارتي لمسقط الرأس، بعد خمسين سنة من الغياب، حين استدرجتني أحلامُ اليقظة إلى أن أتخيّل نفسي مهندسًا معماريًا بدلًا من أستاذ للفلسفة، قادرًا على تحويل دبدو إلى ميتربوليس عملاقة، لها شوارع واسعة مزفّتة، تصطفّ على نواصيها بنايات شاهقة ومتاجر وكازينوات ومراقص... سأعترف لهم أنّني كنتُ مخطئًا، إذ ظننت أنّ التّغيير يبدأ من خارج ذوات الناس ومن استبدال الملابس والمساكن... سأخبرهم أنّ أحلامي تغيّرت منذ تلك الزيارة، إذ أصبحتُ كثيرًا ما أحلم بأن أصير شجرة على حافّةِ بحيرة هادئة، خضرتُها دائمة كالأبد، وجذعُها ضاربٌ في أعماق الأرض، تتعاقبُ عليها الفصولُ

وهي دائمة التجدُّد، مستمتعة برقص البجع على أغاني «مالِك الحزين»، وسط البحيرة الممتلئة بطُيور البطّ والوزّ التي لا تكفّ عن العوْم. وفي كلّ خريف، تتأهَّبُ الشجرة التي ضِرتُها، لاستقبال قيامةٍ تكسوها لِحاءً متدفِّقًا وكيانًا مجبولًا من نُسوغ الربيع...

سأحدِّثهم عن الموت. لماذا لا أحكي لهم عن علاقتي بالموت؟ سأصارحهم بأنَّ شبح الموت يقضّ مضجعي، لأنَّني أسرفتُ في حبّ الحياة، ولا أطيق أن أنقَلَ رغمًا عنّي، إلى منطقة العدم. ارتيادُ دهاليز الشيخوخة يقترنُ بخوفي من دنوّ الأجل، ويوهِمني أنَّ عزرائيل باتَ على مقربةٍ منّي ويدُه على زنادِ البندقية. أحاول أن أتصوَّر شكلًا رحيمًا لموتي، كأن يفاجئني عزرائيل وأنا في سابِعِ نوْمَة؛ أو وأنا على جناح طائرةٍ تخترق عنان السماء، أو وأنا في أحضان امرأة جميلة تُنسيني سكرات الموت!

خلال الحقبة الأخيرة، عندما انهمكتُ في استعادة مساري ومراجعة علاقتي ببدر وبِمسقط الرأس، والتفكير في صيغةٍ لتمضيةِ الفصل الأخير من أيّامي، تساءلتُ ما إذا كان بالإمكان أن أتطلَّع إلى موتٍ مختلف؟ طبعًا، الأمر لا يعود إليّ، ولا أحد يستطيع أن يتنبَّأ بساعة رحيله. لكنّني أحاول أن أقنع نفسي بأنّني أستطيع، حين أحسّ بِدُنوّ الموت، أن أتحدّى عزرائيل مناديًا ومخاطبًا إيّاه باسمه، لأستدرجَه إلى حوارٍ أطلعه فيه على ما نويتُ أن أنجزه قبل الرحيل. سأحرجه قائلًا إنّني كلّما دعوتُ إبليس الرجيم للمحاورة استجاب ودافع عن نفسه، وأنكر أن يكون هدفه الإساءة إلى الإنسان؛ وإذن لماذا لا تلبي دعوتي يا عزرائيل رئيس الملائكة، لأسمِعك رأيي في مهمَّة قبض الأرواح التي أوكِلَتْ إليك؟

أظنّ أنَّه سيُحرَج وأنا أخبره باستجابة إبليس إلى دعوتي. وعندما يكشف عن وجوده عيانًا أو من خلال صوته، سأقول له: أهلًا يا سيِّد عزرائيل. أنا لا ألومك، إذ أعرف أنَّك متنفِّذ تَضدَع بالأوامر التي تصدر إليك؛ مع ذلك، أظنّ أنّ باستطاعتك أن تساعدني على إطالة بقائي بضع سنواتٍ لا غير. لن أطمع في بلوغ السنّ القصوى التي بلغتها اليوم عميدة الأحياء إيما مورانو الإيطاليّة وهي تحتفل ب ١١٦ سنة من عمرها، وإنما أريد شوطًا إضافيًا لأصحّح مسار حياتي، وألتحم أكثر بالرهانات التي جعلت صيرورتي تعانق الحرّيّة وترفض ما يعوقها.

قد لا تكون لك يدٌ في تنفيذ الكوابيس الحاصدة للأرواح، تلك التي يدبّرها زبانيّة القتل، لكنّني أقول لك بملء الفم، إنّها مشاهد تضاعف من بشاعة الموت. أنا لا أعلّل نفسي بالجنّة ولا أدري هل سيتبقّى من جسدي،

بعد حلوله في غيهَب القبر، عظامٌ تصلح طعامًا لجهنم. بكلّ بساطة ومن غير أوهام، أريد أن أراهِن على ما عشته في هذه الدُنيا الملموسة ذات المذاق الحلو حين تصفو، والموجِعة حين تتفجّر تناقضاتها ناشرة عنفها المجنون...أريد أن أراهنَ على ما تنطوي عليه من مُتعةٍ، لا أظنّ أنَّ مثلها يوجد في السماوات العليا. أصارحك: أنا أوثر ما عشته وجرَّبته هنا، على ما وُعِدَ به المؤمنون في عالم أخرويّ مُحتمَل.

سأعطي لنفسي، قبل أن تقطف روحي، حقّ التوهُّم بأنَّ ما عانقته طوال رحلتي في الحياة الدُنيا، سيستمرّ مُيَمِّمًا صوب الحلم الإنسانيّ الجميل، ليعطي للبؤساء، المظلومين، ولفئة المُضَلّلين الظلاميّين، فرصة تشييد حياةٍ يُطرّز حواشيها الحبُّ والحرّيّة والطمأنينة خلال رحلتهم الدنيويّة.

ما أطمح إليه، يا عزرائيل المُحاط بجوقة الملائكة التي يتقدّمها ميخائيل ورفائيل، هو أن أسعى إلى أن تصبح أبواب مدينة دبدو مُشرَّعة، كما كانت، لتستقبل الوافدين من كلّ الجهات، تحتضنهم بما هم عليه من تنوُّع واختلاف، تطعمهم من تينها وزيتونها وعِنبها، وتنعشهم بهوائها العليل، وتنقل أصداء أغانيهم إلى ما وراء الجبال. سأنادي جميع الدبدوبيّين الذين نزحوا بحثًا عن فضساء أكثر حرّيّة، لأقنعهم أن يسعوا إلى تحقيق ما افتقدوه على أرض مسقط رأسهم، حيث يتوافَدُ على السّاحة شباب مُتعطّش لما تصبو إليه كلّ نفس بشريّة. سأقول لهم جميعًا: آن أن تستأنفوا رحلة الأنوار من هنا.

أمّا أنا، فسأظلّ خلال الوقت المضاف، مشدودًا إلى إغواء المجهول، طائرًا يجتاز الحدود، حاملًا تحت الخوافي والقوادِم من جناحيه رسائلَ الأخوة والسلام.

إذا أسعفتني، أيُّها العزرائيل المُتخفّي، على هذا الموت المختلف، ستجعلني أعتقد أنَّ المنية لها معنًى، وأنَّها استراحة ضروريّة للذين طال سفرهم وتعِبوا، مثلي، لكي تخلفهم كتيبةُ جُندٍ في عنفوان الشباب، تمتطي أحصنة بيضاء، تتخطّى الحواجز، تدُكّ قلاع القتلة، تُرمّمُ، تجدّد، تُعمّر، وتشدو بمباهج الحياة.

١٨/٥/٢٠١٤

١١/١٠/٢٠١٦

لاليك/ جنوب

فرنسا

إشارة

كتب ونصوص استعنتُ بها أو كانت حاضرة في الذاكرة أثناء الكتابة :

• دون كيخوتِ دي لامانشا ثربانتس ترجمة رفعت عطفة؛ دار ورد للطباعة والنشر، دمشق ٢٠٠٤.

• Bernard Stiegler: Dans la disruption: comment ne pas devenir fou? éd. Les liens qui libèrent , ٢٠١٦ .

• Gilles Deleuze : Les sociétés de contrôle, in Revue: L'autre journal; mai ١٩٩٠.

• Revue Diogène N° ١٧٣; année ١٩٩٦, Gallimard.ed

• Le Monde et France culture: ٣٠ ans de débats (١٩٨٦- ٢٠١٦);

Hors-Série. Patrick Wald Lasowski: Le grand dérèglement, Ed. Gallimard, ٢٠٠٨.

• Daniel Cohn- Bendit: Forget ٦٨: Entretiens avec S. Paoli et J. Viard Ed. de l'aube ٢٠٠٨.